

كتاب الشمس
THE BOOK OF THE SUN
حكايات من شمس المعارف الكبرى
مبنية على قصة حقيقية
محمود علام
ساحر الكتب

كتاب الشمس

حكايات من

شمس المعارف الكبرى..

مبنية على أحداث حقيقية..

محمود علام

إهداء واجب:-

بدأ الأمر بفكرة..

مصادفة جعلتني في ذلك اليوم بالذات أتحدث مع صديقي (جمال فرج عبد الناصر) عن ذلك المقال الذي كتبه عن كتاب (شمس المعارف الكبرى) أو (شمس المعارف ولطائف العوارف) لـ(أحمد بن علي البوني) وعن خبراته السابقة معه.

مجرد فضول جعل الحوار بيننا يزداد أهمية مع الوقت.. حتى اقترح هو –مازحًا– في يوم ما أن أحوِّل الحكاية إلى رواية.

أصبح الأمر حقيقة واقعة في تلك اللحظة.. بمجرد أن وافقت –مازحًا أيضًا– حتى تحول الأمر إلى مشروع جاد، وكان أول رواية مسلسة قمت بكتابتها حتى النهاية ..

الحقيقة أن الأمر لم يكن ليستمر أو لينجح لولا متابعينا الأعزاء، الذين ساندونا وأعطونا اهتمامهم وآرائهم، حتى تحول الأمر إلى ظاهرة ينتظرها أكثر من ثمانية آلاف شخص أسبوعيًا.. تماما كالمسلسلات التلفيزيونية.. وتطور الأمر أكثر حتى أصبحت المطالبة بتحويل المشروع إلى رواية ورقية شيئًا حتميًا.. وها نحن ذا.

لذلك، فسأستغل هذه المناسبة الخاصة لشكركم جميعًا على متابعتكم ونقدكم الراقي الذي ساهم -بعد الله سبحانه وتعالى- في نجاح هذا المشروع وشهرته، التي لم تكن لتتحقق لولا اهتمامكم والشغف العميق الذي تابعتوه به.

عائلتي وأصدقائي الأعزاء، وبالأخص الراوي الأصلي والبطل الحقيقي لهذه الأحداث (جمال فرج عبد الناصر)، الذي سمح لي باستعارته بعض الوقت.. لم تكن هذه الرواية لتوجد من الأساس لو لم يروِها هو في المقام الأول.

لن أنسى كل من تابعنا، وكل من وجَّه إلينا إطراءً جميلًا أو نقدًا لاذعًا؛ فلولاكم لما خرجت هذه الرواية للنور.

هذا المشروع بدأ بكم، ومنكم سينطلق هو ومشاريع أخرى لا تعد ولا تحصى إلى آفاق أوسع وأشمل.. ولكن أحدًا لن ينسى أنكم جميعا كنتم البداية.. بداية لمشروع روائي واسع لم يكن ليُخلق لولا مساهمتكم.. لم يكن ليكتمل لولا البذرة التي زرعها كل واحد فيكم في أرض قاحلة، لتنبت وتزدهر وتنشر خيرها وعطاءها لكل من حولها.

بذرة تفتحت في وسطكم أنتم .. وتحت ضياء (شمس المعارف الكبرى).

فشكرًا لكم جميعًا.

تنويه:-

هذه الرواية مكتوبة بطريقة غير تقليدية وغير مألوفة، وبناءً على ذلك فأنا أطلب منكم التعامل معها بطريقة غير مألوفة أيضا.. تخيلوا أنكم تتعاملون مع سيناريو مكتوب.. تعاملوا معها على أنها حلقات مسلسل تلفزيوني مقروءة، هذا سيسهل عليكم متابعة الرواية أكثر.. التنويه الآخر هو أن الأحداث التالية وكل الشخصيات المذكورة ها هنا حقيقية تمامًا، ويمكنكم البحث عن الطرق والشخصيات من خلال شبكة الإنترنت، مع مراعاة تاريخ البحث.

أما عن الرواية نفسها، فأنا لا أنصح بقراءتها ليلًا، ولا بتجربة أي طريقة تجدونها في الصفحات القادمة بأي صورة من الصور؛ لأنها لن تفيدكم على الإطلاق، بل على النقيض تمامًا.. هذه الرواية صنعت وكتبت خصيصًا لإيضاح الخطر الحقيقي من تلك الأمور، وإبعادكم عنها لأنها لا تجلب إلا الوبال.

أعرف أن الأمر أقوى منكم.. هذا شيء طبيعي ومفهوم. في داخل كل إنسان فضول قط كبير يرغب في عبور الشارع.. بعضهم ينجح في العبور فعلًا، والبعض الآخر تدهسه السيارة.. فأيهم أنتم؟؟

لا أعرف، وبالتأكيد أتمنى أن تعبروا الشارع في سلام، ولكن السيارات كثيرة فعلًا.

فقط تذكروا..

المعرفة المحرَّمة لا تقود إلى التنوير، ولا تؤدي لشيء إلا لفتح باب إلى الجحيم..

باب لا تريدون تجربته..

مقدمة:-

أجلس على السرير في الظلام..

أنظر إلى الساعة ذات العقارب الفسفورية..

إنه الفجر..

لسبب ما لا أشعر بالراحة.. لماذا!؟؟

لا أدري بالطبع.. هذه أشياء لا يمكنك أن تدعي أنك تفهمها.. كل ما تقدر عليه هو أن تمر بها وتخرج منها بخبرة ما تثبت عدم فاعليتها في الموقف التالي.. فقط لتعرف أن القاعدة الوحيدة هي أنه لا قواعد.. لا فهم.. كل ما يمكنك أن تفعله هو أن تحكي.. تتكلم.

وليس الكلام سهلًا.. الكلام أصعب مما يتصور البعض.

ليس الأمر بسهولة تَذكُّر ذكرياتك وقصها على الناس.. بل هو أعقد من هذا بكثير.

تبقى هناك مهمة تهذيبها وحذف بعض الأشياء وإضافة بعض المعلومات، الكثير من التفاصيل.

لذا لم أعد أريد الكلام.. دعوني أحكي لكم على الورق.. أعتقد أنني سأقدر على ترتيب أفكاري بشكل أفضل بهذه الطريقة.

فقط دعوني أفتح ستائر الغرفة ليدخل الضوء الخافت مصطحبًا معه الهواء المنعش المميز.

أفتح النافذة.. أنظر إلى الشارع..

خالٍ تمامًا.. لا أحد هنالك.. لا أحد سواه بالطبع.

من هو؟؟ وماذا يفعل في الشارع في هذا البرد؟؟

ربما أخبرتكم في يوم ما.. وربما جاء هذا الوقت أقرب مما تتصورون.. ولكن ليس هذا موضوعنا الآن.. فقط دعوني أغلق النافذة من جديد؛ فالبرد قارص حقا.

إنه فجر يوم جديد.

أنت تعرف ذلك الجو الخلاب الذي يأسرك في اللحظات الأولى من الفجر والصباح.

أحب أوقات اليوم إلى قلبي.

أعيد الستائر إلى موضعها، ثم أستدير لأجلس على مقعد المكتب في شرود.

لا يسعني وأنا أنظر إلى أوجهكم النضرة التي قررت فتح هذا الكتاب والغوص بين صفحاته الآن إلا أن أتساءل.

لماذا؟؟

هل هو فضول؟؟ هل هو رغبة في التجربة؟؟ هل هو تلذذ ماسوشي بتعذيب الذات من خلال الرعب؟؟ أنتم تعرفون ذلك الشعور.. تذكرون وجوه صغاركم أو أصدقائكم وهم يشاهدون أفلام الرعب الحديثة في الظلام أمام شاشة الكومبيوتر أو السينما.. ذلك الخوف والرعب والانتفاضة المفاجئة التي تليها –لابد ولو بعد فترة– تلك الضحكة أو الابتسامة المنتشية.. تلك المتعة الخفية التي تنكرها لنفسك، ويعرفها أي مخرج أفلام رعب يجيد عمله.. متعة الرعب التي تسري في عروقك كالمخدرات.

لا أدري حقيقة، ولكن ما أراه هو أنكم جميعا هنا.. وهذا قادر على رسم البسمة على وجهي دائمًا.

ومن أنا؟؟

لا أدري.. من ذلك المدعي الذي يجسر على القول أنه يعرف ماهية نفسه!؟

أنا (جمال فرج عبد الناصر).. البطل الحقيقي لهذه الأحداث التي أنتم على وشك قراءتها الآن.. نعم..

أنتم لم تخطئوا السمع.. هذه أحداث حقيقية تمامًا، لم أحرِّفها أو أتدخل فيها بأي صورة من الصور، إلا في بعض التفاصيل الصغيرة التي لا تهم أحدا غيري. يبقى هنا عامل التصديق لديكم.. فهل يكفي؟؟ ليس هذا موضوعنا، وليس مهما على أية حال.

ليس المهم أن تصدقوا أو لا تصدقوا.. المهم هو تجربة الرعب ذاتها.. تلك التجربة التي تدفع فيها المال وأنت توشك على ركوب قطار الموت في الملاهي أو دخول فيلم الرعب الأخير في السينما.

تلك التجربة التي أقدمها لك الآن مجانًا.. فقط اجذب مقعدا واجلس.. اقترب مني.. أنصِت إلى صوت أنفاسي الذي يغلفه الصمت والترقب.

ودعني أتكلم.

* * *

تمهيد:-

قال لي عمي (صلاح):

.«عارف يا جمال؟ دايما بيشغلني موضوع حروف القرآن.. معناها إيه.. ليه موجودة كده ومكتوبة بالشكل ده.. نفسي أفهم.. طول حياتي بدور وبقرأ في كتب عشان أوصل لحاجة»

* * *

بدأ الموضوع في أواخر التسعينيات.

كنت وقتها مراهقًا لا يشغل تفكيره شيء، ويعيش حياته كأي مراهق.

القراءة ومحاولات بسيطة للكتابة لم تكن لتحدث لولاه.

عمي (صلاح) رحمه الله.

كان من أقرب الناس إلى قلبي وقتها، وكان هو من يشجعني على القراءة والكتابة، ويؤمن بأن لدي موهبة ستنمو يومًا ما وأصبح معها كاتبًا مشهورًا.. كان هذا هو ما يدفعني لحبه في الواقع.. المرء دومًا يحب من يعامله كالبالغين ويؤمن به ويشجعه على ما يحبه.

وبسبب حبي له، أصبحت أهتم بما يهتم به هو أيضا.

كان –رحمه الله– باحثًا في القرآن وعلوم الدين وشديد الاهتمام بالتفسيرات، وكانت لديه مكتبة لم أر مثلها في حياتي.. ويمتلك شرائط كاسيت لكل المقرئين والشيوخ، وكان يحدثني عنهم بالساعات.

وأحد تلك الأشياء التي كانت تشغل ذهنه وكان يكلمني عنها دائمًا، هي الحروف.

كان يؤمن بأن حروف القرآن تحوي أسرارًا لا يدركها أحد، الحروف عمومًا وليس القرآن فقط. كان يؤمن بأنها لو كُتبِت بطرق معينة فستمنحها تلك الطرق قوة من نوع ما.. لا أدري لأنني لم أفهم كلامه كله بالضبط، ولكن هذا ما أتذكره.

حاولت بسبب تفكيري في ذلك الموضوع أن أبحث عن شيء ما يفسر لي ما كان يقول، أو على الأقل يمنحني معلومات أكثر عنه، فلم أجد.. ولا تنس أننا كنا في التسعينيات، حيث كان الإنترنت في مصر نوعًا من الخيال العلمي.

فبدأت أبحث عن الكتب.

كنت أقوم برحلة أسبوعية إلى سور الأزبكية من مسكني –الذي كان في شبرا– لأبتاع كميات من الكتب يسيل لها لعاب أي قارئ.. كانت تسليتي الوحيدة هي القراءة بالساعات.

وبعد فترة من البحث، وجدت كتابًا لا أذكر اسمه بالضبط، يتحدث عن الخوارق التي تحدث لعباد الله الصالحين.

يتحدث عن أهل الخطوة الذين يفعلون أشياءً مستحيلة –ليس المشي على الماء وشفاء المرضى أقلها– نتيجة العبادة والاعتزال.. هذه الأجواء التي تذكرك بالمجاذيب الذين تعج بهم الطرقات خلف مسجد السيدة أو الحسين.. أنتم تعرفون عما أتحدث.

كانت تلك الأجواء مبهرة لي وقتها، لا تنس سني الذي كان بين الخامسة عشر والسادسة عشر.. وتمنيت أن أصبح من هؤلاء الأولياء والعباد الصالحين.

كيف؟؟

لم أكن أعرف طريقة سوى العبادة.

بدأت وقتها أزيد من عباداتي، وأواظب على الصلاة وقراءة القرآن، وأقرأ أكثر في ذلك الكتاب.

ووسط كلماته، وجدت جُملًا مثل هذه:

(المطلع على أسرار القرآن)

(العارف بأسرار حروف القرآن)

وهكذا..

إذن فلم يكن عمي كاذبًا أو مخرفًا.. بل كان محقًا.. تلك الحروف فعلًا لها أسرار لو عرفها الإنسان لصار خارقًا للعادة. طبعا هذا تفكير مراهق في السادسة عشرة من عمره ولم يجرِّب شيئا من متاعب الحياة.. مراهق يحب الإثارة والتشويق.. تذكر نفسك وكيف كنت تفكر وأنت صغير السن.. أنت تفهمني بالطبع.

أخذت أقرأ وأقرأ في ذلك الكتاب حتى انتهى، ولم يفدني بأي شيء، ولكنه زرع الفكرة في رأسي.

وتركها لتنمو.. وتتشعب.. ومع الوقت، أصبح كل ما يشغل تفكيري هو أسرار الحروف وهؤلاء العباد الصالحين.. كان كالهاجس الذي ينمو في داخلي فلا يترك لي مجالًا للتفكير في أي شيء آخر.. وسواس.. هوس مرضي يسيل له لعاب أي طبيب نفسي.

ووقتها كان لدي صديق قريب جدًا يدعى (مصطفى).. كان بمثابة أخ لي، يذهب معي إلى أي مكان، واهتماماته هي اهتماماتي، وهواياته هي هواياتي، ما عدا القراءة؛ لم يكن يحبها ويراها مضيعة للوقت، وكان الكائن الذي يقرأ كتابًا بالنسبة له هو كائن فضائي خارق يستحق الانبهار به لقدرته الفائقة على تحمل الملل.. لابد أنكم جميعًا كان لكم مثل ذلك الصديق في يوم من الأيام، إن لم تكونوا أصدقاء حتى الآن.

كانت ميزة (مصطفى) في عيني هو أنه كان شجاعًا، ولم يكن شيء يقدر على إخافته.. كالحمقى بالضبط.

ومن هنا كانت البداية...

(الحلقة الأولى)

سيناريو تمهيدي

Pilot

- ١ -

وسط البلد..

ميدان التحرير..

الساعة الثالثة عصرًا..

.«بقولك إيه.. تعالى نقعد في أي حتة عشان تعبت»

قلتها لـ(مصطفى) وأنا أتجه ناحية الرصيف لأجلس عليه، فنظر لي في دهشة ثم رد ساخرًا:

.«الله يرحم لما كنت بتجري زي الجمل من شبرا لرمسيس في ٤ دقايق»

.«هو الجمل بيجري؟؟»

.«بطَّل برود واقعد يا حتة (.......)»

جلس بجواري صامتًا لحظة، ثم قال:

.«أنا زهقان أوي»

نظرت له وأنا أفكر..

ما الذي يمكن أن نفعله؟؟

يجب أن أسليه حتى لا يتسلى عليّ أنا.

قلت:

.«هحكيلك موضوع جامد جدا»

.«إيه؟؟»

.«بص يا سيدي.. انت عارف عمي (صلاح) مش كده؟؟»

.«آه.. راجل عسل»

.«تمام.. عمي بقى مهتم أوي بحوار القرآن وأسرار حروف القرآن وكده يعني»

.«مش فاهم»

.«يعني هو بيقولك إن القرآن حروفه مكتوبة بطرق معينة، وإن اللي يعرف أسرار الطرق دي يقدر يعمل أي حاجة.. فيه كتاب أصلًا أنا جبته وقريت فيه شوية بيقولك إن أولياء الله الصالحين والناس اللي بتعبد ربنا كتير بيوصلوا لأسرار الحروف دي.. بس بردو لسة في حاجات مش فاهمها»

صمت (مصطفى) مفكرًا للحظة، على وجهه تلك النظرة التي أعرفها جيدًا.

لقد بدأ الموضوع يثير اهتمامه.

.«طب وبعدين؟؟ يعني الناس دي بتعمل إيه بالظبط؟؟»

قالها متسائلًا، فهززت كتفي ورأسي في حيرة وأنا أقول:

.«مش عارف، بيقولك بيقدروا يمشوا على المية ويطيروا ويشفوا الجروح ويعملوا حاجات خارقة»

.«سحر يعني؟؟»

.«حاجة زي كده آه»

ابتسم في جذل وهو يقول:

.«حلو الكلام ده يالا»

.«مانا عارف.. هو أنا بقول حاجة وحشة!؟»

صمت قليلا ثم قال:

.«طب ما تيجي نجرب نعمل الحاجات دي؟؟»

ابتسمت..

كنت أعرف أن الموضوع سيثير اهتمامه..

قلت له مبتسمًا:

.«نعملها إزاي يا روح طنط!؟ بقولك مش فاهم حاجة.. محتاج كتب تانية أقراها عشان أفهم»

قال وهو يمط شفتيه:

.«أم الكتب بتاعتك دي.. خنقت أمي»

.«سلامة الحاجة»

.«طب بقولك إيه»

.«إيه؟؟»

نظر لي في خطورة وهو يقول:

.«ما تيجي نجيبلك الكتب؟؟»

نظرت له في دهشة لحظة ثم قلت ضاحكا:

.«مالك اهتميت بالموضوع أوي كده؟؟»

.«وليه ما أهتمش!؟ انت عارف إني بحب الحاجات دي»

.«عارف ياخويا»

نهض من مكانه وهو يشير لي بالنهوض.

.«طب قوم»

.«قوم فين؟؟»

.«هنروح سور الأزبكية»

نظرت له في دهشة قائلا:

.«دلوقتي؟؟»

أحاط كتفي بذراعه وهو يجذبني نحو محطة مترو (أنور السادات) قائلا:

.«انت وراك حاجة؟؟»

.«لأ»

.«طب يالا يا (.....).. بطل (....)»

.«انت محتاج تتربى ياض»

.«مش عاجبك، طلّقني»

ابتسمت محاولا ألا أضحك، وأبعدت يده عن كتفي.

.«طب اوعى إيدك! الدنيا حر يا رذل!»

واتجهنا إلى المترو..

* * *

- ٢ -

العتبة..

سور الأزبكية..

الساعة الثالثة والنصف عصرًا..

.«هنطلع من أنهي سلم ؟؟»

قالها (مصطفى) متسائلًا بعد أن ترجلنا من المترو، فنظرت حولي لحظة ثم قلت:

.«من هنا.. هنبقى قريبين من السور أكتر»

صعدنا بعدها في السلم خارجين من مترو العتبة، وتوجهنا إلى الأزبكية..

.«إحنا هندور على إيه؟؟»

.«مش عارف»

.«وحياة أمك؟؟»

ضحكت وأنا أقول:

.«يابني والله ما أعرف هندور على إيه»

قال (مصطفى) في غيظ:

.«ولا! ما تجننيش!! أومال إيه اللي جابنا هنا!؟؟»

قلت مستمتعًا بإثارة غيظه:

.«انت!»

كاد يكيل لي لكمة تطير أسناني كلها، لولا أن قلت:

.«طب خلاص خلاص ما تتعصبش كده.. هنسأل عند أي مكتبة وهما هيوجهونا»

.«ماشي»

وصلنا إلى سور الأزبكية بعدها ودخلناه.

أنت تعرف سور الأزبكية.. المكتبات المفتوحة على الشارع مباشرة، وتلك الكتب الملقاة في كل مكان هي نتيجة لجهود الحكومة الرائعة لتنظيم العتبة.. قبلها كان السور رائعًا، ولكن بفضل جهود الحكومة –الجميلة– طبعًا أصبح المنظر كما ترى الآن.

.«الله يحرقهم!»

.«هما مين دول؟؟»

.«الحكومة.. هما اللي خلوا المكان عامل كده»

.«طب حط لسانك جوة بقك واخرس عشان مانتمسكش أمن دولة»

خرست، وأخذنا نتجول أنا وهو بعض الوقت.

.«تعالى نخش هنا كده»

دخلنا مكتبة يجلس على بابها كهل يرتدي سترة ممزقة وبنطالًا من مخلفات الحرب.

.«سلامو عليكو يا عم»

.«أؤمر يا حبيبي»

.«إحنا بندوَّر على كتب دين وخوارق»

نظر لنا في دهشة:

.«دين وخوارق!؟؟ أعوذ بالله!»

ثم ضحك ساخرا على عقلية الشباب الجهلاء وهو يشير إلى مكتبة بعيدة.

.«روح عند الحاج (عبد الفتاح).. بيحب هو الحاجات دي»

.«متشكرين يا عمو»

.«الشكر لله يا حبيبي»

خرجنا من المكان شاعرين بالإحراج، فقال (مصطفى) ممتعضا:

.«راجل مستفز!»

.«لأ.. أنا اللي أهبل.. بقوله عايز كتب خوارق.. لازم يتريق طبعا»

نظر لي ولم يرد.. اتجهنا نحو تلك المكتبة التي أشار إليها، ونحن ندير أعيننا في المكتبات المجاورة، حتى رأيناه.

عجوز هو.. شعره وشاربه أشيبان كجوال من الدقيق جعل شكله غريبا خصوصا مع لون بشرته الأسمر.. كباذنجانة ألصقوا عليها بعض القطن.. يرتدي جلبابا بلديا بسيطا، ويجلس على كرسي من الخوص بجانب تلك المكتبة العتيقة.

أما عن المكتبة نفسها، فحدث ولا حرج.

مئات الكتب الملقاة بلا تنظيم في كل ركن.. كتب يبدو شكلها مقبضا بطريقة تجعل قلبك يرتجف بين ضلوعك.

أدرت رأسي في المكان، ثم التفتت لـ (مصطفى).

.«بقولك إيه.. تعالى نخش هنا كده.. المكان شكله حلو»

هز رأسه هزة لا تدري إن كانت موافقة أو متذمرة، ولكنني دخلت على كل حال.

كتب.. كتب..

كتب في كل مكان..

تدور عيني يمينا ويسارا، حتى توقفت على ذلك الكتاب.

مددت يدي إليه.. مترب قليلا وتفوح منه رائحة القدم.. تلك الرائحة التي لا تقدر بثمن.

ماذا يقول العنوان؟؟

(الرحمة في الطب والحكمة).. لـ (جلال الدين السيوطي).

لم أسمع عنه من قبل.

.«بكام ده يا حاج؟؟»

.«خمستاشر جنيه إن شاء الله»

مبلغ فادح طبعا.. لا تنس أننا كنا في التسعينيات، حيث كان الجنيه ما زال له هيبة.

نظرت إلى (مصطفى) نظرة ذات معنى، فمط شفتيه تاركا القرار لي.

لم أفكر كثيرا..

مددت يدي إلى جيبي لأخرج النقود لأناولها له.

.«متشكرين يا حاج»

يُقِّبل النقود ويضعها على جبهته مرتين، ثم يدسها في جيب جلبابه.

.«سلامو عليكوا»

.«وعليكم السلام ورحمه الله»

التفتنا ذاهبين..

طبعا لم يصبر (مصطفى) حتى نصل للبيت، بل انبرى في حماس:

.«يالا يا عم.. أقعد اقرا وطلعلنا حاجة تخلينا جامدين»

نظرت له وعلى وجهي ابتسامة واسعة..

.«لما نشوف»

ودسست الكتاب في الحقيبة..

***

هل مارست من قبل عادة وضع كتاب داخل كتاب المدرسة وقراءته؟؟

دعني أخبرك.. إنها عادة ذكية للغاية؛ فأنت من جهة تقنع والديك بأنك شديد التفوق قادر على الدراسة وقراءة كتاب مدرسي بالساعات، ومن جهة أخرى تستمتع بوقتك.

موقف رابح للطرفين هو.

وهذا بالضبط ما فعلته عندما عدت بالكتاب إلى البيت بعد أن ابتعته من ذلك الرجل غريب الأطوار.

خمسة عشر جنيهًا كاملين غير منقوصين.

دعني أقل لك أن هذه كانت ثروتي الصغيرة وقتها.. لا أعرف من أين واتتني الجرأة لأنفقها على ذلك الكتاب الأحمق!

دعنا لا نستبق الأحداث..

جلست لأقرأ في الكتاب بعد أن وصلت البيت، وسهرت عليه حتى الصباح.

.«الواد (جمال) بسم الله ما شاء الله عليه.. شفتي ذاكر أد إيه؟ الواد سهران من ساعة ما جه ماسك كتاب الجغرافيا وهاريه قراية.. ربنا يهديه يارب»

.«يا رب.. أنا بصراحة ماشفتش حد بيحب المذاكرة كده.. قول بسم الله ما شاء الله لحسن نحسده»

.«بسم الله ما شاء الله»

وأنا أقرأ..

أقرأ..

مع الوقت، بدأت أفهم حول ماذا يدور الموضوع.

الموضوع كله عبارة عن حروف لها قوة معينة، وتلك القوة تتحدد على حسب ترتيب الحرف في الأبجدية.

أبجدهوز وليس الهجائية العربية العادية.

كتابة تلك الأحرف بطرق معينة هو ما يحقق لك ما تتمناه..

وليس الشرط هو طريقة كتابة الحرف فقط..

.«بقولك إيه.. خشي اعمليله ساندويتشين وكوباية شاي ولا لبن.. الواد أكيد جعان.. ده مابطلش مذاكرة من ساعة ما جه»

.«حاضر.. هقوم أهو»

بل توقيت كتابتك للحروف مهم للغاية.. يسمى ذلك الأمر بالمطالع.

ليس التوقيت الذي نعرفه.. بل توقيت يدعى توقيت النجوم.

واحد من الشروط أيضا هو الحبر الذي تكتب به.. مسك أم زعفران أم ماذا.

وعلام تكتب.. الكتابة على الورق لا تحقق شيئًا.. شديدة الضعف.. لابد أن تكتب على جلود الحيوانات.. جلد الغزال مثلا.

ليست كتابة فقط، بل هناك نطق أيضًا.. ولكن موضوع النطق هذا كان يثير فزعي فلم أجسر على تجربته.

أما عن المواضيع نفسها التي يتحدث عنها الكتاب، فهناك الكثير..

مثلا أشياء تجعل الله يوكّل لك حرسا يحرسك.

يوكل لك من يعلمك العلم القديم.

وصفات للحب والغيب..

أشياء من هذا القبيل.. والمثير في الأمر أن عند قراءتك للكلام نفسه لا تفكر في أنه سحر أو شرك، بل هو يتخفى في صورة دينية تقنعك وتجعلك ثابت الجنان، مع شعور آخر لا تدري وصفه.

تظن أنك تفعل أشياء دينية تقربك إلى الله في الواقع.. التضليل هو إحدى سمات هذه الكتب.

.«خد يا حبيبي.. دي ساندويتشات جبنة رومي وكوباية شاي.. ربنا يهديك وتفضل تذاكر كده على طول»

.«ربنا يخليكي يا ماما»

.«بس مش كفاية جغرافيا بقى ولا إيه!؟ انت تقريبا ماسك نفس الصفحة من ساعة ما جيت! هي صعبة أوي كده؟؟ أساعدك في حاجة؟؟»

.«آاا... إحم.. لأ طبعا.. أنا بس بعيد عليها عشان تثبت في دماغي.. وبعد كده همسك العلوم .»

.«طيب يا حبيبي ربنا يوفقك.. أنا هخش أنام .. تصبح على خير»

.«وانتي من أهله»

طبعا أنت ترى معي صعوبة الأمر..

من أين آتي بالمسك وقلم الزعفران وجلد الغزال!؟؟

نحن في مصر هنا، حيث يعتبرك الناس مجنونا لو ذهبت إلى طبيب نفسي.. أجواء الـ(هوكاس بوكاس) هذه كما أجرؤ على تسميتها تضعك في منزلة المرضى العقليين ها هنا.

إذا فيجب أن تبقي الموضوع لنفسك.

أقرأ..

ويمر الوقت..

أتثاءب..

.«أ ا ا هـ.. مش قاااااادر.. شكلي مش هروح المدرسة النهاردة»

* * *

في اليوم التالي، بعد المدرسة –التي لم أحضرها طبعا بسبب سهري (للاستذكار)– قابلت (مصطفى)..

.«إيه يابني.. عامل إيه؟؟»

.«الحمد لله تمام... ماجيتش ليه النهاردة يا (....)؟؟»

.«كنت سهران يا عم بقرا في الكتاب»

.«وإيه النظام؟؟»

.«تعالى عندي في البيت وهفهمك»

ذهبنا بعد ذلك إلى منزلي، ودخلنا إلى غرفتي لنبدأ (الاستذكار)..

.«إزيك يا (مصطفى)؟؟»

.«الحمد لله يا عمي كويس»

.«هتذاكروا؟؟»

.«آه عشان علينا واجب كبير هنعمله مع بعض»

.«طيب يابني ربنا معاكو»

أغلق باب الغرفة..

التفتُّ إلى (مصطفى) وأنا أبتسم..

.«حاسس بالذنب ياض»

ضحك قائلا:

.«عادي كدبة بيضا مش مشكلة، وبعدين ما إحنا هنذاكر بردو»

.«بجد والله!؟»

.«سيبك من الكلام ده.. فين الكتاب؟؟»

زفرت زفرة حارة، ثم اتجهت إلى درج مكتبي والتقطت الكتاب لأناوله له.

.«خد.. دماغي وجعتني منه.. بس بصراحة جامد جدا»

نظر لي في اهتمام وقال:

.«إزاي بقى؟؟»

رويت له كل ما عرفتموه أنتم في الفصل السابق.. لا لن أكرره مجددا حتى لا تلقوا بالكتاب من أقرب نافذة.. فقط أعطوه بعض الوقت ليستوعب.

.«طب وبعدين؟؟ ما إحنا عايزين حاجة نعملها من الكتاب.. ده إحنا دافعين فيه خمستاشر جنيه!»

.«دافعين!؟؟ النون دي تعود على مين بالظبط؟؟»

ضحك قليلا وقال:

.«يا عم ما أنا وانت واحد»

.«لأ اتنين ياخويا»

.«طب بجد هنعمل إيه؟؟»

نظرت له لوهلة، ثم جلست على السرير قائلا:

.«مش عارف.. أكيد مش هعرف أجيب جلد غزال يعني ومسك وزعفران ومش عارف إيه.. عايزين حاجة سهلة»

.«بالظبط.. مخك بدأ يشتغل»

.«طب هات الكتاب كده»

ناولني الكتاب، فأخذت أتصفح فيه قليلا..

.«حلوة الطريقة دي.. ومضمونة»

.«طريقة إيه؟؟»

.«وصفة سهلة ومش محتاجة حاجة ومش هتؤذينا»

.«أيوة إيه هي؟؟»

وضعت الكتاب جانبا وأنا أقول:

.«هنجيب ورقة، ونكتب كلام معين كده، ونحطه في طبق أو كيس، ونحط معاه أي نوع أكل.. طول ما الاتنين مع بعض الأكل مش هيتعفن»

نظر لي مغتاظا..

.«.....»

.«إيه!؟؟»

.«يعني هي دي أخرتها!؟؟ ما إحنا عندنا تلاجة. إيه الخارق في كده!!؟»

رفعت صوتي رغمًا عني:

.«يابني عشان بس نعرف الكلام اللي في الكتاب ده صح ولا إيه»

تعالى صوت أبي من الخارج:

.«كلام إيه يا ولد!؟ فيه حاجة؟؟»

.«لأ يا بابا، تجربة بس في كتاب العلوم»

نظر لي (مصطفى) قائلا:

.«ما توطي صوتك يابني! فيه إيه مانا قاعد جنبك!»

.«معلش غصب عني»

لم يرد، فقلت:

.«بص.. أنا هقوم أجيب رغيفين عيش، وانت اقطعلنا ورقة من أي كراسة وتعالى نجرب»

.«ماشي»

* * *

(بعد أربعة أيام)

.«افتح الكيس كده بقى ورينا»

(صوت فتح كيس)

.«إيه ده!؟؟ يععععععععععع»

.«ده دود ده!؟؟»

.«أيوة يا عم ده دود.. روح ارميه في أي حتة وتعالى نغسل إيدينا»

.«يعني الطريقة ما نفعتش!؟»

«لأ».

* * *

طبعا كما رأيتم لم تنجح الطريقة..

جربنا بعض الوصفات السهلة والطرق الأخرى بعدها، ولم يحدث أي شيء..

لم يكن هذا كل ما يحتويه الكتاب، بل كانت فيه بعض الوصفات الكيميائية الغريبة لعمل الصابون والزيوت المضيئة، لكن لم تكن لدينا الموارد اللازمة لصنعها.. وكانت المشكلة فيه اختلاف اللهجة. كان الكاتب مصريا، ولكن اللهجة كانت مختلفة، ومسميات الأشياء غريبة عنا..

بعد كل هذا، اقتنعنا أنا و(مصطفى) أن الكتاب ليست له أي فائدة..

لكن الفكرة لم تنمحِ من عقلينا بهذه السهولة، لابد أن نجرب.. لابد أن نعرف!

أصبحت مقابلاتنا يومية.. لا تنس أننا كنا في مدرسة واحدة هي مدرسة (محمد فريد)..

أصبحنا نقضي اليوم كله معا تقريبا..

ذهبنا بعدها إلى الأزبكية أكثر من مرة ولم نجد الرجل العجوز.. وظل الحال على هذا لفترة..

حتى وجدناه في مرة..

* * *

العتبة..

سور الأزبكية..

الساعة الرابعة عصرا..

.«الحق.. الراجل جه أخيرا!»

نظرت في دهشة إلى حيث يشير (مصطفى)..

.«أخيرا ابن اللذينة! تعالى نقفشه قبل ما يمشي»

اتجهنا إلى الرجل، الذي عرفنا أن اسمه الحاج (عبد الفتاح). قررت أن أكلمه بالتفاصيل فلربما كان أكثر من مجرد بائع..

ربما يستطيع إفادتنا..

.«سلامو عليكوا»

.«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»

نظر لي قليلا.. هل يذكرني؟؟ لا يبدو على وجهه أنه يذكر اسمه أصلا..

.«إزيك يا حاج؟؟ إحنا اشترينا منك كتاب قبل كده مش فاكر اسمه بالظبط.. تقريبا الرحمة في مش

عارف إيه كده»

.«أيوة يابني فاكرك.. خير»

.«الكتاب ما بيعملش أي حاجة.. جربنا اللي فيه ومالوش أي لازمة»

ظل ينظر لي في صمت، فتابعت كلامي:

.«شكله كتاب مضروب.. يا إما اللي فيه مش حقيقي»

قرر أن يتكلم أخيرًا، فخرج صوته عميقا كالبئر:

.«بص يابني.. الكتب الأصلية ممنوعة.. الحكومة مانعاها عشان خطر جدا واللي فيها ممكن يؤذيك»

تشويق.. دقات قلبي تتعالى.. أشعر بحركة قدم (مصطفى) العصبية جواري..

.«عشان كده مش بقدر أبيعها لأي حد»

.«طب ما اللي انت بعته ده سحر بردو.. بس مضروب»

دوى صوت البئر:

.«مش مضروب.. بس تفاريح كده.. أكيد الحكومة مش هتسمح بإننا نبيع الكتب الأصلية.. عشان كده بيخلونا نبيع دي؛ عشان عارفين إن مفيش منها ضرر»

تبادلت نظرة مع (مصطفى)، فقال (مصطفى) وهو يعقد ذراعيه على صدره:

.«طب تمام.. فين بقى الكتب الأصلية؟؟»

نظر لنا لحظة ثم قال:

.«دي بفلوس كتيرة جدا.. أكيد مش معاك تمنها»

.«ماشي طيب ناخد فكرة»

.«أقل حاجة بتبتدي من ٢٥٠ جنيه»

نظرت له في دهشة، بينما ردد (مصطفى) خلفه:

.«٢٥٠ جنيه!!؟؟»

.«أيوة»

قلت أنا:

.«كتب إيه مثلا؟؟»

.«في منبع أصول الحكمة مثلا.. شمس ال»

قاطعه (مصطفى):

.«أرخص واحد فيهم ده اسمه إيه؟؟»

نظر له الرجل لحظة ثم قال:

.«الكبريت الأحمر.. طرقه سهلة ومش هتؤذيك في حاجة»

ساد الصمت لحظة، ثم قلت:

.«لحظة يا حاج.. إحنا كده بنتكلم في سحر صح؟؟ سحر وتحضير جن صريح»

نظر لي في صمت.. و لم يرد..

* * *

طبعا كما لابد أنكم خمنتم، عدنا بعدها أنا و(مصطفى) إلى شارع (محمد فريد)، الذي يسكن فيه (مصطفى)، خاليين الوفاض..

لم يكن هدفي وقتها تحضير الجن أو السحر، ولم نكن نملك النقود الكافية لنتمكن من شراء كتاب كهذا وقتها..

مر اليوم بين استذكار ومدرسة.. وفي اليوم التالي قابلت (مصطفى)..

.«(جمال).. بقولك إيه.. تعالى نطلع عندي.. هناخد راحتنا في أوضتي أكتر.. الكتاب معاك؟»

.«آه»

.«طب يلا»

* * *

.«لازم نجرب حاجة تاني»

قالها (مصطفى) ونحن نجلس معا في غرفته، فلم أنظر له وأنا أقلب في صفحات الكتاب.

أقلب.. أبحث..

.«بص دي كده.. شكلها حلوة»

.«إيه؟؟»

.«طريقة اسمها (إحضار الغائب)»

نظر لي في اهتمام..

.«آه»

تابعت وأنا أقلب في صفحات الكتاب:

.«بتقولك لو عايز تشوف واحد غايب عنك، هتيجي بمنتهى البساطة ترسم دايرة على الحيطة، وجوة الدايرة دي هتكتب شوية حروف بطريقة كده مش فاهمها كويس، ومن ضمن الحروف دي حروف اسمه»

هز رأسه وهو يقول:

.«وبعدين؟؟»

.«وبعدين كل يوم هتدق على حرف من حروف اسمه.. وف آخر يوم هتشوفه»

صمت قليلا، ثم قال:

.«حلوة.. بس ممكن تحصل صدفة»

.«ما عشان كده لازم نجيب واحد صعب.. واحد مينفعش نقابله صدفة»

.«مين طيب؟؟»

صمتُّ قليلا وأنا أفكر، ثم قلت:

.«إيه رأيك في (محسن خرسا)؟؟»

.«البلطجي!؟ اللي هو متهيألي في السجن دلوقتي؟؟»

.«آه»

نظر لي شاردا، ثم قال:

.«فكرة بردو»

* * *

اليوم الأول: (م)

اليوم الثاني: (ح)

اليوم الثالث: (س)

اليوم الرابع: (ن)

اليوم الخامس: (خ)

اليوم السادس: (ر)

اليوم السابع: (س)

اليوم الثامن: (ا)

* * *

فرغنا من الدق على آخر حرف، ثم جلسنا على السرير..

.«وبعدين؟؟»

قلتها وأنا أنظر لـ(مصطفى) متسائلا، فرد في سرعة:

.«هننزل الشارع طبعا نلف شوية.. أكيد مش هنقابله وإحنا قاعدين في البيت»

.«طب يلا»

نزلنا بعدها إلى الشارع، وبدأنا في المشي..

ساعة مرت..

ساعتان..

تجولنا في أنحاء شبرا كلها تقريبا..

لا شيء..

.«يا عم انت فاشل أساسا.. انت والكتب اللي بتجيبها دي»

قالها (مصطفى) وهو ينظر لي في سخرية، فلم أدر بما أرد.. فتابع كلامه:

.«أدينا لفينا شبرا كلها ومفيش أي حاجة.. دفعنا خمستاشر جنيه في كتاب ملوش أي لازمة.. آدي آخرة اللي يمشي وراك»

.«دفعنا بردو!؟ بردو حرف النون!؟»

.«ولا.. اخرس يا (....) عشان ما أولعش فيك دلوقتي!»

ضحكت قليلا ثم قلت:

.«يا عم عادي.. محدش بيتعلم ببلاش.. أنا وانت هُبْل أصلا إننا صدقنا في حوارات السحر وكلام الراجل ده.. وأكيد الكتب التانية اللي عنده دي مالهاش أي لازمة وبيغلّي علينا في السعر عشان شايفنا مهتمين وعايز ينصب أكتر بردو»

قال وهو يحك أنفه:

.«كبّر دماغك.. تعالى أما أوصلك عشان تركب تروح»

تحركنا ماشيين في الشارع، متجهين نحو موقف أحمد حلمي..

(صوت صياح من بعيد)

(أشياء تتحطم)

(أناس تصرخ)

(أصوات شجار)

.«إيه ده!؟ هو إيه اللي بيحصل؟؟»

.«مش عارف.. شكلها خناقة»

اقتربنا أنا و(مصطفى) من الشجار الذي يدور..

(أصوات شجار)

(أناس تصرخ)

(أحد المتشاجرين يلوِّح بيده وهو يسب خصمه)

حاولنا أن نلتف حول ذلك الجمع المتجمهر حتى يمكننا رؤية المتشاجرين..

مجرد فضول..

(دقات قلب (مصطفى) تتسارع)

(صوت أنفاسي)

أخيرا..

فرجة تنفتح بين جموع الناس، فرجة تتيح لك النظر بوضوح..

تنظر إلى المتشاجرين..

تراه!

(دقات قلب (مصطفى) تتسارع إلى أقصى مدى)

(عضلات فخذي تتخلى عن تماسكها)

(رائحة الأدرينالين في الجو)

.«إيه ده!!؟ هو مش ده (محسن خرسا)!؟؟»

.«.......»

.«(مصطفى)»

.«أيوة هو»

.«.......»

* * *

(نهاية الحلقة الأولى)

(الحلقة الثانية)

الغرفة

The Room

-1-

تقترب الكاميرا من بعيد..

تحبس أنفاسك وأنت تشاهد المشهد..

ترى ذلك الشخص الذي يمشي على تلك السحب العملاقة..

تقترب منه الكاميرا أكثر..

يمشي على تلك السحب العملاقة البيضاء، وحوله تلك الأشجار العملاقة شديدة الطول..

يتلفت حوله كأنه يبحث عن شيء ما..

تلك الأحصنة الضخمة الجميلة ناصعة البياض تعبر من حوله.. أحصنة لا حصر لها ولا عدد..

الأشجار العملاقة تتمايل بفعل تلك الرياح..

السحاب الذي يمشي عليه يتحرك.. تتغير أشكاله.. أشكال رائعة الجمال..

وذلك الشخص مازال يمشي متلفتًا كما كان..

يبحث عن شيء ما.. أو شخص ما..

تزداد حركته عصبية.. يبدأ في الركض..

يتلفت حوله كالمجنون..

الرياح تطيِّر تلك الملابس الهفهافة البيضاء الجميلة التي يرتديها..

وهو ما زال يتلفت حوله..

تبتعد الكاميرا تدريجيًا لتعطيك نظرة بانورامية على ضخامة المشهد أمامك..

كون كامل من السحب البيضاء الجميلة التي تنغرس فيها أشجار فارعة الطول تمتلئ بالثمار والأزهار..

أحصنة تركض في كل مكان..

تبتعد الكاميرا أكثر... تغوص في إحدى السحب..

تبيض الشاشة أمامك تماما...

* * *

.«(مصطفى)»

.«أيوة هو!»

نظرت له في دهشة أعجزت لساني عن النطق، وهالني التعبير الذي رأيته على وجهه..

تعبير الذهول التام..

ساد الصمت لحظة بيننا..

(صوت الشجار يتعالى)

جذبته من ذراعه وأنا أقول:

.«تعالى نمشي من هنا طيب لحسن حد يحدف علينا حاجة»

لم يقاوم، فجذبته بعيدا عن الشجار.. حتى جلسنا على سور نفق (أحمد حلمي).

لا شيء سوى الصمت.

بعد وهلة قال:

.«يعني الموضوع كان بجد»

نظرت له لحظة، ثم قلت:

.«آه»

.«يعني فيه حاجات فعلًا حقيقية موجودة وسط الكتب دي»

لم أرد، فالتفت إليّ قائلا:

.«مالك؟؟»

زفرت زفرة حارة خرجت مرتجفة رغما عني، ثم قلت:

.«خايف.. حاسس إننا بنلعب بالنار»

ظل ينظر لي وهلة، ثم أدار عينيه إلى الطريق من جديد:

.«طب قوم روَّح دلوقتي ونبقى نفكر بعدين»

وظل كلانا ينظر إلى الطريق شاردا..

لا نقوى على النهوض..

* * *

طبعا بعد موضوع (محسن خرسا) هذا، اعترتني أنا و(مصطفى) حالة من الفرحة الحذرة، والخوف غير المبرر..

فرحة لأن شيئا ما قد تحقق.. شيئًا احتمالية أن يكون صدفة هي احتمالية شديدة الصعوبة والصغر..

وخوف مما يمكن أن يحدث.. مما يمكن أن يغير حياتنا كلها..

واستمررت في قراءتي للكتاب..

أشياء كثيرة لم أفهمها وكنت أحاول حلها؛ وكلما حاولت، راودني ذلك السؤال..

هل ما أفعله صحيح أم خاطئ؟؟

حرام أم حلال؟؟

لم أفكر في الإجابة كثيرا وقتها لأن الحماس كان يطغى على حواسي كلها، ويركز تفكيري في اتجاه الكتاب..

الكتاب فقط..

ووقتها، كانت لدينا عادة قديمة في العائلة؛ هي أننا جميعا يجب علينا الذهاب للبيات مع جدتي في منزل العائلة كل يوم خميس وجمعة.

العائلة كلها تقريبا. وقبل أن تسألوا، نعم كانت هناك مساحة كافية؛ فبيت العائلة كان منزلا قديما من تلك المنازل التي شُيِّدت على المساحات التي كانت تحتلها فيلات وقصور وصيفات وخدم الملك

فاروق.

تلك المساحات الشاسعة طبعا كانت لهم لأنهم كانوا في مكانة الأمراء أحيانا. وبعد ثورة ١٩٥٢ صودرت معظم تلك الفيلات وتم هدمها وبناء بيوت على ذلك الطراز الجميل الذي لا أعرف اسمه بالضبط -أعتقد أنه الفيكتوري- في مكانها.

أنتم تعرفون تلك البيوت القديمة شديدة الجمال التي تتكون من أربعة أو خمسة طوابق، ويكون الدرج فيها عاليا حتى تتمنى أن لا تسقط ويدق عنقك.

كل شقة فيها تتكون من أربعة غرف وحمامين، وصالتين وممر، وحجرة معيشة وثلاث شرفات، ومطبخ في حجم شقة من شقق يومنا هذا.. لكم أن تتخيلوا المساحة.

فكانت العائلة كلها تتجمع في منزل جدي وجدتي.. أعمامي وعمتي وأولادهم، ووالدي ووالدتي وأنا وأخي الأصغر.

كنت أعتبر هذه الأوقات أسعد أوقات في حياتي.. أحلم بالوقت الذي يجيء فيه يوم الخميس والجمعة حتى نستطيع المبيت عند جدتي وجدي.

كان الأمر يبدو أشبه بحفل صغير.. حفل يضم كل من تحبهم: والدك ووالدتك وأعمامك وأولادهم.. عائلة صغيرة واحدة.

والدي وعمي (كمال) مثلا يلعبون الطاولة، بينما أجلس أنا مع عمي (صلاح)، ويلعب أخي مع أولاد عمي (شريف)، وتقف النسوة في المطبخ ليعدوا الغداء، بينما يشاهد جدي مبارة كرة القدم مثلا.. ناد صغير.

وفجأة، انتهى كل هذا!!!

لم نعد نذهب إلى بيت العائلة، ولا أدري لماذا.. وبدلا من ذلك، بدأت جدتي تزورنا بنفسها.. وحدها في أوقات ومعها جدي في أوقات أخرى.

طبعا كان هذا يضايقني أنا وأخي (عمر) جدًا؛ فلم يعد هناك يوم ننتظره حتى نذهب لجدتي.. أصبحت الأيام كلها متشابهة.. بل وأجسر على القول أنها كانت مملة كذلك.

كنت في أشد الحيرة بسبب ذلك الأمر، ودائمًا كنت أتساءل.. "لماذا؟؟"

لماذا انقطع هذا الأمر؟؟

ما الذي تغير؟؟

وفي يوم من تلك الأيام.. جاءت جدتي للمبيت معنا كالعادة.

مضى اليوم عاديا جدا، وذهبنا جميعا للنوم.

وحدث الموقف التالي..

في ساعة الذئب..

* * *

تفتح عينيك..

تحدق في السقف..

ظلام.. ظلام يغطي على كل ما حولك..

تشعر بالعطش.. عطش يجعل حلقك خشنا كالصبار..

تزيح الأغطية.. تنهض من على السرير..

تفرك عينيك.. تتثاءب..

تتجه كالمنومين إلى باب الغرفة..

تمد يدك إليه..

.«هو بيعمل إيه في البيت؟؟»

ما هذا الصوت!؟؟

صوت خافت هو.. يبدو أنه يأتي من خلف الباب..

فلتنصت، فلربما كان هذا مهما..

.«ولا أعرف يابني.. بس فيه حاجة مش مظبوطة.. على طول قافل على نفسه باب الأوضة وبيكلمنا بطريقة غريبة جدًا.. معاملته بقت وحشة مع الكل»

هذان صوتا والدك وجدتك.. عن من يتحدثان؟؟

هذا غريب.. فلتفتح الباب قليلا ولتنصت أكثر..

.«انت عارف كويس إن مش من عادتنا نحط على الباب أقفال.. هو بقى جايب للأوضة بتاعته قفل وترباس»

قفل؟؟

مهلا.. هل يتحدثان عن عمك (صلاح)؟؟

غريب هذا.. لماذا يغلق على نفسه الباب بقفل؟؟

لماذا تتغير طباعه؟؟

هل لهذا علاقة بالكتب التي يقرأها ويبحث فيها؟؟

هل من الممكن أن يكون ما يحدث معه هو أشبه بما يحدث لك؟؟

أفكار.. أفكار تلتهم عقلك وأنت تغلق الباب مجددا بحرص، وتستدير في الظلام كالمنومين لتذهب إلى سريرك..

والعطش؟؟

لا.. لم تعد تشعر به.. كل ما تريده هو أن تنام..

تنااااااام..

تندس تحت الأغطية..

لوهلة تشعر بشيء ما يتحرك في الغرفة في الظلام..

تتجاهله.. لابد أنه أخوك الأصغر يتقلب في نومه..

إحساس عدم الراحة هذا.. كأن عينًا ما تراقبك..

لكن النوم يطبق عليك، فلا يترك لك المجال للتفكير في شيء آخر..

* * *

.«عارف يا جمال.. دايما بيشغلني موضوع حروف القرآن.. معناها إيه.. ليه موجودة كده ومكتوبة بالشكل ده.. نفسي أفهم.. طول حياتي بدور وبقرأ في كتب عشان أوصل لحاجة»

* * *

ظل ذلك الموضوع الذي سمعت والدي وجدتي يتحدثان فيه يشغل بالي لفترة طويلة بعد ذلك..

ما الذي يحدث مع عمي (صلاح)؟؟

هل يمكن أن يكون لذلك علاقة بما يحدث لي أنا؟؟

ولماذا توقفنا نحن عن المبيت في بيت العائلة؟؟ هل لأن عمي (صلاح) –الذي لم يتزوج أبدا بالمناسبة– يعيش فيه؟؟

أسئلة.. أسئلة..

ولا توجد أي إجابات..

فضول يتنامي..

وقتها –كما لابد أنكم تعرفون– كنت في المرحلة الثانوية، وكانت مدرستي هي مدرسة (محمد فريد) الثانوية.. مدرستي أنا و(مصطفى).

كان بين مدرستي وبين بيت جدتي محطتان من محطات المترو، أقطعهما وأكون هناك.

كنت في المعتاد أنهي يومي في المدرسة فأذهب للعب كرة القدم مع أصدقائي حتى يحين ميعاد دروسي الخصوصية؛ تلك الظاهرة التي بدأت في التنامي وقتها.. ولكن تغير هذا بعد أن سمعت ذلك الحوار بين والدي وجدتي..

أصبحت أنهي يومي في المدرسة وأذهب لأقضي الوقت عند جدتي..

لماذا؟؟

لأنني كنت أريد أن أعرف ما الذي يحدث مع عمي بالضبط..

إنه الفضول يا سادة..

الفضول الذي يقتل القطط منذ بدء التاريخ..

* * *

(صوت جرس الباب يرن)

(صوت الباب ينفتح)

.«(جمال).. إزيك يا حبيبي؟؟ عامل إيه؟؟»

.«الحمد لله يا تيتة كويس»

.«خش يا حبيبي طيب»

تدلف إلى الداخل..

إحساس عدم الراحة هذا.. مجددا..

إحساس مقبض يعتريك بمجرد أن دلفت إلى الداخل..

ليس هذا نفس البيت الذي اعتدت على الذهاب إليه..

شيء ما تغير.. لا تدري ما هو بالضبط، ولكنه تغير..

تخلع حذاءك بجانب الباب وأنت تنظر حولك..

لا تدري لماذا ولكن المكان أصبح كئيبا.. مقبضا..

ككابوس يجثم على روحك فلا يدع لك مجالا للتنفس..

.«مش لازم تقلع الجزمة يا حبيبي»

.«عشان بس ما أوسخش السجاد»

تدخل إلى الصالون.. تجلس..

.«عامل إيه؟؟ وإزي بابا وماما؟؟ كويسين؟؟»

تركز بصرك على باب غرفة عمك..

.«آه الحمد لله بيسلموا عليكي»

.«الله يسلمهم.. هروحلهم آخر الأسبوع إن شاء الله»

لماذا تشعر بعدم الارتياح هذا؟؟

كأن أحدا يقف خلف الباب ويسمعك..

هل تعرف ذلك الشعور الذي يعتريك بعدم الارتياح عندما ينظر أحدهم إليك وأنت غير منتبه؟؟

نفس الشعور..

.«عامل إيه في المدرسة؟؟»

ذلك الظل الذي يتحرك تحت عقب الباب..

هل عمك في الداخل؟؟

هل ينصت إلى المحادثة التي تدور؟؟

.«(جمال)»

إن هذا غريب.. غريب حقا..

.«(جمال)»

تنتبه فجأة..

.«أيوة يا تيتة»

.«رحت فين يا حبيبي سرحان في إيه؟؟»

.«مفيش حاجة خالص والله.. أومال عمي (صلاح) فين؟؟»

.«في الشغل لسة ما رجعش»

تنظر إليها في دهشة..

.«في الشغل؟؟ متأكدة؟؟»

.«أيوة طبعا»

إذا فلمن ذلك الظل الذي كان يتحرك بالداخل؟؟

تلتفت من جديد إلى باب الغرفة..

لا شيء.. تبدو خالية وبريئة كعقل طفل..

.«بتسأل ليه؟؟»

تدير عينيك إليها..

تصمت لحظة، ثم ترد في شرود:

.«مفيش.. أصله واحشني»

* * *

- ٤ -

تكررت الزيارات بعد ذلك أكثر من مرة..

أنهي يومي في المدرسة فأذهب إلى جدتي..

أحيانا كنت أقابل عمي (صلاح)، وكان يبدو طبيعيا جدا..

لم يبد عليه أي تغيير، حتى أنني بدأت أشك في حقيقة الأمر كله.

أحيانا أخرى كنت لا أقابله.. أجلس مع جدتي فقط لنتحدث قليلا أو أشاهد التلفاز ثم أذهب للدروس..

الشيء الذي كنت لا أفهمه هو أنه دائما كان يحمل مفتاح غرفته معه..

أينما ذهب، وأيا كان ما يفعله، كانت المفاتيح تظل في جيبه أو في يده.. كأنه لا يريد أن يجدها أحد، لا يريد أن يترك مجالا للصدفة يجعل أحدهم يفتح غرفته ويدخلها.

وفي يوم من تلك الأيام، صممت أن أذهب إلى جدتي من غير أي مواعيد..

كنت عاقدا للعزم على أن أجد ذلك المفتاح وأعرف ما في داخل غرفته.. ماذا يحدث بالضبط..

وذهبت..

* * *

تقف عند باب الشقة..

تدق الجرس..

تفتح لك جدتك الباب..

.«إزيك يا تيتة؟»

.«إزيك يا (جمال) عامل إيه؟؟ خش يا حبيبي»

تدخل إلى الشقة..

تغلق الباب خلفك..

شعور عدم الارتياح هذا..

.«عامل إيه؟؟»

تخلع حذاءك..

.«الحمد لله كويس.. أومال فين عمو (صلاح)؟؟»

.«بياخد دش أهو في الحمام»

تنظر لها

.«دش؟؟»

.«أه.. بقولك إيه، أنا هخش أنشر الغسيل عشان مايبوظش.. ماشي؟؟ هجيلك كمان شوية»

هذه فرصتك..

.«ماشي»

.«طيب.. لو جعان فيه أكل في التلاجة»

تتجه إلى الشرفة.. تغلق الباب خلفها..

هذه فرصتك.. ابتسم القدر أخيرا..

تتحرك بسرعة إلى باب غرفة عمك.. مغلق بالطبع..

نفس شعور عدم الارتياح هذا.. شعور الأعين الخفية التي تراقبك..

أين المفتاح؟؟ أين المفتاح؟؟

إنه يستحم، بالتأكيد لم يأخذه معه إلى الحمام..

إذا أين هو؟؟

تبحث.. تبحث في كل مكان.. على الأرفف.. على الكراسي..

أخيرا وجدته.. منضدة صغيرة في الصالة موضوع عليها كتاب صغير وفوقه المفتاح..

تلتقطه.. تنظر إلى باب الحمام.. النور مضاء.. مازال يستحم..

تدير بصرك إلى باب الغرفة.. هل من الحكمة أن تفتح الباب وتبحث الآن؟؟ بالتأكيد ستحتاج لوقت طويل للبحث وربما أنهى استحمامه وخرج من الحمام ليجدك في غرفته..

سيكون تفسير هذا عسيرا بعض الشيء..

إذا ماذا تفعل؟؟

مازال يستحم..

لا يوجد سوى حل واحد.. يجب أن تطبع نسخة من المفتاح..

تجري إلى الباب.. تلبس حذاءك.. تجري على الدرج إلى الشارع..

تذهب إلى عم (صفوت) صاحب محل المفاتيح والأقفال..

.«عم (صفوت).. بعد إذنك اعملي نسخة من المفتاح ده»

يمد يده.. يلتقط منك المفتاح..

.«إزيك يا (جمال)؟؟ عامل إيه يا بني؟؟»

.«الحمد لله تمام انت أخبارك إيه؟؟»

يضعه على شيء أشبه بالصابونة.. يضغط عليها حتى يحفر فيها نقش شبيه بالمفتاح بالضبط..

.«الحمد لله كويس يابني.. سلملي على والدك ووالدتك ..»

يناولك المفتاح..

.«الله يسلمك يوصل إن شاء الله.. أعدي أخده بعد شوية؟؟»

.«ماشي»

تأخذ المفتاح.. تستدير راكضا إلى البيت.. تمسح المفتاح في ملابسك..

تركض على السلم.. هل تركت الباب مفتوحا؟؟

رباه! لا تجعلني بهذا الغباء أن أكون قد أغلقته خلفي.. لو حدث هذا فأنا بطة ميتة..

تصل إلى البيت.. الباب مفتوح.. الحمد لله..

تدلف إلى الداخل.. قلبك ينبض بسرعة.. تلهث..

الإثارة والانفعال يوشكان على إفقادك وعيك..

تضع المفتاح مكانه كما كان..

(صوت باب الحمام ينفتح)

تخلع الحذاء وتلقيه بجوار الباب..

تجلس.. تحاول أن تتمالك أعصابك..

.«(جمال).. انت هنا؟؟ إزيك؟؟»

تنظر له في براءة..

.«إزيك انت يا عمي عامل إيه؟؟ واحشني والله»

* * *

.«يابن اللعيبة!»

قالها (مصطفى) ثم أعقبها بضحكة جذلة، فنظرت له مبتسما..

.«اسكت ده أنا كنت هتقفش قفشة سودة»

.«لأ تمام.. أهم حاجة المفتاح معاك؟؟»

أخرجت المفتاح من جيبي لأريه له..

.«تمام جدا.. انت لازم تخش الأوضة دي.. لازم تعرف مخبي إيه جوة»

.«بس إمتى.. ما أنا مش عارف»

نظر لي قائلا:

.«لازم تروح بمعدل كل يوم.. لحد ما ييجي يوم تلاقي فيه الدنيا فاضية زي المرة اللي فاتت دي، وساعتها تخش وتشوف بعينك .. أنا متأكد إنه عنده كتب تانية جوة»

ابتسمت لحظة ثم ضحكت قائلا:

.«انت شيطان يالا.. مش عارف بسمع كلامك ليه»

.«عشان كلامي على هواك وبيدخل دماغك»

نظرنا لبعضنا مبتسمين..

أنا دون سواي أعرف أنه محق..

* * *

كررت الزيارات لجدتي بعدها كثيرا..

كثيرا جدا.. كثيرا لدرجة أن الملل بدأ يصيبني من جدوى الموضوع كله، وبدأت أفقد الاهتمام..

لم أجد البيت خاليا ولو مرة..

حتى جاءت تلك المرة..

* * *

(صوت جرس الباب)

(صوت الباب ينفتح)

.«إيه يا (جمال) عامل إيه يا حبيبي؟؟ تعالى خش»

تدلف إلى الداخل.. تخلع حذاءك..

.«الحمد لله يا تيتة.. هقعد عندك شوية بس لحد معاد الدرس»

.«ماشي يا حبيبي»

تتلفت حولك في فضول..

.«أومال عمو (صلاح) فين؟؟»

.«برة في الشغل»

تنظر لها في صمت..

إنه خارج البيت.. لو أنها تغادر البيت للحظة.. لحظة فقط..

.«بقولك إيه يا حبيبي.. أنا هخش أنام عشان تعبانة أوي.. عايز حاجة؟؟ أعملك أكل؟؟»

أخيرا! أخيرا! كأن السماء استجابت لدعواتك..

.«لأ شكرا أنا شبعان»

.«طيب.. تصبح على خير»

تتجه إلى غرفتها.. تغلق الباب خلفها..

أنت الآن وحدك.. وحدك تماما..

تتلفت حولك في حذر.. لا أحد..

شعور عدم الارتياح لا يفارقك..

تقترب من باب الغرفة..

هذه هي.. لحظة الحقيقة..

تفتح القفل بالمفتاح..

(صوت تكة خافتة)

تمد يدك إلى مقبض الباب البارد..

تديره.. ينفتح..

(صوت صرير الباب الخافت)

ينفتح الباب على مصراعيه..

تدلف إلى الداخل..

تنظر حولك.. الأثاث القديم.. الأرفف التي تتناثر عليها الكتب..

شرائط القرآن في درج المكتب الذي يقابلك..

على يمينك تجد خزانة الملابس.. على يسارك السرير..

كتب متناثرة ومتكومة في كل مكان..

رائحة العطن هذه.. رائحة غير مألوفة لم تعتدها من قبل في الغرفة..

كأنها رائحة خشب قديم متعفن..

ثم منذ متى يضع عمك قماشا على النافذة؟؟ قماشا قاتم اللون..

هذا غريب..

تتجه إلى السرير.. تجلس عليه.. ربما كان يخفي شيئا ما تحت المراتب..

تتحسس السرير.. تتفحص بين المراتب.. لا شيء..

تنظر إلى الكتب.. لا شيء غير مألوف..

لحظة.. ما هذا؟؟

نقش.. نقش محفور في حائط الغرفة الذي يستند إليه السرير..

نقش أشبه بمثلث داخل دائرة وعليه علامة أشبه بحرف (لا)..

نقش مُقبض.. كئيب.. يثير شعورا ما في داخلك لا تقدر على وصفه..

شعور عدم الارتياح يتزايد.. كأن أحدا ما يراقبك..

تشعر بحركة ما خلفك.. تلتفت بسرعة إلى الباب..

لا شيء.. الباب مفتوح على مصراعيه ولا أحد هنالك..

الخوف.. الخوف أصبح كائنا له طول وعرض وارتفاع وملمس ورائحة..

الخوف أصبح سيد الموقف..

تلتفت من جديد إلى النقش.. ما هذا بالضبط؟؟

هل من الممكن أن يكون هذا النقش هو سبب كل ما يحدث؟؟

وكيف؟؟ هل له قيمة سحرية ما؟؟ أين تلك الكتب التي يتكلم عنها دائما؟؟

لا تفهم.. وشعور عدم الارتياح يتزايد..

نبضات قلبك تتسارع.. الأدرينالين يجري في عروقك..

شيء ما.. شيء ما قادم.. من المستحسن أن تخرج من الغرفة الآن.. هذا يكفي.. لن تجد شيئا آخر بالتأكيد.. لقد بحثت في كل مكان..

تنهض من على السرير.. شعور الأعين الخفية التي تراقبك يتزايد..

تتجه إلى الباب.. خطواتك ثقيلة متثاقلة..

شيء ما يتحرك خارج مجال بصرك..

تلتفت.. لا شيء.. الرعب يتزايد..

تخرج من الغرفة.. تغلق الباب خلفك..

(صوت غلق الباب)

تتنفس الصعداء.. كأنك خرجت من الجحيم..

يستولي عليك إحساس مقبض.. كئيب..

هذه الغرفة تحوي شيئا ما..

حتما..

* * *

تكررت زياراتي بعد ذلك إلى بيت جدتي..

كنت أجد عمي هناك في بعض الأوقات، وكنا نتكلم بشكل طبيعي جعلني أوقن أنه لا يعرف أنني فتحت غرفته.. كان يبدو طبيعيا جدا..

في أوقات أخرى لم أكن أجده.. وتكررت هذه الأوقات كثيرا، حتى سألت جدتي أين هو، فقالت لي أنه سيبيت في عمله لأسبوع أو أكثر..

طبعا كان هذا يعني أن الغرفة لي..

دخلتها بعد ذلك أكثر من مرة قبل أن يبيت في عمله وبعد أن بدأ في المبيت.. وفي كل مرة كنت أجد نفس رائحة العطن، ونفس شعور عدم الارتياح..

المذهل في الأمر هو أن تلك العلامة على الحائط؛ ذلك النقش كان يتغير.. شكله كان يتغير تماما عما كان في المرة التي قبلها..

في مرة أجده كما كان، ومرة أخرى يتغير تماما.. ومرة أخرى يشبهه ولكنه ليس هو.. أذكر في مرة أنه تغير إلى ما يشبه الخطوط العرضية مع كتابة عليها تشبه العربية ولكنها ليست هي..

دعني أخبرك أن حوائط الغرفة كانت حوائط جيرية، بمعنى أنه لو تم مسح شيء ما إذا فلابد أن يكون هناك أثر على الأقل.. ولكنني لم أجد هذا الأثر.. كأن النقش يتبخر ثم يرسم من جديد!

حتى جاء واحد من تلك الأيام الذي كانت جدتي فيه نائمة كعادتها، ولا أحد غيري في الشقة، وعمي يمضي ليلته في العمل.. ودخلت الغرفة..

* * *

تمد يدك إلى مقبض الباب..

تفتحه..

صوت الصرير الخافت..

شعور عدم الارتياح..

الأعين الخفية تراقبك بلا هوادة..

شعور مقبض.. كئيب..

شيء ما موجود معك.. لا تدري كنهه بالضبط..

تدلف إلى الداخل..

رائحة العطن.. الستائر القاتمة على النافذة..

الكتب ملقاة بلا تنظيم في كل مكان..

تنظر إلى النقش.. تغير مجددا.. لا تدري كيف ولكنه يحدث.. لابد أنك جننت أخيرا..

تشعر بشخص ما يراقبك من مدخل الغرفة، ولكنك أذكى من ذلك.. لا تلتفت..

تجلس على السرير.. عيناك على باب الغرفة.. كما توقعت.. لا أحد هنالك..

ترقد على السرير، تزفر زفرة حارة..

لحظة.. ما هذا؟؟

تشعر بشيء ما تحت حشية السرير.. تنهض من مكانك سريعا..

تنظر بين المراتب.. شيء ما هناك.. أشبه بالكتاب..

ترفع المرتبة قليلا.. تمد يدك.. تلمس الكتاب.. تجذبه..

ذلك الملمس.. ملمس لا يشبه أي شيء لمسته من قبل في حياتك..

ملمس الورق القديم الذي تشعر أنك لو ضغطت عليه قليلا فسيتفتت ويتناثر مع الرياح، ولكنه متماسك على الرغم من ذلك..

ملمس لا يمكنك وصفه.. هالة نفسية شديدة القوة تشع منه.. شعور مقبض يعتريك وأنت تمسكه في يديك..

ترفع الكتاب أمامك مأخوذا.. ترى النقش الذي عليه.. الطبعة الأميرية..

تقرأ العنوان..

(شمس المعارف ولطائف العوارف)

(للإمام الأكبر أحمد بن علي البوني)

***

(نهاية الحلقة الثانية)

(الحلقة الثالثة)

ساعة الذئب

Hour of the Wolf

تقترب الكاميرا من جديد على ذلك المشهد المهيب..

مشهد تلك السحب البيضاء التي تنغرس فيها تلك الأشجار الطويلة المزهرة، وتجري فيها تلك الأحصنة البيضاء..

ونفس ذلك الشخص ذو الملابس البيضاء الهفهافة التي تتطاير مع الرياح يتحرك بينها في عصبية متلفتا حوله..

من هو؟؟ وعن ماذا يبحث؟؟

أسئلة لا تملك لها إجابة في الوقت الحالي..

* * *

عن ذلك الشعور الذي تحس به وأنت تمسك الكتاب في يدك..

شعور لم تجربه من قبل.. شعور بأنك أقوى من الخوف، أقوى من الخطر.. أقوى من الموت ذاته..

قلبك يرتجف بين ضلوعك..

مازلت تحدق في العنوان..

(شمس المعارف ولطائف العوارف)

(للإمام الأكبر أحمد بن علي البوني)

شعور مقبض يستولي عليك.. من جديد تشعر بتلك الأعين الخفية التي تراقبك..

تسمع حركة خافتة خلفك.. تلتفت.. لا شيء..

تنظر إلى باب الغرفة.. موارب..

غريب هذا.. ألم يكن مفتوحا على مصراعيه منذ قليل؟؟ من الذي واربه إذا؟؟

لا تهتم.. لقد وجدت الكتاب، إذا فليذهب كل شيء للجحيم..

بقيت مشكلة واحدة: الكتاب كبير ولن تستطيع قراءته هنا، وفي نفس الوقت لن تستطيع أن تأخذه معك إلى البيت؛ فعمك سيلاحظ اختفاءه بالتأكيد..

إذا فما الحل؟؟ ليس هناك سوى واحد فقط..

تصويره..

* * *

طبعا كما لابد أنكم خمنتم، خرجت بعدها من المنزل ونزلت إلى الشارع أعرج على أصحاب المكتبات لأبحث عن أحد لديه ماكينة تصوير مستندات..

أخذت أبحث لبعض الوقت، حتى وجدت أحدهم.. فتقدمت إليه..

.«بعد إذنك.. عايز أصور الكتاب ده»

مددت له يدي بالكتاب، فالتقطه من يدي وأخذ يقلبه على جوانبه..

.«كام نسخة؟؟»

.«نسخة واحدة.. هو الكتاب حوالي ٦٠٠ صفحة»

نظر لي قائلا:

.«ماشي.. اتفضل اقعد طيب عشان الموضوع هياخد وقت»

.«طب أعدي عليك كمان ساعة كده؟؟»

مط شفتيه وهو يهز رأسه بالإيجاب..

.«مفيش مشكلة»

أومأت برأسي واستدرت لأخرج من المكتبة..

فلأعد إلى البيت الآن قبل أن تصحو جدتي وتتساءل عن مكاني، ولأعد له بعد قليل..

* * *

بعد ساعة، كنت أقف أمام باب المكتبة.. دلفت إلى الداخل..

رائحة الدخان هذه.. ما هذا بالضبط؟؟

ماكينة التصوير تطلق الدخان كقاطرة بخارية..

.«الله يخرب بيتك على بيت اليوم اللي شفتك فيه!! آدي المكنة اتحرقت»

احترقت!!؟؟ كيف!!؟؟ ثم فجأة انتبهت إلى الأسلوب الذي يكلمني به، فانتفضت في دهشة ونظرت له وهو يكمل:

.«مجرد ما حطيت (...) أم الكتاب بتاعك ده في المكنة، ولعت!»

دهشة.. دهشة بلا حدود..

.«فين الكتاب؟؟»

.«الكتاب ده بتاع إيه؟؟»

نظرت له في دهشة.. هذا الرجل يصر على إثارة غيظي.

.«مش كفاية قعدِّتني ساعة مستنيك وماصورتوش في الآخر؟؟»

التقط الكتاب من جواره وهو يلوح به أمامي قائلا:

.«ما أنا مش هديهولك إلا لما تقولي فيه إيه.. أنا فتحته لقيت جواه مثلثات ودواير وكلام غريب كده»

فتحه؟؟ ذلك الوغد المتطفل..

.«بعد إذنك هات الكتاب»

يبعد الكتاب عن يدي مرددا:

.«مش هتاخده إلا لما أعرف فيه إيه»

أنظر إلى عينيه مباشرة.. يخرج صوتي مخيفا من بين شفتيّ:

.«هات الكتاب بعد إذنك.. خليني أمشي»

يصمت وهو يحدق في عيني مرتبكا كقط محاصر، فمددت يدي وجذبت منه الكتاب في عنف، واستدرت لأخرج من المكتبة.. ولم يُبدِ هو أي مقاومة من أي نوع..

غريب هذا.. لم أعهد في نفسي هذه الشخصية شديدة القوة من قبل.. شعور رائع..

ولكن كيف يمكن أن تحترق ماكينة تصوير كاملة وهو يصوِّر ذلك الكتاب؟؟ هل هي صدفة حقا؟؟

أعرف جيدا في قرارة نفسي أن الصدف لا تحدث هكذا.. ليس بهذه الطريقة..

لقد قال أنه فتحه لينظر فيه.. ربما كانت هذه هي الإجابة.. الماكينة احترقت لأنه جرؤ على النظر في الكتاب.. وكأنه كائن حي، يختار من يسمح له بالنظر فيه ومن لا يسمح..

جميل جدا.. ماذا سأفعل إذا؟؟ لا حل هنالك إلا تصويره مجددا..

اتجهت إلى مكتبة أخرى لأصور الكتاب، ولكنني لم أرحل هذه المرة..

ظللت جالسا بجوار صاحب المكتبة ساعة كاملة وهو يصوره لأتأكد من أنه لن يفتحه.. وبالفعل، كما توقعت تماما، مرت عملية التصوير بسلام، ومد لي يده بستمائة صفحة من ورق الفلوسكاب الأبيض الدافئ في يدي..

الآن أصبحت لدي نسخة من كتاب (شمس المعارف).. فماذا أفعل بها؟؟

يجب أن أعيد الكتاب الأصلي إلى غرفة عمي أولا، حتى لا يلاحظ غيابه، ثم أتجه إلى المنزل وأبدأ القراءة..

إن المستقبل رائع.. رائع إلى حد مخيف..

* * *

- ٢ -

تدخل إلى غرفتك.. تتجه إلى السرير.. تضع كوب النسكافيه الساخن بجوارك..

تندس في السرير تحت الأغطية.. تضيء النور.. تلتقط الكتاب المصور..

تقلب.. أول صفحة فيه..

فهرس.. الحروف المعجمة.. الكسر والبسط وترتيب الأعمال..

عن أي أعمال يتحدث؟؟ الأعمال السفلية يقصد أم شيئًا
آخر؟؟

لا تدري.. تجري بعينيك فوق السطور..

أحكام البروج..

خواص أوائل القرآن..

هذا هو.. هذا هو ما تريد.. تنظر إلى رقم الصفحة، ثم تقلب الكتاب إليها مباشرة..

ترشف رشفة من النسكافيه..

تبدأ في القراءة.. تحاول أن تفهم..

في البداية، يتحدث الكتاب عن خواص حروف القرآن ومنزلتها.. كلام جميل منمق شديد التقعر..

بعدها يتحدث عن أن الله أعطى أسرار هذه الحروف لعباده الصالحين، العابدين والعارفين بالله،

وهذه الخبرات تتأتى لفئة معينة من الناس هم الذين يجتهدون بالخلوات وكثرة الاستذكار..

جميل.. كل هذا جميل وتعرفه.. ماذا بعد كل هذا؟؟

بعد هذا، طرق معينة لاستعمال تلك الحروف.. تجري عيناك على السطور..

طريقة إخفاء.. هراء..

طريقة لحفظ الزرع.. لا أملك زرعا..

طريقة لرؤية الغيب.. هذا مثير.. لربما عدت لهذه الطريقة فيما بعد..

طريقة لتعلم العلم اللدني.. ما هو ذلك العلم اللدني؟؟

تتذكر.. لقد قرأت عنه من قبل..

ذلك النوع من العلوم الذي لا يمكن أن تتعلمه بالدراسة.. علم يختص به الله عبادا معينين..

كلام غريب لا تفهم منه شيئا، ولكن الغريب في الأمر أنه مذكور في العديد من الكتب.. كتب كثيرة وكُتَّابها لهم ثقل..

(مقدمة ابن خلدون) مثلا.. (الأغاني للأصفهاني).. تتذكر أنهم تكلموا عن هذا الموضوع..

ولكن كيف؟؟ كيف يمكن لأناس مثل (ابن خلدون) أو (ابن سينا) و(جابر بن حيان) أن يتحدثوا عن هذا دون أن تكون فيه –حتما– لمسة ولو بسيطة من الصحة؟؟ أم أن هذا الكلام مدسوس عليهم؟؟

لا تدري قطعا.. الغموض يزداد كلما تعمقت في الموضوع..

تشرب رشفة من النسكافيه..

تقرأ أكثر..

(يعلمك الله من العلم اللدني بإرسال ملك يلبس لباسا أخضر ويأتيك في المنام)

هذا مثير.. يبرر لك الكتاب ذلك بعدها، ويشرح لك كيف أن سيدنا الخضر تعلم ذلك العلم اللدني.. كلام كثير عن الجن الذي قال لسيدنا سليمان: "أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك" والإنسي الذي يرد عليه ويقول: "أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك"

كلام كثير من هذه النوعية.. تشعر وأنت تقرأه بأنه يبرر لك كل شيء من القرآن بطريقة عجيبة.. ملتفة..

جميل جدا.. هذا هو هدفك الجديد.. تريد تعلم العلم اللدني هذا.. فكيف؟؟

رشفة أخرى من النسكافيه.. تقرأ أكثر..

يجب أن تتوضأ وتصلي، ثم تأتي بورقة تكتب عليها بعضا من حروف سور القرآن، ثم تكتب حروفا أخرى في منتصفها.. كلام معقد ولكنه سهل التنفيذ.. وبعد أن تفعل كل ذلك، يجب أن تضع تلك الورقة تحت وسادتك، وتنام..

هذا مثير.. تضع الكتاب جانبا.. تنهض من سريرك.. تمزق ورقة صغيرة ثم تأخذ قلما وتبدأ في الكتابة..

عمل معقد، ولكنك تتقنه ولا تدري كيف.. رشفة أخرى من النسكافيه..

تكتب على الورقة..

انتهيت أخيرا.. تطوي الورقة ثم تضعها تحت الوسادة..

ترشف ما تبقى من النسكافيه.. تغلق النور.. تضع الكتاب على المكتب بجوارك..

تندس تحت الأغطية.. تضع رأسك على الوسادة.. تغلق عينيك..

* * *

ظلام.. ظلام دامس يطالعك..

ثم –من اللامكان– يزول ذلك الظلام..

شيئا فشيئا..

عيناك لا تعتاد على ذلك النور الساطع.. تؤلمك قليلا.. تضيّقها حتى تتغلب على ذلك الشعور..

النور يسطع أكثر..

أين أنت؟؟

تنظر حولك.. هل أنت تحلم أم أنك في السماء؟؟

تنظر إلى الأرض التي تمشي عليها.. ليست هذه أرضا.. بل هي سحابة..

تنظر حولك.. هذه الأشجار الطويلة التي تعلو أمام بصرك حتى تبلغ السماء على مرمى الأفق..

وفجأة، تسمع صوت الصهيل..

تلتفت خلفك.. تتراجع في ذعر..

مئات الأحصنة تجري في كل مكان.. في كل اتجاه.. ولكنها لسبب ما لا تقربك تماما، بل تلتف حولك بمنتهى الدقة حتى لا تؤذيك..

أي مكان هذا؟؟ هل هذا حلم؟؟

لابد أنه حلم.. إذا أين هذا الملاك الذي يرتدي الأخضر الذي سيعلمك العلم اللدني؟؟

تنظر حولك.. تتحرك إلى الأمام.. تتحول الحركة إلى ركض..

لا أحد هنالك..

تغمض عينيك..

تفتحهما..

ظلام من جديد..

تنهض من مكانك.. هل أنت على سريرك حقا؟؟

تزيح الأغطية.. تنظر إلى ساعة غرفتك..

الثالثة صباحا..

مازلت في الليل..

إذا فلتكمل نومك.. تضع رأسك على الوسادة من جديد وتغمض عينيك..

الآن أنت هنا، والآن أنت هناك..

ضوء ساطع من جديد.. أكثر سطوعا لدرجة أنه يعمي عينيك..

تنظر حولك من جديد.. أنت في نفس المكان.. سحب تتسابق وتحملك عليها..

أشجار تتمايل بفعل الرياح القوية.. وتلك الأحصنة البيضاء الجميلة كثيفة الشعر..

وأين هو؟؟ لا ترى أحدا حولك على مرمى البصر.. تلتفت في كل مكان بعصبية..

لا أحد هنالك.. أنت وحدك تماما..

تغمض عينيك..

تفتحهما..

ظلام من جديد.. أنت في غرفتك.. تنظر إلى الساعة.. مازالت الثالثة!

لم يتحرك الوقت.. مازلت عند نفس اللحظة..

هذا غريب.. شعور النعاس هذا..

تغمض عينيك مجددا..

الآن أنت هنا، ومن جديد أنت هناك..

في نفس المكان.. يعمي الضوء عينيك ويحرقهما فلا ترى شيئا.. ولا أحد حولك على مرمى البصر..

نبضات قلبك تتزايد.. شعور الخوف.. عدم الارتياح.. كأن أحدهم يراقبك..

تشعر بالضياع.. كأنك تائه ولا تدري عما تبحث بالضبط.. ولا تدري حتى كيفية العودة إلى موطنك..

ضائع بين الحقيقة والخيال..

تغمض عينيك من جديد..

ظلام..

تفتحهما..

ضوء ساطع..

تغمضهما..

ظلام..

تفتحهما..

ضوء ساطع..

ضائع بين الحقيقة والخيال..

لا تدري ما هو الحلم وما هي الحقيقة..

زمن مر عليك وأنت كذلك..

ومازالت الساعة الثالثة صباحا..

لا تستطيع النهوض من مكانك.. شعور النعاس هذا..

عدم الارتياح.. كأن أحدهم يراقبك..

نبضات قلبك تتزايد.. الأدرينالين يسري في عروقك ثم يتركها فتتهاوى كالبالون المثقوب..

لا تعرف كيف تخرج من هذه المتاهة.. تجري في كل مكان..

تصرخ.. تستيقظ.. تنام.. تستيقظ.. تتثاءب.. تنام.. تستيقظ.. تحدق في الساعة.. تنام..

أين الحقيقة.. وأين الخيال؟؟

لا تدري قطعا..

كل ما تعرفه هو أنك تريد الهروب.. الاستيقاظ لا يبدو فكرة سيئة الآن..

الساعة مازالت الثالثة صباحا..

هذا الذي يحدث لك غير طبيعي حتما.. هذا شيء شيطاني.. شيء خارق للعادة..

ترتجف أطرافك.. يرتعد قلبك بين أضلعك.. تبدأ في قراءة ما تحفظ من آيات القرآن..

سورة الكرسي.. سورة الناس.. كل ما تحفظ..

تصرخ.. تستيقظ.. تتثاءب.. تنام.. تجري.. تستيقظ.. تنظر حولك.. تنام.. تقرأ القرآن.. تستيقظ.. تتثاءب.. تنام..

فجأة.. يتلاشى كل هذا..

تشعر أن الضباب الذي يغلف عقلك ينسحب.. ينحسر..

تغمض عينيك.. تفتحهما..

ظلام الغرفة من حولك.. تنظر إلى الساعة..

مازالت الثالثة صباحا..

لم يتغير شيء، ولكنك تشعر بالارتياح هذه المرة، ولا تدري لذلك سببا..

تريد أن تغمض عينيك لتنام نوما طبيعيا..

تغمض عينيك..

* * *

- ٤ -

تستيقظ..

يُعمي ضوء الصباح عينيك..

ترفع كفك أمام وجهك.. تنهض.. تتثاءب في تثاقل..

المدرسة.. ذلك الشيء اللعين الذي تشعر أنه تم ابتكاره خصيصا ليثير جنونك أنت..

لماذا لا تنام؟؟

.«(جمااااااااال).. يلا اصحى يا حبيبي عشان المدرسة»

لهذا السبب بالذات.. لن تتركك نائما ولو دفعت لها أموال العالم كله.. هؤلاء الأمهات!

تنهض من على السرير.. تزيح الأغطية..

تتجه إلى الحمام.. تغسل وجهك وأسنانك.. ترتدي ملابسك..

تحمل حقيبتك في تثاقل.. تنظر إلى الجدول.. اليوم هو الأربعاء.. إذا لابد من كتاب اللغة الإنجليزية لأول حصة، وكتاب العلوم لثاني حصة..

تجمع كتبك.. تدسها في الحقيبة.. تتجه إلى الباب..

تفتحه...«خد بالك من نفسك»

.«حاضر» (صوت غلق الباب)

* * *

تجلس في الفصل.. تتثاءب..

تنتظر دخول مدرس اللغة الإنجليزية..

تفكر.. ما الذي حدث لك البارحة بالضبط؟؟

هل كان ذلك حلما أم خيالا أم حقيقة؟؟

وأين ذلك الملاك الأخضر الذي تحدثَتْ عنه الطريقة التي في الكتاب؟؟

الكتاب.. لابد أن له علاقة بما يحدث..

ذلك الوجود النفسي الذي تشعره كلما تواجدت في مكان معه..

ذلك الشعور الذي يمزقك بأن أحدا يراقبك بلا هوادة..

تتنهد.. تزفر زفرة حارة..

ينفتح باب الفصل.. يدخل مدرس اللغة العربية..

اللغة العربية!!؟ ظننت أن الحصة الأولى هي حصة لغة إنجليزية! غريب هذا!

ربما كان مدرس اللغة الإنجليزية متغيبا.. هذا يحدث طوال الوقت..

تمضي الحصة وتأتي الحصة التالية.. دراسات اجتماعية..

كيف!!؟؟ أليست حصة علوم!!؟؟

هل مازلت تحلم أم ماذا؟؟

شعور القلق وعدم الارتياح في داخلك يتزايد..

تمضي الحصص جميعا كالكابوس.. كلها ليست الحصص التي في الجدول!

حيرة.. حيرة وقلق وعدم ارتياح..

يدق جرس الاستراحة.. أخيرا! كأنك تحررت من سجن طويل..

تنزل على الدرج.. ترى (مصطفى) من بعيد.. تتجه إليه..

.«إيه يابني عامل إيه؟؟»

يضربك على كتفك..

.«الحمد لله تمام.. انت أخبارك إيه؟؟»

.«تمام.. عملت إيه يابني ف موضوعنا؟؟ ومالك شكلك كإنك لسة شايف عفريت كده!؟؟»

حكيت له كل شيء في الدقائق التالية.. كل شيء عدا ما حدث لي ليلة البارحة..

.«حاجات غريبة بتقولها انت.. مش فاهم.. بس نبقى نتكلم بعدين انت شكلك مش رايق.. أنا بقالي يومين ماشفتكش يا عم وواحشني»

يومان!!؟؟ لقد كنت معه ليلة البارحة.. لا تدقق في التفاصيل فأنت لست في بال رائق لهذا..

.«اليوم النهاردة متشقلب كده ليه يابني؟؟»

يرد في تلقائية:

.«عادي والله.. يوم عادي ممل زي أي يوم»

.«لأ بجد فيه حاجة غريبة.. مش ملاحظ إن كل الحصص متغيرة النهاردة؟؟»

.«متغيرة إزاي مش فاهم!؟؟»

.«يعني أول حصة كانت عربي برغم إنها المفروض إنجلش.. وتاني حصة مش زي الجدول.. وتالت ورابع حصة كمان»

ينظر لك في دهشة.. كأنك لا ترتدي سروالا..

.«انت سخن يابني ولا إيه!؟؟»

.«مش فاهم!»

يمد يده في جيب قميصه.. يخرج الجدول.. يشير بإصبعه السبابة عليه..

.«بص الجدول أهو.. أول حصة عربي.. تاني حصة..»

مهلا مهلا.. إلى أين يشير!؟؟

.«لحظة بس.. انت بتشاور فين!؟؟ المفروض النهاردة الأربع!»

.«أربع إيه!!؟؟ النهاردة الاتنين يا (جمال)!!»

تتسمر في مكانك..

.«الاتنين!!؟»

يرد وهو ينظر لك مندهشا:

.«أيوة! فيه إيه مالك!؟؟»

.«.....»

.«(جمال)!»

لا ترد.. وينظر هو إليك في حيرة.. ثم تتسع عيناه في ذهول..

يرى التعبير الذي وجهك.. يبدأ في الفهم..

الحقيقة ترسم أخاديدها على كل شق من شقوق وجهيكما..

تنظران لبعضكما نظرة أعمق من أي كلمات..

وتنسحب الكاميرا إلى الأعلى شيئا فشيئا.. تعطيك نظرة من منظور عين الطائر إلى رواق المدرسة..

الأولاد يجرون ويلعبون ويتكلمون في كل مكان..

أصواتهم تتعالى حتى تتغلب على صوت أفكارك نفسها..

وهناك في الركن، يجلس هذان الطفلان يحدقان في بعضهما في صمت..

شيء ما يعبر أمام الكاميرا..

تظلم الشاشة أمامك تماما..

***

(نهاية الحلقة الثالثة)

(الحلقة الرابعة)

شيء ما

Something

-1-

ينظر لي..

وأنظر له..

صمت مطبق لا يعكره سوى صوت الصياح واللعب جوارنا..

لا ينطق.. ينظر لي في دهشة..

.«يابني مالك؟؟»

أنظر له.. ولا أرد..

* * *

إن المستقبل رائع.. رائع إلى حد مخيف..

* * *

طبعا كما رأيتم وعرفتم جميعا.. نمت يوم الأربعاء فجرا واستيقظت صباح الاثنين الذي يسبقه!

إلى الآن لا أعرف كيف حدث هذا بالضبط، ولا كيف أفسره..

من المعتاد في مثل هذه القصص أن يقول لك الشخص أنه دخل لينام في يوم معين واستيقظ بعده بيومين.. ويكون هذا غريبا بما يكفي.. لكن هذا الذي يحدث هنا ليس غريبا.. إنه مذهل!!

طبعا يبقى هناك تفسير أنني مجنون أو مخرف ببساطة، وهو تفسير منطقي إلا أنني لا أميل له كثيرا.. أشعر بأن أفكاري مرتبة وبأنني أعرف ما أفعله وما يمر بي.. يبدو كل شيء واضحا وطبيعيا بالنسبة لي، وبالطبع هذا ليس عذرا؛ لأن كل المجانين يرون تصرفاتهم طبيعية جدا، وإلا كيف أصبحوا مجانين!؟

بالتأكيد الجنون يبدو حقيقيا، وإلا كيف يخدع أصحابه!؟ ما ساعد على هذا أنني لم أحكِ لأحد على موضوع ذلك الحلم على حسب ما أتذكر.. ولا حتى (مصطفى) إلا بعدها بفترة.. ولا أعرف لماذا.

إلتزمت الصمت تماما.. وبدأت أدرك وقتها لدرجة اليقين أن هذا الذي يحدث هو بالتأكيد خارق للطبيعة.. لم يعد هناك مجالا للمصادفات.. المصادفات لا تحدث بهذا الشكل أو هذه الكثرة..

التزمت الصمت لفترة هادئة صغيرة، قرأت فيها بعض الشيء في الكتاب.. وكان هناك موضوع بالذات مر أمامي في الكتاب مرورا عابرا، ولكنني لن أذكره الآن.. سأخبركم به بعد قليل..

ولكن دعكم مني أنا الآن.. برغم كل شيء هذا ليس مثيرا لهذا الحد.. شخص يقرأ كتابا وينام ليستيقظ قبلها بيومين.. هذا ممل ولابد أنه حدث عشرات المرات من قبل.. المثير فعلا هو ما حدث مع عائلة خالتي..

دعوني أخبركم.. أنا لدي خالة أحبها جدا وشديدة القرب مني.. تسكن تقريبا على بعد شارعين من شارعنا نحن.. كانت عائلتي دائما عندهم أو عائلتها هي عندنا.. دائما ما كانت العائلتان تقضيان الوقت معا.. كل هذا جميل.. متى بدأت المشكلة؟؟

بدأت المشكلة عندما أنجبت هي ابنها (مازن).. كان قرة عينيها وهدية الله لها من السماء.. كان طفلا

جميلا ووديعا للغاية.. وديعا لدرجة أنه لم يكن يتكلم! لم يخرج من فمه حرف حتى صار في سن الرابعة.. وعندما تكلم أخيرا كانوا في أشد الفرح بهذا. إلى هنا والأمر طبيعي.. عائلة طبيعية عادية كأي عائلة..

بعدها بفترة وهو على مشارف الخامسة حدث الموقف الذي سأحكيه لكم الآن..

* * *

.«(جمال)»

.«عايز إيه يا (عمر)؟؟»

قلتها وأنا أنظر لأخي الأصغر (عمر)، الذي التقط الكرة من على الأرض بيديه، وأخذ يؤدي بها بعض الحركات الكروية، فنظر لي مبتسما:

.«ما تيجي تقف انت جون وأنا هشوط فيك شوية كور»

ابتسمت وأنا أنظر له، ثم هززت رأسي قائلا:

.«يابني مش هتتعلم أبدا!؟ ما قلتلك أنا أجمد منك سواء في الشوط أو الصد»

.«طب صد دي طيب»

قالها وهو يضحك، فضحكت أنا الآخر، ولم يقطع صوت تلك الضحكات إلا صوت (مازن) الرفيع المتلعثم:

.«أنا عايز أثوط كورة»

قالها وهو يجذبني من سروالي، فأدرت بصري إليه قائلا:

.«ما ينفعش يا (مازن) انت لسة صغير.. الكورة هتعورك»

لم يبال بما قلت واستمر كأنني لم أتكلم:

.«عايز أثوط.. عايز أثوط كورة»

قالها بتلك الطريقة المتوسلة التي تمزق نياط القلوب التي يجيدها الأطفال، كقطة تجذبك من سروالك، فأطلق (عمر) زفرة حارة، بينما قلت أنا:

.«قلتلك مش هينفع.. سيب البنطلون.. هنلاعبك بالكورة بس استنى شوية»

لم يتحرك أو يغير وضعه، وظل يردد نفس العبارة وهو يجذب سروالي، ممارسا سياسة الإلحاح التي يجيدها الأطفال أيضا.. كم أكرههم كالجحيم!

أبعدت يده عن سروالي في رفق، وأنا أقول لـ (عمر):

.«تعالى يا عم، هقف جون.. بس لو صديتها ما تفتحش بقك تاني»

ضحك ضحكة ساخرة عالية وهو يقول:

.«تصد مين يا عم اتشاهد على روحك أساسا!»

.«ماشي»

قلتها واتجهت إلى عارضة الملعب الصغير الذي كنا نقف فيه، في ذلك النادي الشهير الذي اعتدنا على الذهاب إليه.. نظرت لـ (مازن) بطرف عيني فوجدته صامتا ينظر لي نظرة كالرصاص.. تجاهلته تماما وأنا أقول لـ(عمر):

.«أهو.. يلا شوط»

تراجع قليلا للخلف مستعدا، ثم سدد الكرة بقوة في اتجاهي.. أمسكتها بصعوبة، ثم قلت له ساخرا:

.«قال (اتشاهد على روحك) قال!»

نظر لي في غيظ ثم قال:

.«طب واحدة كمان!»

.«وماله! بس آخر واحدة.. بعدها تعترف إني أجمد منك وإنك حمار»

.«ماشي»

ضحكت وأنا أقول:

.«هتعترف إنك حمار يعني!؟»

تراجع للخلف مستعدا لتسديد الكرة وهو يقول:

.«لأ طبعا: عشان دي هتخش فيك»

ثم تحرك ناحية الكرة، وانقبضت عضلات قدمي، وتركزت نظراتي على الكرة وأنا أستعد للقفز.. وفجأة، توقف مكانه مبهوتا!

نظرت له في دهشة وأنا أقول:

.«وقفت ليه!؟؟»

لم يرد، وهو ينظر خلفي بنظرة غريبة، نظرة تجمع الذهول مع الخوف، فاستدرت إلى حيث ينظر..

(صوت منتظم لإرتطام قوي بجسم معدني)

وكان هو هناك.. (مازن).. يمارس نشاطا غريبا بعض الشيء..

كان يقف أمام المرمى، وبكل قوته يضرب رأسه الصغير في العارضة الحديدية بشكل منتظم يحدث رنينا معدنيا مميزا..

<<تان.. تان.. تان..>>

تسمرت لحظة أمام الموقف.. لم أر مشهدا كهذا في حياتي، ومازال يثير رهبتي إلى اليوم كلما تذكرته.. القوة التي كان يضرب بها رأسه في المعدن كانت كفيلة بتحطيم جمجمته أو إصابته بارتجاج.

هرعت إليه مذعورا، وأمسكته بقوة وجذبته بعيدا عن العارضة وأنا أصيح:

.«إيه اللي انت بتعمله ده!!؟؟»

لم يرد، وهو يتملص من بين ذراعي ويقفز على العارضة مجددا ليضرب رأسه بها، فتحرك (عمر) بسرعة وأمسكه بقوة، فأخذ يتشنج.. تشنجات مريعة كالمصابين بالصرع، وهو يردد كالآلة:

.«عايز أثوط كورة!! عايز أثوط كورة!!»

طبعا، لك أن تتخيل الذعر الذي تملكنا أنا و(عمر) وقتها.. خصوصا أنه لم تكن هناك اتصالات هاتفية متاحة لنا.. كل هذا بالإضافة إلى أعصابي المشدودة كالوتر أساسا بسبب الكتاب.

قيدناه بقوة، واصطحبناه للمنزل، ولم أعرف –إلا متأخرا– أن هذا الأمر كان طبيعيا ويفعله بمعدل كل يوم..

كيف ؟؟

هذا موضوع يطول شرحه ..

* * *

كان الموضوع -كما وصفت خالتي فيما بعد- غريبا عندما بدأ..

فجأة، وبدون أي مقدمات، تغير (مازن) الصغير ذلك التغير المريع..

أي كلمة تضايقه يوجهها إليه أحد، أي أحد يغيظه أو يرفض له شيئا ما، يكون رده عليه هو ذلك الفعل العجيب؛ يضرب دماغه في الحائط أو الأرض أو أي شيء.. المهم أنه يواصل ما يفعله حتى يغشى عليه.. طبعا ذلك المشهد كان صادما جداً ومخيفا بالنسبة لعائلته التي لم تعرف ما تفعل معه..

حاولوا معاقبته.. معاملته بلطف، وبعنف.. حاولوا بشتى الطرق، ولكنه كان ينتهز أي فرصة ويكرر نفس العمل، حتى بدؤوا في القلق عليه، وأصبحوا يتجنبون مضايقته أو رفض طلباته.

طفل في الخامسة لا يُرفض له طلب.. طبعا هذه كارثة تربوية.. أصبح الموضوع عبئا كبيرا على أهله، وتقريبا أصبحوا منعزلين ولا يزورون أحدا خوفا من أن يرى أحدهم ذلك المشهد العجيب..

وطبعا لم يكن من الممكن أن يتركوا الموضوع كما هو عليه.. بدؤوا بالطب النفسي بالطبع، ولم يفدهم بأي شيء.. وقف الأطباء النفسيين عاجزين تماما عن فهم ما يمر به.. كلام كثير عن الكبت والحالة النفسية السيئة وكل هذا الهراء.. طفل في الخامسة لديه كبت!!؟؟ لابد أنك تمزح..

بعد فشل الطب النفسي بجدارة، داروا به دورة طويلة على الأطباء العاديين.. طبعا بغير أي نفع.. لم يفدهم أحد بأي شيء، وجميعهم كانوا أجهل من دابة أمام حالته..

لم يعد أمامهم سوى المشايخ.. بمعنى أصح النصابون الذين يدَّعون الدجل والشعوذة..

كلام كثير عن الهدهد الحزين، و(شمهورش) أمير الجن الغاضب، والأسياد وبيضة الحمامة

المدفونة في جدار المنزل، أنتم تعرفون كل هذا الهراء..

فشل بعد فشل بعد فشل.. لا أحد يعرف.. لا أحد يفسر.. لا أحد لديه أدنى فكرة عما يفعله..

طبعا زاد هذا العبء والهم على والده (ياسين)، الذي هو زوج خالتي.. ولم يعد يفكر أو يتمنى شيئا أكثر من أن يعالج ابنه.. أخذ يبحث ويبحث.. يكلم كل من يعرفهم عله يصل إلى شيء ما..

وكانت في ذلك الوقت أول مرة يسمع فيها عنها.. الحاجة (صفصف)..

بالتأكيد أكثركم يعرفها؛ فقد كانت مشهورة جدا في تلك الفترة في التسعينيات. كانت تعيش في دوران شبرا، تحيطها العديد من الحكايات والشائعات والأقاويل.. منها مثلا أنها كانت مشلولة وهي صغيرة وأن الله أعطاها القدرة على شفاء الناس.. أناس أخرون كانوا يقولون أنها ليست مشلولة على الإطلاق.. الكثير والكثير من الأقاويل، ولكن الأكيد هو أن أحدا لم يكن يراها كثيرا.. حتى أنا لم أرها في حياتي ولا أعرف شكلها إلا من صور الصحف التي وجدتها على الإنترنت بعدها..

لم يكن يعرفها غير جيرانها المقربين جدا، وكانت معتزلة في بيتها هي وأختها، وكان جيرانها الطيبون هم من يحضرون لهم الطعام.. شيخة طاعنة السن هي..

بعد أن عرف (ياسين) بهذه القصة وبالأقاويل التي تتردد حولها، حاول أن يقابلها..

فذهب إلى بيتها..

* * *

.«سلامو عليكم»

قالها (ياسين) وهو يقف أمام باب أحد جيران الحاجة (صفصف) المقربين، فرد عليه جارها عم (حسني):

.«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. اتفضل»

دخل (ياسين) إلى الشقة، فأغلق عم (حسني) الباب خلفه، ثم دعاه للجلوس قائلا:

.«تشرب إيه؟؟»

.«مفيش داعي ربنا يخليك»

نظر له عم (حسني) مستنكرا وهو يقول:

.«إزاي بس!؟ انت في بيتي لازم تشرب حاجة طبعا»

ثم نادى على زوجته قائلا:

.«يا (سمية).. اعمليلنا كوبايتين شاي»

قالها وجلس جواره.. ظل كلاهما صامتين لحظة، قبل أن يقطع (ياسين) الصمت قائلا:

.«إزي الحاجة (صفصف)؟؟ أخبارها إيه؟؟»

رد عليه عم (حسني) في اقتضاب:

.«كويسة الحمد لله»

صمت لحظة، ثم تابع:

.«بص يابني.. أنا هبقى صريح معاك»

نظر له (ياسين) متسائلا، فتابع:

.«الحاجة مابتستقبلش زوار، ومحدش بيشوفها تقريبا.. هي مش هتقابلك»

.«أومال إيه؟؟»

قالها (ياسين) بنفس الحيرة، فرد عليه عم (حسني):

.«انت هتكتبلي اسمك واسم ابنك وعنوانك في ورقة، وأنا هطلعلها بيها.. واستناني هنا شوية وهيترد عليك»

.«وليه كل التعقيد ده!؟؟»

.«هو كده.. معلش.. مش بمزاجي والله»

دخلت (سمية) حاملة صحفة عليها كوبان من الشاي، وضعتهما على منضدة صغيرة أمام (ياسين)، ثم غادرت المجلس، فصمت (ياسين) لحظة ثم التقط ورقة كانت بجواره وخط عليها ما طلب..

.«اتفضل.. دي كل حاجة طلبتها»

دس عم (حسني) الورقة في جيبه قائلا:

.«ماشي.. خليك انت هنا اشرب الشاي وأنا عشر دقايق وراجعلك»

.«ماشي»

نهض بعدها عم (حسني) متجها إلى الباب، وفتحه وخرج صاعدا إلى الطابق العلوي..

بعدها بربع ساعة، عاد وأغلق باب الشقة خلفه، ثم جلس بجوار (ياسين) قائلا:

.«بص يا سيدي.. ركز معايا»

نظر له (ياسين) في اهتمام، فأخرج عم (حسني) من جيبه مظروفا مغلقا ناوله له قائلا:

.«خد الظرف ده.. تسيبه زي ماهو مقفول.. اوعى تفتحه»

التقط (ياسين) الظرف، بينما تابع عم (حسني):

.«هتخلي ابنك لوحده في الشقة يوم كامل، وتسيب الظرف ده معاه في نفس الأوضة اللي هيبقى قاعد فيها.. وبعد كده إن شاء الله هيخف»

نظر له (ياسين) في دهشة وهو يقول:

.«إزاي؟؟»

طقطق عم (حسني) بلسانه وهو يقول:

.«ما قلنا مش عايزين أسئلة! أنا معرفش.. هي بس اللي تعرف»

.«طيب وأسيبه في الأوضة وأقعد أنا برة الأوضة ولا لازم أسيبله الشقة كلها؟؟»

.«الشقة كلها زي ما قلتلك.. هتسيبه فيها يوم كامل وتاني يوم لما يصحى هتلاقيه كويس إن شاء الله»

نظر له (ياسين) في حيرة، ثم أومأ برأسه غير مقتنع ونهض قائلا:

.«حاضر يا عم (حسني).. هعمل اللي بتقولوا عليه.. يا رب يكون بفايدة بس»

ومد يده إليه ليصافحه وهو يكمل:

.«أستأذن أنا بقى عشان أشوف الواد»

صافحه عم (حسني) في حرارة وهو يقول:

.«بالتوفيق إن شاء الله.. ربنا يشفيهولك يا رب»

.«يا رب.. تسلم على الشاي»

.«لا شكر على واجب.. آنست وشرفت»

اتجه (ياسين) إلى الباب، ففتحه له عم (حسني) ليخرج، ثم خرج خلفه مودعا، فقال (ياسين):

«مالوش داعي خش أنت.. تسلم يا عم (حسني).. مش هنسالك الجميل ده أبدا».

نظر له عم (حسني) في صمت..

ثم دخل إلى بيته من جديد، وأغلق الباب..

* * *

-٣-

طبعا ، نفذ (ياسين) ما قاله عم (حسني) بالحرف الواحد..

جعلوا (مازن) يبقى وحده في البيت طوال اليوم، ووضعوا معه المظروف المغلق في نفس الغرفة، وذهبوا للمبيت عند والدة (ياسين) التي هي جدة (مازن)، ولم يخبروا أحدا بأي شيء عن ذلك الموضوع..

لم تكن المسافة بين بيت خالتي وبيت حماتها كبيرة، مئتا متر على الأكثر..

سارت الأمور بشكل جيد حتى الساعة العاشرة ليلا، عندما جاء (هيثم) أخو (ياسين) وعم (مازن) من السفر..

كان قد عاد حالا من سفره في دولة أوروبية، وجاء إلى البيت حتى ينام، فوجد (ياسين) وخالتي هناك.. طبعا لم يكن من اللائق أن يبيت معهم في نفس البيت.. إذا ماذا يفعل؟؟

خالتي وقتها كانت شديدة القلق على (مازن) الذي يجلس بمفرده الآن في الشقة، فقررت ضرب عصفورين بحجر، فأعطت (هيثم) مفتاح شقتها ليبيت فيها حتى الصباح.. طبعا لم يكن يعرف شيئا عن الموضوع، وعندما سألهم لماذا تركوا (مازن) وحده في الشقة هناك، كان الرد بأنهم يكملون سهرتهم ثم سيصعدون إلى شقتهم من جديد، فلم يدقق في كلامهم، خصوصا أنه كان متعبا من السفر..

أخذ المفتاح وبالفعل صعد لينام..وبعد منتصف الليل بقليل، تململ في نومه.. واستيقظ..

* * *

تفتح عينيك..

تنظر إلى ظلام السقف..

لماذا استيقظت؟؟ تشعر بشعور غريب..

كأن أحدا معك في الشقة.. لا، ليس (مازن) بالطبع.. أحد آخر..

أحد يراقبك.. شعور بعدم الارتياح..

تحدق في ظلام الغرفة.. لكن هل هو ظلام حقا؟؟

ذلك الضوء الأبيض الساطع الغريب القادم من غرفة (مازن) التي هي خارج غرفتك تماما.. ما كل هذا الضوء!؟؟ بالتأكيد ليس من مصباح الغرفة؛ فهو لا يبعث كل هذا الضوء..

يخفق قلبك في قوة وأنت تزيح الأغطية وتنهض من على السرير.. تخرج من غرفتك.. بالفعل، هناك ضوء شديد السطوع يأتي من خلف باب غرفة (مازن) الموارب.. ضوء لا يمكن أن ينتج عن مصباح..

يخفق قلبك بقوة أكثر وأنت تتحرك ناحية باب الغرفة في بطء.. تشعر بالخوف.. بعدم الارتياح.. كأن أحدهم معك ويراقبك.. من هو؟؟ لا تدري ولا تتمنى رؤيته، ولكنه الفضول..

أنت الآن أمام باب الغرفة تماما.. تمد يدك إلى المقبض.. تدفع الباب الموارب لينفتح على مصراعيه..

تطل برأسك إلى داخل الغرفة..

* * *

تنزل درجات السلم ثلاثا ثلاثا، كأن الشيطان يطاردك..

دقات قلبك تسابقك حتى توشك على أن تفقد وعيك..

الأدرينالين يسري في عروقك، ثم يتركها فلا تقدر على الوقوف..

تخرج إلى الشارع.. تنظر إلى الأعلى.. لم يعد هنالك ضوء.. اختفى تماما..

تركض إلى بيتك.. تصعد الدرج.. تفتح الباب وتدخل إلى الداخل..

العرق الذي على وجهك الممتقع يروي كل شيء تفشل ملامحك في التعبير عنه.. لا تقدر على الكلام.. لسانك ثقيل.. حتى الوقوف أصبح صعبا..

تتهاوى على المقعد القريب، فتراك زوجة (ياسين) لتهب مذعورة لتحضر لك كوبا من الماء..

.«إيه فيه إيه مالك؟؟»

يقولها لك (ياسين) في دهشة وهو يتجه إليك، فتنظر له وأنت تلتقط أنفاسك..

لا تقدر على الكلام..

ينظر إليك في قلق يتزايد، وتناولك زوجته كوب الماء، فتتجرع منه كأنك لم تر الماء منذ عام.. ينسكب بعضه على صدرك..

.«في إيه يابني إيه اللي حصل؟؟»

يقولها (ياسين) وهو ينظر إليك هو وزوجته في قلق، فتحاول أن تتمالك أعصابك، ثم ترد:

.«(مازن)!!»

يرد عليك (ياسين) بصوت مرتجف:

.«ماله؟؟»

تنظر له..

.«فيه حد كان معاه في الأوضة»

.«حد مين؟؟»

تصمت قليلا، فيكرر السؤال..

.«حد مين يابني؟؟»

مازلت تنظر له.. هل يصدقك؟؟ أنت نفسك لا تصدق..

.«صحيت من النوم لقيت فيه نور شديد جاي من باب أوضته، قمت قايم ورحت أشوف في إيه»

ينظر لك في ترقب، فتبتلع ريقك وتكمل:

.«ولما فتحت الباب لقيت اتنين ستات لابسين حاجة كده شبه العباية لونها أبيض، وحواليهم نور جامد جدا.. واحدة واقفة عند دماغ (مازن) والتانية عند رجله»

يتحول الترقب في أعينهم إلى ذهول..

.«أول لما شافوني واقف ببص قاموا شاورولي إني ألف أديهم ضهري وما أبصش.. لفيت وأنا مرعوب وفضلت واقف زي ما أنا لحد ما لقيت النور بيخف.. لفيت أبص عليهم لقيتهم خارجين من بلكونة أوضته طايرين في السما.. كإنهم أطياف أو أشباح كده»

ذهول.. ذهول وعدم تصديق.. ينظران إليك نظرة لا يمكنك تمييزها..

لا تدري ماذا تقول، فتفضل الصمت.. يتحرك (ياسين) إلى باب الشقة.. يفتحه.. يخرج..

تنتقل الكاميرا إلى منظور (ياسين).. يقفز على درجات السلم ثلاثا ثلاثا..

يجري في الشارع حتى يصل إلى بيته.. يصعد على الدرج.. قلبه يخفق بعنف غير مسبوق..

يصل إلى باب الشقة.. تبا!! لقد نسي المفتاح..

ولكن الباب موارب.. لابد أن (هيثم) نسيه في غمرة ذعره..

يدفع الباب في رفق.. يدخل إلى غرفة (مازن)..

يفتح الباب في بطء.. لا شيء..

نائم كالملائكة لو أنها تنام.. لا أحد هنالك..

يتنفس الصعداء ويغلق عليه باب الغرفة بهدوء..

ما الذي حدث بالضبط؟؟ ما الذي رآه (هيثم)؟؟

هل هو يكذب؟؟ لا.. إنه لا يعرف شيئا عن الموضوع ومن المستحيل أن يفسر بقانون الصدفة أنه اختار هذا اليوم بالذات ليختلق أمرا كهذا.. الصدف لا تحدث بهذه الطريقة، ثم ما مصلحته في كل هذا!؟

بالتأكيد هو قد رأى ما رآه..

التفكير فيما رآه يبعث القشعريرة في أطرافه.. ذلك البرد الذي يزحف على ظهرك منذرا إياك بأن شيئا ما ليس على ما يرام.. شيء ما يراقبك.. شيء ما يحدث..

شيء خارج إطار المألوف، وفوق قدرتك على الفهم والإدراك..

لكن أيا كان ما حدث، فهو لا يشعر أنه مازال مستمرا..

يشعر أنه انتهى الآن.. انتهى كل شيء..

* * *

شفي (مازن) بعدها تماما من تلك العادة الغريبة..

وعندما سألوه عن ذلك الأمر عندما كبر قليلا، روى أنه كان يحلم ورأى أشياءً تشبه الكرات المضيئة تمر على جسده كله، وتزيل منه أشياء غريبة سوداء سرطانية الشكل.. كان الأمر بالنسبة له لا يتعدى الحلم، برغم أنه كان مستيقظا وبكامل وعيه عندما كان ذلك الأمر يحدث..

ذهب بعدها (ياسين) للسؤال عن الحاجة (صفصف) حتى يشكرها ويستفسر عن تلك الحادثة الغريبة. وكما توقعتم بالضبط.. لم يجدها!!

* * *

.«هي فين الحاجة (صفصف)؟؟»

.«مين؟؟»

.«(صفصف)»

.«مين دي أصلا؟؟»

.«(صفصف) اللي عايشة هنا يا عم (حسني).. اللي بتشفي وتعالج الناس»

.«معرفش حد بالاسم ده والله، وبعدين مفيش حد ساكن هنا أصلا!»

* * *

لم تُجْدِ كل مشاجرات (ياسين) وقتها مع سكان البناية.. ومهما فعل كانوا يقسمون له بأنهم لم يسمعوا عنها من قبل، كأنها انمحت من ذاكرتهم..

لا أحد يعرفها.. لا أحد سمع عنها.. كأنها كانت حلما..

اختفت تماما وكأنها لم توجد قط..

طبعا كما لابد أنكم تعرفون، أثّر فيَّ ذلك الموضوع جدا..

كنت أفكر في أن بعض الناس تفعل تلك الأشياء في الخير، إذا فمن الممكن أن أفعل أنا أيضا ذلك باستخدام الطرق الموجودة في الكتاب..

وفعلا رأيت بعض الطرق التي تشبه هذا الأمر تدعى (طرق الاستشفاء) في بعض فقراته.. كأن الكتاب كائن حي يقرأ أفكاري ويريني ما أبحث عنه وقتما أريد.. لا أتذكر النص تماما الآن، ولكنني أذكر أنه كان يتحدث عن أن هناك بعض الناس يملكون تلك المواهب عن طريق قدرات طبيعية أعطاها لهم الله، وتكون مبطنة في جوهرهم..

وهناك بعض الناس الآخرين الذين لا يملكون تلك الموهبة، ولكنهم ينمونها بممارسة الاعتكاف والرياضة.. الرياضة هنا معناها الصوم والتقشف والتعبد..

كل هذا الذي يحدث جعلني أعتقد أنني أسلك الطريق الصحيح، وزادني إصرارا على إصرار أن أكمل دراسة الكتاب وقراءته وتجريب ما فيه من طرق..

ذلك القرار الذي لم يكن حكيما للغاية..

***

.«بس يا عم.. هو ده كل اللي حصل»

نطقتها ثم نظرت لـ (مصطفى) صامتا أراقبه، وهو ينظر إليّ في دهشة..

ساد الصمت قليلا ثم قال:

.«انت متأكد إن اللي حكاه أخو جوز خالتك ده حقيقي يعني؟؟»

.«وهو هيكدب ليه!؟ وبعدين هو أصلا ما كانش يعرف حاجة عن الموضوع إلا بعد ما حكي»

نظر لي صامتا لحظة ثم قال:

.«طب وموضوع الحلم بتاعك؟؟»

زفرت زفرة حارة وأنا أقول:

.«ماله؟؟»

.«مش ممكن يكون تخاريف مثلا؟؟ أو مجرد حلم عادي؟؟ أو حلم جوة حلم جوة حلم، عارف انت الحاجات دي؟؟ شفتها ف فيلم أجنبي قبل كده»

.«(مصطفى)»

.«إيه؟؟»

.«صدقني أو ما تصدقنيش، بس كل اللي حكيتهولك حصل.. أنا مبقتش عارف أعمل إيه، وكلامك مش مفيد يعني دلوقتي»

صاح مستنكرا:

.«يا عم وأنا قلتلك حاجة!؟ مانا مصدقك، بس مستغرب الموضوع بس»

صمتُّ تماما، ولم أرد وأنا أنظر بعيدا.. وساد الصمت بعدها لبرهة ثم قال (مصطفى):

.«حقيقي.. همممم.. غريب»

أدرت وجهي له فوجدته ينظر إلي في شرود ..

***

طبعا، بعد كل ما حكيته لـ (مصطفى) كان التصديق صعبا للغاية..

بالطبع كان يصدقني؛ فهو يعرف أنني لم ولن أكذب عليه أبدا، ولكن ما حكيته كان فوق أي تصديق.. في البداية كان متشككا..

أحكي له وهو يتظاهر بالتصديق.. تتراقص خلف نظرته حقيقة أنه لا يصدق ويراني مخرفا كبيرا. ومع الوقت، بدأ كل هذا يتلاشى..

أصبح يعتريه صمت أشبه بالشرود كلما كلمته عن الكتاب، وكأنه يفكر في شيء ما..

في ذلك الوقت، كان والد (مصطفى) قد ابتاع شقة جديدة في مكان أفضل في شبرا أيضا، تبعد شارعين فقط عن البيت القديم.. وطبعا استولينا أنا و(مصطفى) على الشقة القديمة.. نذاكر فيها، وبعض الأوقات كنا نهرب من المدرسة ونذهب إليها لنقضي اليوم هناك..

طبعا، صار للكتاب نصيبا كبيرا فيما نفعله، ونال قدرا كبيرا من الاهتمام..

نقلت الكتاب بعدها من بيتي إلى بيت (مصطفى).. لماذا؟؟

الخصوصية طبعا.. تلك التي تفعل من أجلها أي شيء وتغلق عليك أي باب.. تلك التي كنت أحتاج إليها بشدة في ذلك الوقت.. أن لا يسألك أحد ماذا تفعل، ولا ينظر إليك أحدهم نظرات فضولية، ولا تضطرك الظروف أن تتظاهر طوال الوقت بأنه ليس لديك كتاب سحر في غرفتك..

إنها الخصوصية..

بعدها بفترة، بدأ فضول (مصطفى) للكتاب يزداد بشكل ملحوظ.. ولكنه كما قلت لكم من قبل، لم يكن يستسيغ القراءة، وخصوصا أن الكتاب لغته شديدة الصعوبة.. لا يقدر على قراءته سوى من قرأ كتب التراث من قبل ولديه الكثير من الوقت وطول البال..

وفي أحد تلك الأيام التي كنا فيها في الشقة أنا وهو، طلب مني ذلك الطلب.. لأول مرة..

***

.«(جمال).. بقولك إيه»

نظرت له متسائلا، فتابع:

.«أنا عايزك تطلعلي حاجة من الكتاب أعملها وتخليني عندي قوة كده»

.«قوة إزاي يعني؟؟»

قلتها وأنا أنظر له في دهشة، فقال:

.«مهابة يعني.. حاجة تخليني مسيطر كده وعندي هيبة بين الناس»

لا أدري لماذا تذكرت (راسبوتين) في تلك اللحظة.. ذلك الراهب الروسي الذي كان يبلغ من قوته النفسية وهيبته أن أحدا لم يكن يجرؤ على رفض طلب له بمجرد أن ينظر له بعينيه فقط..

صمتّ قليلا ثم قلت:

.«متأكد يابني؟؟ أنا حكيتلك على اللي بيحصل معايا وحواليا»

.«دوَّر بس»

تنهدت مستسلما، وفتحت الكتاب وأخذت أقلب في صفحاته باحثا..

كنت قد مررت مرورا على طريقة من قبل تجعلك على حد قول الكتاب (مهابا بين الناس وجميع الخلائق يأتمرون بأمرك).. لكنني لم أكن أذكر أين رأيت الطريقة بالضبط..

استغرقني البحث قليلا، لا تنس أن الكتاب حوالي ستمائة صفحة أو أكثر.. حتى وجدتها أخيرا..

.«أهي.. لقيتها»

نظر لي متسائلا، فرفعت الكتاب أمامه ليقرأ..

.«جميل أوي.. بس مش فاهم أي حاجة»

ابتسمت.. طبيعي جدا؛ فهو لم يقرأ كتابا من قبل.. دعك من لغة الكتاب القوية التي أفهمها أنا نفسي بصعوبة..

.«طب هقولك على حاجة حلوة»

نظر لي متسائلا..

.«إيه؟؟»

.«أنا هنقلهالك على ورق فلوسكاب وهكتبلك شرح على كل حاجة مش مفهومة»

.«ماشي»

فعلا، كتبت الطريقة على أوراق الفلوسكاب.. سبع ورقات بالضبط.. ثم ناولتها له، فأخذها وأخذ ينظر فيها..

.«بس انت عايز تعمل إيه بالطريقة دي؟؟»

لم يرد، فكررت سؤالي من جديد، فانتبه وقال:

.«عادي ولا حاجة»

ثم أدار عينيه إليّ وقال:

.«عايز أجرب بس»

* * *

-٥-

دعونا من كل هذا الآن، ولنترك (مصطفى) جانبًا لبعض الوقت.. وتعالوا لأحكي لكم شيئًا أكثر غرابة..

علمت يومها أن عمي (صلاح) قد عاد من سفره الذي كان فيه؛ فقد كان يعمل في شركة مقاولات تابعة للعمل الذي كان يجري على (دريم لاند) في ذلك الوقت.

هل تذكرون سفره للعمل، واقتحامي لغرفته حتى أسرق الكتاب؟؟ الماضي الباسم.. طبعًا كان لابد من ذهابي لأرحب به، وأجلس معه قليلًا.

كنت أفتقده فعلا ، و لذلك ذهبت..

***

تصعد الدرج إلى بيت جدتك..

تدق جرس الباب..

(صوت الباب ينفتح)

.«(جمال).. عامل إيه يا حبيبي؟؟»

تدلف إلى الداخل..

.«الحمد لله كويس يا تيتة.. أومال فين عمو (صلاح)؟؟ أنا جاي أسلم عليه»

تنظر إلى الغرفة وأنت تتم عبارتك، فتراه وهو يخرج منها..

ذهول.. ذهول يعتريك.. لا تكاد تعرفه..

.«عامل إيه يا (جمال)؟؟»

يقولها وهو ينظر إليك مبتسمًا، فتنظر إلى جسده وعينيه الغائرتين لحظة.

لم يكن بمثل هذه النحافة من قبل.. كان يملك جسدًا رياضيًا ممتلئًا، ولكنه شديد النحافة الآن، وعيناه غائرتان لا تركزان على شيء أكثر من لحظات.. وكأنه ليس هو.

.«(جمال).. رحت فين!؟»

تفيق من شرودك.

.«الحمد لله يا عمي كويس.. انت عامل إيه؟؟ ومالك خسيت كده ليه؟؟»

يضحك وهو يقول:

.«الشغل بقى الله يحرقه، مش سايبلي وقت آكل ولا أعمل حاجة.. تعالى خش»

يمد يده إليّ، فأصافحه..

باردة.. باردة كالثلج.. كالجثث.. كقطعة لحم في ثلاجتك..

.«تعالى احكيلي.. عملت إيه من ساعة ما سافرت؟؟»

يجذبني إلى غرفته ثم يغلق الباب..

ذلك الشعور بأن أحدًا يراقبك.. يتزايد كثيرًا الآن.. يتزايد إلى حد مرعب..

تنظر بطرف عينك إلى النقش الذي بجانب السرير، وترد:

.«ولا حاجة والله.. مدرسة وقراية كتب وخروج مع (مصطفى) صاحبي وبس»

يهز رأسه متابعًا، فتكمل كلامك:

.«وانت؟؟ أخبارك إيه؟؟»

الشعور مازال يتزايد.. حاول أن تتغلب عليه.. ليس هذا وقته..

.«أهو الحمد لله.. خلصنا شغل أخيرًا، وخدت أجازة.. بس مش كتير.. لسة هرجع أنزل الشغل تاني كمان يومين تلاتة كده»

.«ربنا يعينك»

يبتسم، ثم يقول:

.«وإيه بقى.. قرأت كتب إيه جديدة؟؟»

الشعور.. الشعور يتزايد..

والبرد.. البرد القارس الذي لا يمكن وصفه..

.«مفيش.. قرأت الجريمة والعقاب لـ(دستويفسكي).. لسة ماخلصتهاش عشان حاسسها صعبه شوية.. وانت؟؟»

.«أنا مكانش عندي وقت كتير زي ما انت شايف.. قرأت شوية لـ(توفيق الحكيم).. بس مش كتير»

هززت رأسي متفهما، فتابع:

.«ها بقى.. وصلت لحاجة في الكتاب؟؟»

قلبك ينتفض بين ضلوعك.. ينقبض..

الشعور يستولي عليك..

الخوف.. برد قارس يسري في أطرافك ويزحف على ظهرك..

.«كتاب إيه يا عمي؟؟»

ينظر بعينيه الغائرتين إلى عينيك مباشرة، وهو يقول:

.«شمس المعارف»

وجهك ساخن.. شديد السخونة لدرجة أنه يلسعك..

أطرافك شديدة البرودة، لدرجه أنك لا تشعر بها..

الخوف.. قلبك ينتفض من ذلك الشعور..

أحدهم يراقبك.. يجلس أمامك مباشرة..

تصمت مرتبكًا فاغرًا فمك لا تدري ما تقول وأنت تنظر له، فيضحك فجأة وهو يقول:

.«انت ياض عيل صغير، فاكر نفسك هتصيع على عمك؟؟»

تبلع ريقك في صعوبة، ويخرج الصوت من حلقك مرتجفًا:

.«لأ طبعًا.. بس انت عرفت إزاي؟؟»

.«جدتك قالتلي»

جدتك!؟؟ مستحيل! إنها لا تعرف الموضوع أصلًا.

تنظر بطرف عينك إلى الرمز الذي بجانب السرير.. لقد تغير من جديد.

ما الذي يحدث بالضبط؟؟ شعور عدم الراحة هذا.. شعور كالكابوس يطبق على روحك، فلا يترك لك مجالًا للتنفس.

كأنما يلاحظ الأمر على وجهك، يقول:

.«انت كويس؟؟»

يتصبب العرق من جبينك..

.«آه.. تمام»

يقول ضاحكًا:

.«خلاص اهدا يا خواف.. كل ده عشان قفشتك بك»

الشعور يتلاشى..

تشعر بالدم يجري من جديد في عروقك.. قلبك يستريح.. يهدأ..

هذا ليس طبيعيًا.. ليس طبيعيًا أبدًا..

.«لأ والله عادي.. أنا بس كان عندي فضول ساعة لما شفت الكتاب»

هز رأسه، وهو يقول:

.«طيب يا عم مفيش مشكلة.. وصلت لإيه فيه ؟؟»

تنظر له صامتًا لحظة، فيومئ برأسه مشجعًا.. فتبدأ في الكلام..

تقص عليه كل شيء.. كل شيء تعلمته، وفهمته، وعرفته من الكتاب، منذ (محسن خرسا)، وحتى (صفصف)، وموضوع الحلم الذي كاد يبتلعك..

ساعة كاملة مرت عليك وأنت تحكي له، وهو ينظر إليك صامتًا..

أخيرًا يتكلم:

.«آه عرفت أنا موضوع (صفصف) ده»

كيف عرف؟؟ ليس مهمًا.. بالتأكيد بنفس الطريقة التي عرف بها أنك سرقت الكتاب.. بالتأكيد ليست جدتك، لا مجال للمزاح هنا..

.«أنا شاغلني موضوع الحلم ده.. احكيلي أكتر عليه»

.«مفيش، بقولك كل لما بنام ألاقي نفسي وسط السحاب والأحصنة اللي بتجري دي.. أصحى ألاقي الساعة تلاتة وسبع دقايق لسة زي ماهي.. مش فاهم إزاي.. كإن عمر كامل عدى عليا كده لحد ما الموضوع خلص أول ما قرأت قرآن»

يسألك في اهتمام:

.«وتاني يوم لما رحت المدرسة بتقول اكتشفت إنك قبلها بيومين؟؟»

.«بالظبط.. وماتسألنيش إزاي.. مش عارف»

يشرد بعينيه بعيدًا..

.«طب والملاك الأخضر اللي هو المفروض يعلمك العلم اللدني ده.. ما شفتوش بردو؟؟»

.«لأ خالص»

يحك ذقنه، وهو يقول:

.«غريب»

شعور الفخر يستولي عليك.. عمك نفسه منبهر بما تقول.. أنت عبقري..

شعور لا يوصف.. شعور كالإدمان..

تبتسم في فخر، وهو يقول:

.«عايزين نبقى نقعد مع بعض أكتر عشان نفهم أكتر في الكتاب ده»

تضحك، وأنت تقول له:

.«بس انت يا عمي اتكشفت خلاص.. بابا وتيتة شاكين فيك.. لازم تهدِّي الجو شوية عشان نعرف نقعد نتكلم مع بعض»

ضحك هو الآخر قائلًا:

.«متخافش ياض.. عمك صايع جدًا»

تبتسم ابتسامة واسعة..

إن المستقبل باسم بالتأكيد..

باسم ورائع إلى حد مخيف..

***

- ٦ -

بعد ذلك الموقف، مرت الأيام، وكنت فعلًا أقابل عمي في كل يوم خميس..

بعد ذلك أصبح هو يزورنا يوم الاثنين، وأذهب أنا إليه في بيت جدتي يوم الخميس كعادتنا القديمة.. ولم يكن أحدًا يعرف فيم كنا نتكلم.. كنا نجلس عنده في الغرفة ونتحدث بالساعات، ولم تخرج كلمة إلى الخارج.

أقول، مرت الأيام حتى جاء أحدها، ليحدث فيه شيء ما ..

شيء شديد الغرابة..

***

تضيء الشاشة أمامك فجأة، لتعطيك نظرة على المشهد الذي يحدث في غرفة المعيشة المتصلة بالصالة..

أعمامك الثلاثة (صلاح) و(شريف) و(كمال) جالسون يتسامرون..

أصوات الضحك تتعالى.. يلعبون (الكوتشينة)، ثم ينهض أحدهم ليحضر الدومينو والطاولة..

أكواب شاي وسجائر.. صوت التلفاز يعمل في الخلفية..

سهرة رائعة..

يمر الوقت عليهم، وهم يتسامرون ويضحكون، ثم ينهض عمك (صلاح) قائلًا:

.«أنا تعبان.. هدخل أنام»

.«تصبح على خير»

.«وانت من أهله»

يذهب (صلاح) إلى غرفته.. يدخل ثم يغلق الباب..

يستمر (شريف) و(كمال) في اللعب والتدخين وكأن شيئًا لم يحدث..

يمر الوقت.. ربع ساعة.. نصف ساعة.. ساعة..

فجأة.. ينفتح باب غرفة (صلاح)، ويخرج هذا الأخير منها بملابس الخروج..

ينظر له (كمال)..

.«رايح فين؟؟»

لا يرد.. وكأنه لا يسمعه.. يتجه إلى كرسي الصالون وحذاؤه في يده.. يلتقط فرشاة الأحذية.. يلمع الحذاء بعنف مبالغ فيه.. يرمي الفرشاة على الأرض في عنف.

ينظر له (شريف) و(كمال) متسائلين..

.«انت يابني.. انت كويس؟؟»

يقولها (كمال) فلا يتلقى ردًا، وينهض (صلاح) من مكانه ليفتح باب الثلاجة، ويلتقط زجاجة ماء يفتحها، ليجرعها كلها على مرة واحدة، ثم يلقيها بقوة خلف ظهره بلامبالاة، لتصطدم بالحائط في قوة مصدرة ذلك الصوت الأجوف المميز للبلاستيك.

<<تك!>>

يغلق باب الثلاجة في عنف.. ينهض (شريف) من مكانه مغتاظًا، وهو يقول:

.«انت يا عم.. مش بنكلمك!؟ في إيه؟؟»

لا يتلقى ردًا هو الآخر، ويستدير (صلاح) متجهًا إلى منضده صغيرة عليها بعض الكتب في ركن الصالة، يلتقط من عليها مفتاحه، ثم يركلها، لتسقط بكل ما عليها.

<<طاخ!>>

يغتاظ (شريف) أكثر.. يقترب منه..

.«ما تهدا يا (صلاح) في إيه؟؟ عمال ت»

يقطع كلامه فجأة عندما استدار (صلاح) لينظر له..

تقترب الكاميرا أكثر من المشهد، لتعطيك نظرة أكثر وضوحًا..

تلك النظرة القادمة من أعمق أعماق الجحيم..

نظره تحيل الدم في عروقك إلى ثلج.. تجعل أعصاب قدمك لا تقدر على حملك.. نظرة لم ترَ لها مثيلًا في حياتك.

يتسمر أمامه (شريف)، فيدير عينيه إلى (كمال)، الذي يتراجع إلى الخلف في توجس..

تدور الكاميرا حولهم..

صمت تام.. حتى دخان السجائر يبدو كأنه توقف في الهواء.. كأن الزمن نفسه توقف..

لا تدري كم من الوقت مر وأنت تشاهد ذلك المشهد.. هو ينظر لهما وهما متسمران في مكانيهما وقد خرست ألسنتهما تمامًا، وعجزت عن الكلام أمام تلك النظرة التي تطل من عينيه..

ثم يستدير.. يتجه إلى الباب.. يفتحه.. يخرج.. يغلقه خلفه في عنف، فيدوي صوته كالقنبلة.

<<بوم!>>

مازال (شريف) و(كمال) واقفين في نفس أماكنهم.. لا يقدران على الكلام.

أخيرًا يخرج صوت (شريف)..

«هو فيه إيه!؟؟ ماله؟؟».

يرد (كمال) وهو يتمالك أعصابه..

«مش عارف.. شكله مش طبيعي.. شكله متنرفز من حاجة».

يصمت الاثنان، ولا يجرؤ أحدهما على الاعتراف لنفسه بذلك الشعور الذي يستولي عليهما بعد تلك النظرة التي نظرها لهما.. تلك النظرة التي يمكنها أن تقتل شخصًا بالغًا من الرعب بلا مبالغة..

يعود الاثنان إلى جلستهما في وجوم.. يكملان السهرة.. لكن بلا مرح.. بلا ضحكات.. والكثير من السجائر..

يرن جرس الهاتف.. ينهض (شريف)، ويرفع السماعة..

«آلو».

«.....».

.«آلو»

.«.....»

.«مين معايا؟؟»

.«.....»

لا يتلقى ردًا، فيضع سماعة الهاتف في توجس، ثم يقف مكانه لحظة..

.«مين؟؟»

يقولها (كمال) متسائلًا..

.«محدش بيرد»

يزفر في حرارة، ثم يعود إلى مجلسه متجهمًا..

يمر الوقت.. ربع ساعة..

ينفتح باب الشقة.. يدخل (صلاح) حاملًا في يده كيسًا تفوح منه رائحة شهية.. شيء ما في مظهره تغير.. تفصيلة صغيرة متغيرة، ولكن عقلك لا يستوعب ما هى..

يغلق باب الشقة خلفه، وهو يقول لهما في مرح:

.«يلا مين هياكل؟؟ أنا جايب عشا معايا، وميت من الجوع»

ينظران له صامتين، ولا يتحركان من مكانهما.. يجذب طاولة، ويضعها أمامه، ثم يضع عليها الطعام، ويشمر عن ساعديه، ويبدأ في الأكل..

.«يلا بسم الله»

ويبدأ في الأكل كأن شيئًا لم يحدث..

ينظر له الاثنان في دهشة يلاحظها هو، فيقول بفم ممتلئ بالطعام:

.«فيه إيه يا جدعان!؟؟ مالكوا؟؟»

يرد عليه (شريف):

.«انت مجنون يابني!!؟ إيه اللي انت بتعمله ده!!؟»

.«بعمل إيه!؟؟»

ومازال يتناول الطعام مبتسمًا، فيرد (كمال):

.«انت نسيت اللي عملته من شوية!؟؟»

ينظر لـ(كمال) متسائلًا..

.«عملت إيه!؟ مش فاهم حاجة»

.«وانت نازل، عمال تخبط وترزع في الحاجة لدرجة إني كنت هتخانق معاك، ومتنرفز أوي، وتبصلنا كإنك هتولع فينا، وتنزل وترزع الباب وراك»

يضحك (صلاح) بصوت عال..

.«لا والله!؟؟ وإيه كمان يا باشا؟؟»

يرد (كمال) مغتاظًا:

.«ودلوقتي جاي، وجايب أكل، وبتاكل ولا كإن فيه حاجة حصلت!»

.«امممم.. طيب يلا اقعدوا كلوا، وكفاية هزار»

.«هزار!!؟ انت فاكرنا بنهزر!!؟»

يقول بلا اكتراث:

.«ماهو يا بتهزروا يا اتجننتوا»

يرد (شريف):

.«والله انت عملت كده فعلًا.. مش هنكدب عليك يعني.. انت فيك حاجة غريبة ومتغيرة»

ينظر له (صلاح) متسائلًا..

.«والله يا جدعان ما انتوا أكيد بيتهيألكوا»

يرد (كمال):

.«بيتهيألنا إيه!؟ بقولك شفناك، وكنا هنتخانق معاك.. إحنا الاتنين بيتهيألنا!!؟»

يصمت (صلاح) وهو ينظر لهما في حيرة، ويسود الصمت بعض الوقت، ثم يخرج صوت (شريف) فجأة:

.«ثواني.. انت مانزلتش بالهدوم دي.. افتكرت»

تنتبه أنت، وينتبه (كمال) إلى التفصيلة المتغيرة.. ملابس (صلاح)..

.«انت كنت نازل بقميص اسود وبنطلون اسود.. دلوقتي طالع بقميص أزرق وبنطلون كحلي.. إزاي!؟»

نظر له (صلاح) في حيرة الذي لا يدري عن الأمر شيئًا بالفعل..

.«إزاي يا عم والله نازل بدول ما غيرتش هدومي يعني.. هغيرها فين!؟»

مازالا ينظران له في توجس ودهشة..

.«فيه إيه مالكوا؟؟»

يرد (كمال):

.«طب والله أنا كمان متأكد إن مش دي نفس الهدوم.. فيه حاجة غلط»

الخوف يتجسد في المكان.. التفاصيل التي تبدو على ملامح (كمال) و(شريف) تجعل قلبك يرتجف، وأنت تراقب المشهد..

يضع (صلاح) الطعام جانبًا، ثم يقول:

.«طب ماشي.. انتوا بتقولوا إني نزلت بالبنطلون والقميص الاسود.. وأنا بقول لأ.. تعالوا ندور عليهم نشوفهم فين»

وينهض من مكانه ليبحث.. فيذهبان خلفه ليبحثا عن القميص والسروال.

تتابعهما الكاميرا في بطء..

الغرفة.. لا شيء.. خزانة الملابس.. لا شيء..

الغرف الأخرى.. لا شيء..

.«فين بقى؟؟»

يقولها (كمال) متسائلًا، ويقول بعدها (شريف):

.«قلتلك نزلت بيهم والله»

.«ماتحلفش طيب»

يتجه إلى الحمام.. يفتح الغسالة.. يقلب في الغسيل.. يمد يده وسط الملابس، ثم يخرجهما في ظفر..

تنظر إلى يده.. سروال وقميص أسودا اللون..

.«أهو.. قلتلكوا.. انتو أكيد بيتهيألكوا»

ينظر له (شريف) و(كمال) في ذهول..

لا يقويان على الرد، وهو يتكلم في ظفر قائلًا كلامًا ما لا تميزه؛ لأن الكاميرا تنسحب إلى الخلف في سرعة..

تبتعد بك عن المشهد، حتى تخرج من نافذة الصالة المضيئة، وتبتعد في بطء..

تلتف الكاميرا حتى تواجه ظلام الليل، وضوء القمر المكتمل.. ثم تقترب منه بسرعة..

تغوص في ظلام الليل..

وتظلم الشاشة أمامك تمامًا..

***

(نهايه الحلقة الرابعة)

(الحلقة الخامسة)

ضائع

Lost

-

بعد الحادثة الغريبة التي حدثت مع عمي (صلاح)، بدأت العائلة كلها تشك في أن شيئًا ما خارق للطبيعة يحدث، ولكنهم لم يفهموا ما هو بالضبط.

ووقتها أيضًا، لم تنقطع زياراتي لعمي.. كنت أذهب إليه وهو يأتيني، حتى أصبح الموضوع أشبه بالدراسة.

في كل مرة نقوم بتحضير موضوع، حتى نتكلم عنه ونحاول فك أسرار الحروف باستعمال الكتاب.

وقتها أيضًا كانت أجازة الصيف قد بدأت.. بمعنى أنني لم أكن مشغولًا بأي شيء.. كان لدي كل الوقت الذي في العالم.

أما بالنسبه لـ(مصطفى)، فقد كنا نخرج طبعًا، ولكن ليس في كل يوم كما كنا نفعل في الدراسة.. وفي ذلك الوقت بدأت ألاحظ عليه تغيرات مريبة جدًا.

لم يعد مرحًا كثير الضحك كما كان، بل أصبح شاردًا أغلب الوقت.. يغلبه التفكير كلما رأيته.

طبعا كنت ألاحظ هذا يومًا بعد يوم، ولكنني لم أكن أتكلم.. تركت الموضوع يحدث حتى أستطيع فهم ما هو الذي يحدث بالضبط.

وفي أحد الأيام التي كنت أجلس فيها مع عمي (صلاح)، سألته سؤالًا ما كان يحيرني كثيرًا.. وكانت إجابته أكثر غرابة مما أتصور!

***

-«بس صحيح يا عمي.. أنا عايز أسألك على حاجة»

-«حاجة إيه؟؟»

-«هو انت جبت الكتاب ده منين وإزاي؟؟ وإيه موضوع الرسمة اللي جنب السرير دي؟؟»

.«الرسمة دي حاجة اسمها (قفل الرصد)»

.«يعني إيه؟؟»

.«ده زي ما انت شايف، رسم بيترسم على الحيطة في أي مكان انت بتقعد فيه.. ولو جه أي حد بعدك دخل المكان ده، اللي رسم القفل بيعرف»

.«طب والكتاب.. جبته منين؟؟»

.«....»

.«عمي.. جبته منين؟؟»

.«مش مهم»

***

كما رأيتم، كان يتهرب تماما من إجابة السؤال.. لا أدري لماذا..

بالنسبة لموضوع قفل الرصد، لم أجد عنه أي شيء في كتاب (شمس المعارف).. لا ذكر له مطلقًا.

إذًا من أين عرف تلك الطريقة؟؟ أين وجدها؟؟ هل يملك كتبًا أخرى لا أعرفها؟؟

أسئلة.. أسئلة.. ولا إجابات..

أما بالنسبة للكتاب، فقد بدأت أعرف أكثر عن الموضوع من زيارات أحد أصدقاء عمي اسمه (نبيل)..

من هو (نبيل)؟؟ سأخبركم كل شيء..

(نبيل) هذا كان نجارًا يعمل في شارع جدتي..

أسمعكم تتساءلون.. "نجار؟؟ إذا كيف تعرف على عمي؟؟ وأين؟؟"

الإجابة هي "لا أدري".. كان الأمر غريبًا بحق، خصوصًا أن عمي وكثرة أسفاره بالتأكيد لم تترك له الكثير من الوقت ليجالس عائلته، دعك من (نبيل) هذا.. كان أمرًا عجيبًا.

بداية معرفتي به هي عندما كان يجيء أكثر من مرة، ويسأل على عمي، ويجلسان معًا ليتكلما بتلميحات غريبة، ساعدت مع شكله الغريب غير المريح في جعلي أنفر منه كالجحيم.. حتى شكله كان يثير القلق في نفسك، ولا تدري لماذا.

ومع الوقت، أخبره عمي بأنني أعرف كل شيء عن موضوع الكتاب، فأصبح يتكلم بحرية.. كان يعرف أيضًا كل شيء عن الموضوع.

عرفت بعدها حكايته من عمي.. كان نجارًا عاديًا يعمل في ورشة نجارة، وجاء له عرض بأن يعمل كمورد مع شركة موبيليا.. يصنع ما يريدون، ويورده لهم.

نجح الأمر، وصارت له ورشة كاملة في وقت قصير، وصار يملك مالًا أكثر مما كان يتصور.. ومع المال طبعًا كان من اللازم أن يتخذ ذلك القرار الأحمق.. الزواج.

تزوج، وبعد فترة قصيرة صار له ابن، وبدأت بعدها مشاكل الدنيا كلها.

عائلة زوجته كلها كانت تتآمر عليه.. كانوا يسحبون ماله كله تقريبًا، ولا تدري كيف.

يأتيه الرزق والمال في لحظة، وفي اللحظة التالية يختفي.. يذهب إلى جيوبهم، ولا يملك هو إلا أن يغتاظ في صمت.. ومع كل هذا أيضًا كان إخوته غير راضين عن ذلك الأمر، وكانوا يريدون أن يحظوا بنفس المعاملة والمال أيضًا.. تلك المتلازمة التي لابد أن تراها في أي عائلة فقيرة يصبح أحد أفرادها غنيًا فجأة.. ذلك السعار الذي يصيبهم.. السعار المسمى بحب المال.

لم يكن هو يملك أن يفعل أي شيء، خصوصًا أن شخصيته كانت ضعيفة، ولم يكن يقدر بالتأكيد أن يتصدى لهم.

حتى فاض به الأمر، وفكر أن يفعل شيئًا ما.. وما الذي فكر فيه؟؟ ياله من سؤال..

السحر طبعًا!

ذهب إلى سور الأزبكية، إلى الحاج (عبد الفتاح).. هل تذكرونه؟ الذي اشترينا منه أنا و(مصطفى) الكتاب الأول، وابتاع منه كتاب (شمس المعارف).. ولم يكن السعر مشكلة؛ لأنه كما قلنا كان يملك مالًا أكثر مما يقدر على إنفاقه.

ابتاع الكتاب، وعرضه على عمي، الذي كان زبونًا عنده، بصفته خبيرًا في الكتب والثقافة.. وطبعًا انبهر عمي بالكتاب كما انبهرت أنا به بالضبط، خصوصًا وأنه في الأساس كان مهتمًا بتلك العوالم منذ أن بدأ يدرس حروف القرآن.

بدأ عمي يدرس الكتاب، وكان هذا مما يسعد قلب (نبيل) الذي كان يذكِّرني بـ (مصطفى).. لم يكن يحب القراءة أيضًا، ولم يكن يريد تضييع وقته.

كل ما كان يريد هو طريقة تنفذ له ما يريد، وتخلصه من تحكم أهل زوجته.. لو وجدها لنسي كل شيء عن الأمر في اللحظة التالية.. لم يكن مهتمًا بنفس درجة اهتمام عمي الشبيهة بالهوس بتلك الأمور.

أقول أن شكله لم يكن مريحًا.. كان يثير القلق في نفسي والشعور بعدم الارتياح كلما رأيته، ولم أكن أحب مجالسته.

ولكن دعونا منه الآن، ولنعد إلى موضوعنا الأساسي.

كما قلت، كانت الأجازة قد بدأت، ولم يعد هناك ما يشغلني.

واتصلت بـ(مصطفى) في أحد الأيام حتى يقابلني، ويعطيني الكتاب.

***

نظرت إلى ساعتي وأنا أقف في ميدان التحرير، ثم تلفتُّ حولي باحثًا عن (مصطفى).

تأخر الوغد.. أين هو؟؟

أخيرًا.. ها هو ذاك..

جاء وتقدم إليّ مصافحًا بطريقة فاترة قليلًا، ثم ناولني الكتاب وكأنه يلسع.. كأنه يريد أن يتخلص منه.

تناولت الكتاب في حيرة، ثم جلسنا أنا وهو جلستنا المفضلة على السور.

.«مالك يابني فيه إيه؟؟»

.«مفيش والله أنا تمام الحمد لله زي الفل»

رد بسرعة وتلقائية، كأنما ينتظر سؤالي..

صمتُّ لحظة، ثم قلت:

.«انت هتصيع عليا يابني!؟ انت شكلك مقلوب، وحالك غريب.. مالك بجد فيه إيه!؟؟ ما تحكي»

.«مفيش يا (جمال).. عملت الطريقة اللي انت اديتهالي، ومن ساعتها حياتي متشقلبة»

اعتدلت في اهتمام..

-«متشقلبة إزاي؟؟»

.«كوابيس كتيرة جدًا.. كوابيس كتيرة لدرجة انت مش متخيلها، لدرجة إنها بتجيلي حتى وأنا صاحي»

ضحكت قائلًا:

-«كوابيس إيه يابني اللي بتجيلك وانت صاحي!؟ إزاي يعني فهمني»

نظر لي في ضيق، وهو يقول:

-«يعني ببقى قاعد عادي، وفجأة ألاقي نفسي بسرح، ويجيلي كابوس وسط السرحان.. والسرحان ده مش بمزاجي أساسًا.. بحس كده إني بروح عالم تاني مختلف تمامًا»

.«يعني بتشوف إيه؟؟»

.«بشوف حاجات منيلة بنيلة.. كوابيس فيها حاجات غريبة، وناس شكلها وحش بتطاردني.. وساعات كتير بحلم بحاجات زي كوارث كده»

وضعت يدي على وجنتي مستمعًا، وأنا أقول:

-«يعني إيه كوارث؟؟»

.«يعني في مرة حلمت إن ميدان التحرير كله اتحرق وأنا جواه.. ومرة تانية حلمت إني ماشي على جسر، وبعدين الجسر كله وقع وأنا عليه.. مره تانية حلمت بخناقة كبيرة جدًا، مات فيها ناس كتير.. وفي وسط كل ده، لازم بيطلعلي في الآخر الناس الغريبة دي تطاردني»

نظرت لعينيه وهو يتحدث في صمت..

تترقرق فيهما الدموع، وكأنه يرثى لحاله، أو يلومني بشكل ما على إعطائه تلك الطريقة، وكأنه لم يطلبها من البداية.. يا له من أحمق!

.«وبعدين؟؟»

.«وبعدين بقيت أخاف أنام في الأوضة.. مش بقدر أنام فيها، حتى والنور شغال»

نظرت له في دهشة قائلًا:

-«ده ليه كده؟؟»

صمت لحظة، ثم قال:

-«بتحصل فيها حاجات غريبة»

.«حاجات زي إيه؟؟»

لم يرد، فكررت السؤال..

-«حاجات زي إيه يابني؟؟»

لم يرد، وأشاح بوجهه بعيدًا.. لم يكن يريد التحدث عن الأمر، وكأنه يؤلمه بشكل ما، ولا يريد تذكره من جديد، وأظنني أفهمه.

.«بص يا (مصطفى).. أنا معايا الكتاب أكتر من ما كان معاك.. وقريت فيه أكتر منك، وأديك شايف ماحصليش حاجة من اللي انت بتقول عليها دي.. وبعدين يابني أنا مش حذرتك!؟»

نظر لي في صمت نظرة لائمة، فقلت:

.«عايزك تجمِّد قلبك كده شوية.. وماتقلقلش.. هنوصل»

جاءني خاطر عابر.. هل من الممكن أن يكون ذلك الذي يحدث له بسبب أنه نظر إلى الكتاب ولم يقرأه كاملًا؟؟

تمامًا كما حدث إلى صاحب المكتبة الذي حاول تصويره بعد أن نظر فيه، فاحترقت ماكينة التصوير كلها.

إن هذا غريب حقًا.. لا يمكن أن تكون هذه صدفة..

التقطت الكتاب، ونهضت قائلًا:

.«يلا بس بينا.. الوقت اتأخر ولازم نروح»

نظر لي قائلًا:

.«طب وهعمل إيه في اللي أنا فيه ده؟؟»

.«يابني ما قلتلك.. أكيد اللي انت فيه ده خوف عشان الموضوع لسة جديد عليك.. جمد قلبك كده بس، وما تخافش، وهتلاقي كل حاجة بقت تمام»

لم يرد، فقلت:

.«يلا يابني.. قوم»

نهض في تثاقل، فجذبته من كتفه، واتجهنا إلى المترو..

ما الذي فعله بالضبط؟؟

هل نفذ الطريقة بالشكل الصحيح؟؟ ولو نفذها، فلماذا لم تعمل؟؟

لا يبدو قوي الشخصية لي.. على الأقل الآن..

وما سر تلك الكوابيس التي تراوده؟؟

أنا دون سواي أعرف أن ما مر به حقيقي، وما هو إلا البداية..

بداية ماذا؟؟

لا أعرف.. ولكنني لابد من أن أعرف..

يجب أن أقرأ أكثر في الكتاب..

***

بعد ما حكاه لي (مصطفى)، كان الفضول يقتلني تفكيرًا في ذلك الهاجس الذي كان يشغلني.

وبالفعل، بعدها قرأت الطريقة التي نفذها من جديد، ولكن بدون أن أنفذها، أو أقرأها بصوت مسموع.. لقد صار من الواضح أن الأمر حقيقة لا مزاح فيه.. الكتاب خطر فعلًا.

وبدأت أتعمق فيه أكثر.. وأكثر..

أصبحت أسهر أيامًا متواصلة باحثًا عن شيء ما يساعد (مصطفى)، وعن جديد في موضوع الحروف.

ومع الوقت، أصبحت لدي حالة من الذهول.. كأنني في عالم آخر لا يعيش فيه غيري.. عالم لا يوجد فيه آخرون.. لم أعد أكلم الناس، ولم تعد لدي رغبة في الصحبة البشرية.. بعدما كنت محبوبًا بشكل ما بين الناس والأهل والأصدقاء، أصبحت متوحدًا كذئب بشري.. وكرد فعل طبيعي لم يعد أحد يهتم بوجودي.

تدريجيًا أصبحت حياتي تنفصل عن من هم حولي، لأعيش في عالم آخر وحدي.. كنت سعيدًا بهذا فوق التخيل.. كأنني كنت شخصًا آخر.

مرت أيام كثيرة وأنا أقرأ، حتى بلغتُ مبلغ الخبرة في ذلك الكتاب.. وكان ذلك الهاجس في عقلي يلح علي بأن أجرب طريقة أخرى.. لابد أن أعرف.. أن أفهم.. ولكن مبدئي مازال كما هو لم يتغير، لن أجرب شيئًا ما لا أعرفه أو فيه شيء غريب يقترب من شبهة السحر.. وكأن هذا لم يكن سحرًا!

منطق غريب يذكرك بمنطق المدمن الذي يدخن الحشيش، ولكنه لا يقرب الهيروين؛ وما إن يكلمه عنه أحد حتى يبدأ في وعظه كقس كاثوليكي.. منطق غريب ملتف، يشعرك بأن صاحبه ليس على ما يرام.

ظللت أقرأ.. وأقرأ، حتى وجدت تلك الطريقة.

باختصار، كان المطلوب هو أن أقوم بذكر عشرة من أسماء الله الحسنى، عشرة آلاف مرة في يوم واحد، وجلسة واحدة.. وذلك يجب أن يتم في يوم قمري معين.. ما ستلاحظونه دوما هنا هو أن تلك الأشياء دائمًا ما تكون لها علاقة بالفلك بشكل أو بآخر.

جميل، وبعدها؟؟ ما الذي سيحدث؟؟

يقول الكتاب بأن تلك الطريقة سوف تجعلني ما يدعى ب(المتعلم الذاتي)؛ بمعنى أنها سوف تعطيني القدرة على تعلم، وفهم أسرار أي شيء أراه أمامي، بلا أدنى مجهود يذكر، وبدون أي وسائل، أو وسيط من أي نوع.. فقط أراها، فتتدفق المعلومات إلى عقلي.

تخيلوا الاحتمالات التي ليس أقلها مثلًا سر بناء الأهرامات.. بمجرد وقوفي أمامها فسأعرف السر الذي حير علماء المصريات في العالم على مر العصور.

رائع.. إذًا فلنجرب..

استعددت للتجربة.. ومما جعل الأمر سهلًا أن والدي ووالدتي و(عمر) كانوا خارج المنزل في ذلك اليوم، بسبب وفاة جدي (والد أمي) -رحمه الله-.. صدفة عجيبة طبعًا.. هذا ما يجب أن تعرفوه عن الكتاب، وعن تلك الأشياء.. مجال الصدف هنا كبير، وعجيب جدًا.. ما إن تقرر شيئًا ما حتى تجد الصدف تحدث، وتتكرر، وتتناسق مع بعضها، حتى تمهد لك الطريق للتجربة، ولا تدري كيف.. تشعر وكأن كل شيء مرسوم مسبقًا، ومحدد سلفًا.

جميل.. قررت أن أبدأ التجربة، وأسهر عليها، ثم صباحًا أذهب إلى دفن جدي، والعزاء في القرية.

وهكذا، أحضرت قلمًا وكراسة، وبدأت في ذكر الأسماء.. كلما أتممت عشرة رسمت علامة على الورق، حتى لا أخطئ وأذكر ماهو أكثر أو أقل.

مر الوقت.. حتى وصلت تقريبًا لأربعة أو خمسة آلاف.. شعرت بأنني لا أشعر بقدمي بسبب الجلوس المتواصل، وبأن حلقي جاف كالخشب.. أريد أن أشرب.

فتركت كل شيء، ونهضت..

***

تنهض من مكانك.. تكافح للوقوف.. تشعر وكأنما كل عضلة وكل عظمة في جسدك تعلن تمردها، وتئن متألمة.

تتثاءب.. تنظر إلى الساعة.. الثانية ليلًا.. لقد استغرقك الأمر حقًا..

تتجه إلى المطبخ، سيقانك كأعواد المكرونة.. لا تقدر على المشي، فتستند إلى الأشياء في طريقك، ولا تدري لماذا.. حتى جسدك لا يطيعك.. تشعر بتعب رهيب.. وكأن جسدك يزن أطنانًا.

تدخل إلى المطبخ.. تمد يدك إلى باب الثلاجة..

<<دزززززز!!>>

(صوت شرارة كهربائية)

<<بوم!!>>

(صوت اصطدام جسد بالحائط بقوة)

تشعر بأن آلاف الفولتات تسري في جسدك، فتطير إلى الخلف، لترتطم بالحائط، وتسقط أرضًا بلا حراك.

كل عظمة في جسدك تئن متألمة.. لا تشعر بأقدامك.. تنظر إلى الثلاجة في ذهول.

الخوف.. الخوف يستولي عليك، وعلى قلبك، حتى لا يترك مجالًا لأي شيء آخر.

ما هذا الذي حدث؟؟

تشعر بأنك كدت تموت.. كل هذا لأنك أردت أن تشرب.. الطريقة تقول بأنك يجب أن تنتهي من العشره آلاف مرة في جلسة واحدة بالفعل، فهل لما حدث لك علاقة بذلك؟؟ وكأن شيئًا ما يعاقبك، لأنك جرؤت على النهوض.

الساعة الثانية ليلًا.. والرعب يعلن سيادته على عقلك، وحواسك، وكل ذرة في كيانك.

تظل على الأرض، تنظر في ذهول إلى الثلاجة، ولا تقوى على الحراك..

تمر دقيقة.. اثنتان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة..

أخيرًا تستطيع النهوض.. تعتدل جالسًا..

مازال حلقك جافًا، فهل تشرب؟؟

وماذا لو صعقت مجددًا؟؟ ربما تموت هذه المرة.. مازلت تشم رائحة الدخان المتصاعد من شعرك، ويداك تؤلماك كأن مكواة ساخنة مرت عليهما.

تنظر إلى غرفتك.. الضوء المتذبذب داخلها..

تشعر بشعور غير مريح.. وكأن أحدًا يراقبك..

الرعب يتصاعد.. الرعب يصبح سيدًا..

الخوف يتجسد معك في المكان.. تشعر بأنفاسه حولك..

هل تذهب إلى الغرفة؟؟

كلا بالتأكيد، مجرد النظر إليها من هنا يطير عقلك شعاعًا، فما بالك لو دخلتها؟؟ ستموت بنوبة قلبية حتمًا..

لابد أن تتنفس.. أن تلتقط أنفاسك..

لابد أن تهدأ..

تستدير، وتتجه إلى الشرفة.. تفتحها، ثم تدلف إلى الداخل.. الهواء البارد يخترق ملابسك، ويزحف على ظهرك.. القشعريرة الباردة تستولي على جسدك.

هواء بارد في الصيف!!؟ إن هذا غريب حقًا..

تنظر إلى الأفق شاردًا.. تنتبه فجأة..

ما هذا الذي تراه؟؟

***

إن المستقبل رائع.. رائع إلى حد مخيف..

***

ما هذا الذي تراه؟؟

***

.«مفيش.. عايز أجرب بس»

***

تنظر إلى أفق عالم آخر..

لا شيء مما تعرفه تراه أمامك الآن.. لا أبنية.. لا شوارع.. لا سيارات..

لا بشر..

كل ما تراه هو ذلك الفراغ الأزرق..

ترتجف..

ما هذا؟؟

خيوط مضيئة مستقيمة من الضوء تتصاعد إلى السماء، أو تهبط منها..

كشلال من الضوء.. كالشهب التي تراها في ليالي الصيف..

خيوط متصاعدة.. خيوط ساقطة..

خيوط تختفي.. خيوط تظهر..

لا شيء تألفه.. لا شيء حقيقي..

ترتجف أكثر..

تشعر بطاقة تستولي على كيانك.. على كل ذرة في جسدك.. كأنك تشع ضوءًا..

لا تدري كم من الوقت مر عليك وأنت تحدق في هذا المشهد..

يتلاشى الخوف تدريجيًا، وتتبدى لعينيك روعة المشهد.. تغوص بعينيك فيه شاردًا..

تفيق فجأة على ضوء الصباح..

لا شيء أمامك.. لا فراغ أزرق.. لا خيوط ضوء.. لا شلالات مضيئة..

كل شيء عاد إلى طبيعته..

صوت الطيور من حولك، والشمس تعمي عينيك..

تدخل إلى الشقة.. تغلق باب الشرفة خلفك..

تتجه إلى الغرفة.. تلتقط الكتاب.. تغلقه.. تضعه بداخل ملاءة، وتلفه بها حتى لا تلمسه.. تخبئه بين حشايا السرير..

تلتقط أنفاسك.. ماذا تفعل الآن؟؟

يجب أن تذهب إلى القرية والعزاء والدفن..

مازال اليوم طويلًا..

***

تذهب إلى بيت جدتك (والدة أمك) في القرية..

تدور عيناك فيما حولك.. صوت القرآن يتصاعد من جهاز الكاسيت العتيق في الركن..

مظاهر العزاء المصري الأصيل تتبدى لعينيك..

جو كئيب يستولي عليك لدرجة أنك تختنق..

يمضي الوقت.. لا تستطيع الجلوس بالداخل كثيرًا..

تخرج كل فترة لالتقاط الأنفاس.. تنظر إلى ساعتك..

مازال اليوم طويلًا..

تقاليد الدفن العتيقة التي تنص على أن الميت يجب أن يُحمَل على الأعناق إلى المقابر.. لا شيء يدعى سيارة..

يحمل على الأعناق إلى المقابر التي تبعد سبعة كيلومترات عن البيت تقريبًا..

تنظر إلى ساعتك.. مازال الوقت مبكرًا، واليوم طويلًا..

يجب أن تمشي في الجنازة طبعًا.. أليس جدك؟؟ رائع..

تمشي..

تمشي، ثم تمشي، ثم تمشي..

تمشي حتى تدمى قدماك، ويحرق الحر كل خلية في جسدك، ويملأ العرق ملابسك.. لا تنس أنك في الصيف..

تصلون أخيرًا إلى المقبرة.. تبدأ عملية الدفن..

ساعة أخرى من الحر، والعرق، وقراءة القرآن، والبكاء، والسواد، والكآبة.

تشعر أنك تختنق.. تريد أن تهرب.. ولكن يجب أن تتحمل.. أليس جدك؟؟ إذًا فلتتحمل كالرجال.

ينتهي الأمر أخيرًا، ويستدير الموكب عائدًا.. لا ركوب أيضًا.. إنه المشي، ولا شيء غير المشي.

عندما تعلن التقاليد عن نفسها وتسود، فإنها لا تترك مجالًا لعقل أن يفكر.

ببغاء كبير عقله في تقاليده وماضيه.. لا تفكير.

تمشي.. تمشي من جديد، حتى تشعر بأن قدميك تزن أطنانًا..

تلهث.. تعب الهواء في جشع، وكأنك لن تتنفس من جديد..

الحر.. العرق..

لا هواء..

يجب أن تجلس.. يجب أن تشعر بالهواء على جسدك قبل أن تموت بنوبة قلبية..

تنظر حولك.. مصطبة قصيرة على يمينك، يبدو شكلها كواحة وسط صحراء قاحلة.

واحة تعدك بالجنة لو أنك فقط تتوقف.. تجلس.. تلتقط أنفاسك.. تحتمي بظلها قليلًا.

تتجه إليها وتجلس.. تلهث، وتمسح عرقك بيدك..

دقيقتان فقط تلتقط فيهما أنفاسك، ثم تنهض لتلحق بالموكب.. لن يبتعد على كل حال، ثم إن الشارع الذي تمشون فيه شارع طويل ومستوٍ، حتى أنه يمكنك أن ترى آخره من مكانك.

لن يغيبوا عن ناظرك..

تلتقط أنفاسك..

تستريح..

تمر دقيقة.. دقيقتان.. ثلاثة..

لا تشعر بالوقت..

تنهض أخيرًا.. تتجه إلى الطريق، لتواصل زحفك المرير..

ولكن.. أين الجميع؟؟

لا ترى أحدًا..

لا ترى حتى الغبار المتخلف عن أقدامهم..

لا تسمع صوتًا..

لا أحد أمامك في الأفق..

دقات قلبك تتعالى.. تتزايد..

العرق يتصبب من جبينك مجددًا..

والرعب..

وحدك في طريق طويل، تملؤه المقابر على الجانبين..

وحدك، ولا أحد معك سواه..

الخوف..

تبدأ في المشي.. تحاول أن تتمالك أعصابك..

لابد أن الوقت سرقك، وأنهم يمشون أسرع مما تتصور..

ربما وصلوا إلى البيت بدون أن تشعر..

تمشي..

تمشي حتى تدمى قدماك..

الطريق لا ينتهي.. وكأنك لا تتحرك..

نفس المعالم تمر بعينيك من جديد..

الرعب يتزايد.. وببطء يزيح جانبًا التفكير..

لا يترك مجالًا للتعقل..

تتسارع خطواتك..

القلق..

الرعب يتزايد..

تلك الأعين الخفية التي تراقبك..

تشعر بأنك مطارد..

لا مجال للتعقل.. تترقرق الدموع في عينيك.. تنظر خلفك..

لا أحد..

تريد أن تبكي.. ببطء يتحول كل الثبات الذي في داخلك إلى خوف..

أنت الآن طفل.. طفل يريد أمه.. طفل يريد الأمان.. يريد أن يرى بشرًا..

طفل يشعر أنه أقحم نفسه فيما لا يمكن أن يفهمه أو يتحكم فيه..

تتسارع خطواتك أكثر..

نفس المعالم ولا تغيير.. الطريق لا ينتهي..

فجأة.. تراه..

ذلك العجوز..

يبدو مرآه وكأنك وجدت خلاصك.. بشري أخيرًا..

تتجه إليه بخطوات أشبه بالركض.. تلهث..

.«يا حاج.. يا حاج»

لا يبدو أنه يسمعك..

.«يا حاج.. بعد إذنك»

يلتفت إليك فجأة، وكأنه كان يسمعك منذ البداية..

لا تنتبه إلى ذلك في غمرة انفعالك، وتسأله:

.«يا حاج ما شفتش ناس ماشيين كده طالعين من المدافن؟؟»

ينظر إلى عينيك مباشرة..

.«عيلة مين يابني؟؟»

تذكر اسم عائلة والدتك..

.«آه شفتهم.. مش دفنة (عبد الحميد) الله يرحمه؟؟»

أخيرًا.. أخيرًا..

.«أيوة.. أيوة هما»

.«أنا شفتهم دخلوا الحارة دي عشان ليكم قرايب هناك، وبيقروا عليهم الفاتحة»

يشير بيده اليسرى إلى حارة قريبة..

تلتقط أنفاسك.. تتنفس الصعداء.. أنت بخير..

تذهب في الاتجاه الذي أشار إليه، وقد أنساك الانفعال أن تشكره..

تدخل الحارة..

كأنها متاهة.. نفس معالم الشارع الرئيسي.. وحارات أخرى على الجانبين.

تلمح كتف أحد أقربائك من بعيد، وهو يدخل في أحد الحارات.. فكأنك لمحت خلاصك..

تجري.. تجري في اتجاهه كما لم تجر من قبل..

تدخل إلى الحارة..

لا أحد..

تلتفت حولك..

تلمحه مجددًا..

تجري نحوه..

تدخل الحارة..

لا شيء..

شعور الخوف يتعاظم.. يستولي عليك..

أنت الآن ضائع.. متاهة من المقابر والحارات، وأنت ضائع وسطها ولا تجد أحدًا تسأله عن الطريق..

الشمس بدأت في المغيب، سيحل الظلام عما قريب..

عقلك مشلول تمامًا..

لا تستطيع التفكير..

تجري إلى حارة أخرى..

لا أحد..

فجأة، تلمحه من جديد..

نفس الرجل العجوز..

تركض نحوه، وتحمد الله في سرك، وقلبك يتواثب من الانفعال..

يلتفت نحوك..

.«انت بتعمل إيه يابني؟؟ انت لسة هنا؟؟»

تقول، وأنت توشك على البكاء:

.«ما أنا مشيت في الطريق اللي قلتلي عليه تهت»

ينظر إلى عينيك مباشرة..

.«وهو أي حد يقولك أي حاجة تمشي وراها!؟؟»

تنظر إلى عينيه.. الرعب يستولي عليك تمامًا، فلا تدري ماذا تقول.. عقلك توقف تمامًا عن التفكير، ولم تعد تقدر على ترتيب الكلمات.. هذا الذي يحدث فوق طاقتك.

.«يابني الطريق اللي انت ماشي فيه ده طريق غلط»

يشير بيده اليمنى هذه المرة إلى حارة قريبة تبدو مضيئة أكثر من المعتاد.

.«الطريق الصح من هنا»

تشعر بأنه يرمي إلى شيء ما.. يقصد شيئًا ما لا تقدر على استيعابه..

تتركه واقفا، وتجري إلى حيث أشار.. تجري كأن الشيطان يطاردك..

تدخل إلى الحارة التي أشار إليها..

تشعر أنها مضيئة.. تجري فيها..

تجري، ثم تجري، ثم تجري..

تجري حتى تدمى قدماك..

تلهث.. تعرق.. تبدأ الدموع فعلًا في التساقط من عينيك..

تشعر بالأعين الخفية تراقبك من بعيد..

تنظر إلى ماهو أمامك، على مرمى الأفق..

يلوح لك البيت من بعيد..

***

(نهايه الحلقة الخامسة)

(الحلقة السادسة)

كوابيس

Nightmares

تمهيد:-

ترفع عينيك إليها..

جميلة؟؟ لا.. لا يمكن وصف هذا الذي تراه أمامك بتلك الكلمة الفانية.

وهل يمكن وصف الملائكة بالتقوى!؟؟ هل يمكن وصف الآلهة بالقوة!؟؟ هل يمكن وصف الشمس بالسطوع!؟؟

هل يمكن وصفها بالجمال؟؟ كلا.. لا يمكن بالتأكيد.. أنت تحتاج لكلمة أقوى من هذه.. أعمق، وأكثر تأثيرًا..

لا تجدها للأسف، فتحدق فيها في صمت..

يفتر ثغرها عن ابتسامة عابثة، ثم ترفع خصلات شعرها من على عينها، وتشير إليك بالسبابة أن تتبعها في دلال.

تتحرك خلفها مبهورًا متقطع الأنفاس..

ذلك الطريق الطويل الذي تحفه الأشجار على الجانبين..

تمشي خلفها مبهورًا لا ترى شيئًا سوى جسدها.. جميل؟؟ بالتأكيد لا يمكن وصفه بمجرد هذا.. جسدها هو من الأشياء القلائل التي تشعرك بأنك بشري فانٍ، لا يقدر لسانه على التعبير، ويعجز عقله عن الاستيعاب.

تمشي أمامك متمايلة، وأنت تتبعها مبهورًا، متقطع الأنفاس..

يلوح لك ذلك الكوخ في الأفق.. وهي تتقدم منه في بطء.. وأنت مازلت تتبعها.

مهورًا، متقطع الأنفاس..

تلتفت لك، ثم تغمز بعينها اليسرى في إغراء، فتبتلع ريقك، وتحاول أن تتمالك أنفاسك، لكنك لا تقدر وأنت تحدق في الثوب الذي ترتديه، والذي يرسم معالم جسدها بدقة ووضوح.

هل يمكن وصفها بالجمال؟؟ كلا بالتأكيد..

تتقدم من الكوخ، ثم تمد يدها البيضاء الرقيقة إلى الباب، وتفتحه، وتدخل.. تدخل أنت وراءها.. عبق ريحها يمر على أنفك كالنسيم، فتشعر وكأنك تخطو إلى داخل الجنة.. ريحها تملك حواسك، وتستولي على كيانك، فلا تدع مكانًا لأي شيء آخر.

تغلق الباب خلفك.. تلتفت إليها.. تقف أمامك مستندة إلى جدار الكوخ في دلال، فتبدو وكأنما هي تبعث نورها ليضيء المكان كله.. تنظر إلى شفتيها.. ناضجة وطازجة كثمار عدن.. لابد أن آدم طرد من النعيم لأن الثمرة التي اشتهاها كانت تشبه تلك التي أسفل أنفها الدقيق.

تقترب منها..

تقترب منها في بطء، وتنظر هي إليك في إغراء يجعل الدم يجري في عروقك من جديد.

تقترب منها في بطء..

ولكن.. ما هذا بالضبط؟؟

***

- ٤ -

تنظر إلى ما هو أمامك، على مرمى الأفق..

يلوح لك البيت من بعيد..

تجري إليه بخطوات لاهثة..

تدخل إلى الداخل.. أخيرًا..

تسترد أنفاسك.. تسيطر على ضربات قلبك الذي يوشك على القفز من مكانه..

يدوي صوت والدك..

.«انت كنت فين؟؟»

لا ترد.. تلتقط أنفاسك..

.«كنت فين يا (جمال)؟؟»

صوت والدتك..

تحاول السيطرة على أنفاسك.. تكبح جماح الدموع التي تريد التحرر من عينيك.. لا تفلح.. تتساقط الدموع على عينيك في صمت..

صوت جدتك.. .«انت بتعيط!؟؟ مالك فيه إيه يابني؟؟»

.«مفيش حاجة»

***

(الجزء القادم من مذكرات (مصطفى) صديق (جمال)..)

من أنا؟؟

من أنا حقًا؟؟

لا أدري من أنا، أو ما الذي يحدث لي..

لا شيء يبدو طبيعيًا كما كان منذ أن نفذت تلك الوصفة..

ذلك الشعور الغريب.. هل تعرف شعور القوة التي تعطيك إحساسًا بأنك تقدر على قهر العالم بأكمله؟؟ قوة نفسية رهيبة.. لا أحد يقدر على النظر في عينيك لخمس ثوانيَ متتالية.

تشعر بأنك أقوى من الموت.. أنت الموت ذاته..

ومع كل ذلك، شعور بالاختناق يجثم عليك.. كأن أحدًا ما يقف على صدرك، ولا يعطيك مجالًا لتتنفس.

هذا في البداية فقط.. تلاشى ذلك الشعور مع الوقت..

تغييرات كثيرة ألاحظها الآن، ولا أقدر على تفسيرها..

منذ متى تحضر لي أختي الطعام عندما أطلبه، وبدون نقاش!؟؟

لم يكن جزائي لو طلبته منها من قبل سوى الصراخ والاستنكار.

والدي يعطيني المصروف وقتما أطلبه.. أكثر مما اعتاد من قبل.. هذا ليس طبيعيًا.

ثم منذ متى تقوم والدتي بكي ملابسي، ووضعها على السرير بدون أن أطلب ذلك حتى!؟؟

لا يمكن أن يكون هذا طبيعيًا..

حتى أنا.. أنا نفسي أشعر بأنني أتغير، ولا أدري لذلك سببًا..

بداية من عادة غلق باب الغرفة علي، والنوم بالساعات، وهو ما لم أعتده أبدًا من قبل، وانتهاء بالكوابيس.

كوابيس مريعة.. ولكنني أحب رؤيتها، ولا أدري كيف، برغم أن مرآها يشعرني بأن روحي تنسحب من جسدي.

لم يعد الكلام مما أستسيغه، وصار الناس شيئًا بعيدًا.. غريبًا، وغير حقيقي.

لا طعام.. لا شراب إلا عند الضرورة.. ثم موضوع المرآة هذا..

أنظر في المرآة في أي مكان، وعلى أي وضع، ودائمًا ذلك الخيال الباهت خلفي، يتابعني أينما ذهبت.. خيال لا تراه إلا بالكاد وبصعوبة بالغة.. خيال يشعرك مرآه بشعور مقبض.

ما الذي يحدث لي؟؟

***

(الجزء القادم من مذكرات (جمال) التي يحكي فيها عن الكوابيس التي كانت تطارده كل يوم..)

لا أدري ماذا أقول..

هل حدث لأحد يومًا أن حلم حلمًا يتذكره بعدها بكل تفاصيله؟؟ وكأنها ذكرى، وليست حلمًا.

لا أدري إن كان هذا شائعًا، ولكن ما أعرفه هو أنه ليس طبيعيًا..

استيقظت الآن من ذلك الكابوس وأنا أرتجف، وليس من عادتي أبدًا أن أكتب مذكراتي، ولكنني أعتقد أنني بتلك الطريقة لن أنسى تلك الأحلام أبدًا، وسأستطيع تفسيرها مع مرور الوقت.

ما الذي مررت به هذه المرة؟؟

بمجرد أن أغلقت عيني فتحتها في داخل الحلم على كارثة..

لا أدري ما الذي كان يحدث بالضبط، ولكن ما ميزته مما رأيته هو أنه كانت هناك مجاعة بشكل ما، ولا أحد يجد طعامًا.. الكل يقتتل في الشوارع على لقمة أو شربة ماء.. ثورة جياع.. حرب أهلية.. سمها ما تسمها، ولكن المهم أن الناس كانت تقتل بعضها في الشوارع، وكأننا في ساحة حرب.

أصوات صرخات، ودماء، وأناس تجري في كل مكان.

والدخان الذي يعمي عينيك.. حرائق، وصوت طلقات رصاص من بعيد.

أنا أجري.. أجري وسط الناس، هربًا من العصابات التي تحتل الشوارع، وتقتل من تراه بلا تفاهم.. لماذا تقتله؟؟

لتتغذى على لحمه طبعًا.. رأيت هذا المشهد مرات عديدة.. صحيح أنه لا طعام هناك، ولكن هناك بشر.. وحيث وجد البشر وجد الطعام.. أنت تفهم ما أرمي إليه.

الحلم طويل.. طويل بمعنى الكلمة.. لدرجه أنني أشعر أنني عشت أيامًا كاملة فيه.

أجري في كل مكان، وأقضي الوقت مختبئًا ما بين أسطح المنازل، والسراديب، والأنفاق، وساحات القمامة، والجوامع.

وبعد؟؟ كنت أجري، حتى قابلت ثلاثًا من أصدقائي.. فتاتان، وولد بالتحديد.

خائفين من كل شيء، لدرجة أنهم فزعوا لرؤيتي، وظنوا أنني قادم لقتلهم، أو سرقتهم أيضًا.

نجري معًا هاربين من كل شيء، ووسط الجري نجد أحد الناس يوزع أجولة الدقيق في قلب الشارع.. يلقيها إلقاء في عرض الطريق، والناس تتقاتل عليها بالسلاح الأبيض.

وجدت جوالًا أمامي، فسحبته أنا وصديقي، وحملناه، وجرينا به إلى البيت نحن الأربعة.

بمجرد أن دخلت إلى المنزل، وجدت أبي يرحب بأصدقائي.. برغم أنه لم يرهم أبدًا من قبل، ولا يعرف حتى أسماءهم.

ثم التفت إلي قائلًا:

.«إيه اللي انت جايبه ده يا (جمال)؟؟»

وضعت الجوال على الأرض في الركن، وأنا أقول:

.«يا حاج ده دقيق عشان ناكل»

.«يابني سيبك من الكلام الفاضي ده.. مش الدقيق هو اللي هينقذنا»

نظرت له في تساؤل، وهو يتابع:

.«ده اللي هينقذنا»

وأشار بيده إلى إحدى الغرف..

اتجهت إليها في حيرة لأبحث.. في كل مكان..

أبحث.. أبحث..

أبحث داخل خزانة الملابس، وتحت الأسرة وخلف المكتب.. لا شيء..

تعبت من البحث أخيرًا، فجلست على الأرض لا أدري ماذا أفعل.. واستندت إلى الحائط خلفي، فلمس رأسي شيء ما.. شيء صلب ومعدني.

التفتت إليه، لأجده مقبض باب.. ما هذا الباب!؟ وما الذي يفعله هنا!؟ لم يكن موجودًا في الغرفة من قبل لو كان هذا ما تظنون.. لقد جاء من الهواء حرفيًا.

نهضت من مجلسي، ومددت يدي إلى المقبض البارد لأفتحه في توجس.

صوت الصرير المميز..

انفتح الباب أمامي عن سرداب.. نفق صخري طويل وضيق، بحيث لا يمكنك أن تدخله واقفًا، بل لابد أن تزحف.

إذًا فلتزحف..

انحنيت لأزحف على أيدي وأقدامي..

أزحف.. النفق طويل.. طويل أكثر من اللازم..

طويييييييل..

دود وصراصير وفئران حولك في كل مكان، وتتساقط عليك من الجدران والسقف.

واصلت الزحف، وقد بدأت رهبة الأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا Claustrophobia) في التشكل بداخلي.

ببطء أشعر أنني حبيس هنا في هذا المكان الضيق، بلا أدنى أمل في الخروج.

وعندها سمعت ذلك الصوت من خلفي..

صوت صراخ، وشتائم، وأصوات حلقية وأنفية، وأصوات أجسام تزحف على الأرض، ومعادن ترتطم بجدران النفق.

نظرت إلى الخلف لأجدهم.. نفس العصابات الذين يأكلون المارة في الأعلى.. خلفي.. في هذا النفق الضيق.

تسارعت دقات قلبي إلى الحد الأقصى، وشعرت أنه يوشك على القفز من مكانه، وتدفق الأدرينالين إلى دمي، وأنا أزحف بأقصى سرعة أقدر عليها.. ولكنهم يقتربون.. إنهم أطول وأسرع، وأكثر كفاءة في الزحف.

يقتربون بسرعة مخيفة..

أزحف أكثر، حتى تصطدم يدي بشيء ما.. شيء ورقي..

التقطته بلا تفكير، ونظرت إليه.. شيء مضيء.. ساطع لدرجة تحرق عينيك، وتضطر أن تضيقهما، حتى تستطيع النظر إليه.. ولكنهم لا يدعونك.

أمسك أحدهم بقدمي اليمنى، وأخذ يجذبني إلى الخلف..

حاولت أن أتحرر منه، وأنا أركل يده في عنف، وفي نفس اللحظة ميزت أخيرًا ما الذي أحمله.

إنه القرآن الكريم..

بمجرد أن ميزت ما هو، بدأت جدران النفق في التباعد، وترك ذلك الشخص قدمي، وتحررت.. أخيرًا.

نهضت من وضعي لأركض بأقصى سرعة..

أركض.. أركض بلا تفكير.. أركض، وقلبي يوشك على التوقف رعبًا، وأنفاسي تحتبس في صدري، لا أقدر على إخراجها.. أوشك على الموت اختناقًا.

يلوح ضوء في آخر النفق.. أقترب منه في سرعة..

ضوء نفس الغرفة التي خرجت منها..

دخلتها، وأغلقت الباب خلفي، وأنا ألهث في عنف، لأسمع صوت والدي من خلفي:

.«أيوة هو ده.. الله ينور عليك»

التفتت إليه وأنا ألهث، بينما تابع هو كلامه:

.«بس.. يلا اصحى»

واستيقظت..

العرق يغمر ملابسي .. حلقي جاف كالخشب، وقلبي يخفق بعنف لم أشهد له مثيلًا.

ما الذي يحدث لي بالضبط؟؟

لا أعرف.. ولكنني أشعر أن حدثًا ما قادم.. حدث جلل سيحدث، وشيء ما يحاول تحذيري منه.

أنا خائف..

***

(الجزء القادم من مذكرات (عمر) أخو (جمال) الأصغر..)

لم أعد أعرف ما الذي يفعله (جمال) بالضبط..

كلما أراه.. في أي وقت.. جالس هو يطالع كتابًا ما، ويواريه داخل كتاب مدرسي، ويخبئه مني عندما أراه.

لم يعد يريدني أن أجلس في الغرفة معه حتى، برغم أننا كنا لا نفعل شيئًا إلا معًا.

لم يعد يكلمني.. لم يعد يحكي لي شيئًا.. حتى المزاح، لم أعد أراه يبتسم حتى.. تلك النظرة التي في عينيه.. نظرة تجعلني أقسم أنه شخص آخر.

أبسط شيء يمكنني تذكره.. جهاز الكمبيوتر.. إنه يعشقه بالمعنى الحرفي للكلمة، ويجلس عليه بالساعات.. لم يعد يقترب منه.. بل صرت أستخدمه أنا أكثر مما يستخدمه هو.. وهذا.. صدقوني.. شيء خارق، وغير معتاد.

وعندما أبيت في الغرفة وحدي، ولا يكون هو فيها.. تلك أكثر أيام حياتي ظلمة وحلكة.

أشياء غير طبيعية تحدث.. إحساس الاختناق هذا وأنا نائم.. كأن شخصًا ما يجلس على صدري، وينزع مني كل قدرة على التنفس.. دعك طبعًا من الأحلام.. الكوابيس للدقة.

كوابيس لم أر مثلها في حياتي.. كوابيس لا أستطيع الاستيقاظ منها.. وعندما أستيقظ، لا أستطيع الحراك.. وكأنني تائه بين الحقيقة والخيال.. حتى الصراخ لا يجدي، لأنه لا صوت هنالك.

أخبر والديّ؟؟ يمكنني هذا بالطبع.. ولكنني لا أريدهم أن يؤذوه أو يعاقبوه.. إنه أخي قبل كل شيء، وأنا أحبه.

ولكنني أشعر أنه يتغير.. في الواقع، تراودني في لحظات فكرة أنه لم يعد هو..

إنه شخص آخر تمامًا..

***

- ٢ -

مرحبًا بكم من جديد.. قد عدت أنا.. (جمال).. إليكم..

تركتكم في الفصل السابق مع مذكرات (مصطفى) و(عمر) ومذكراتي أنا.. حتى تستطيعوا تكوين نظرة متكاملة على الوضع والموقف في تلك الفترة.

كما ترون..

لم أعد أنا.. شخص آخر يحتل تفكيري وجسدي.. لا أحد يطيقني.. لا أحد يحب مجالستي.. شعور عدم الارتياح لا يفارقني، ودومًا أشعر أن أحدًا يراقبني في كل مكان.

بالإضافة إلى أن جل ما كان يشغل تفكيري وقتها هو ذلك العجوز الذي قابلته عندما ضعت في المقابر.

ما الذي كان يقصده بأنني أسلك الطريق الخاطئ؟؟ هل كان يعرفني؟؟ وموضوع إشارته للطريق الذي تهت فيه باليد اليسرى، والطريق الذي أوصلني للبيت باليمنى.. هل هو صدفة حقًا؟؟

ما الذي كان يقصده؟؟ ما هو الطريق الخاطئ؟؟ هل التعمق في الدين والقرآن خاطئ؟؟ أنا أجري أبحاثًا لأتوصل إلى سر حروف القرآن.. ما الخطأ في ذلك؟؟

لا أعرف..

حيرة تامة استولت عليّ في تلك الفترة، حتى واتتني فكرة أن أصلي صلاة استخارة، وأرى ماذا سأفعل بالكتاب.

فعلًا صليت، واكتشفت أنني لم أكن أصلي منذ فترة طويلة جدًا، فتركت الكتاب تمامًا، وواظبت على الصلاة، ولم أعد أقرأ فيه.

ولكنني لم أقدر على الابتعاد تمامًا.. كنت في بعض الأوقات أخرج الكتاب من بين حشايا السرير، لأنظر إليه في صمت، ثم أضعه مكانه من جديد.. ولا تسألوني لماذا لأنني لا أعرف.. كأن شيئًا ما يحاول أن يدفعني للعودة إليه.

أخي ينظر لي نظرات لم أعهدها من قبل.. لم يعد يتعامل معي، وأشعر أنه يخاف مني ولا أدري لماذا.

(مصطفى) حتى لم يعد يتصل بي أو يقابلني كثيرًا.. صار له عالم خاص به.

أمي تنظر لي نظرات عجيبة، كأنها مخبر ينظر إلى بلطجي يشرب سيجارة الحشيش الثانية.. تنتظرني أن أعترف.. أعترف بماذا؟؟ لا أدري، ولكنها تنتظر.

أجسر على القول بأن تلك المرحلة كانت أصعب مرحلة مرت بي في حياتي.

لم يعد أحد يطيقني.. كل من أحب في حياتي يتحاشاني، ويبتعد عني.

غرفتي أصبحت شديدة الكآبة لدرجة تجعل قلبك ينقبض عندما تراها، حتى قبل أن تدخلها.

وبرغم ذلك، لم أكن أخرج منها إلا للضرورة القصوى..

الأغرب من كل ذلك، هو موضوع الأحلام.. أحلام لا تأتيني إلا عندما أكون وحيدًا.. حتى وأنا مستيقظ.

أحلام قادرة على إصابتك بالجنون ببساطة..

في مرة أنا واقف تحت الهرم الأكبر، وحجارته تتفكك، وتسقط عليّ وأنا أجري.

في مرة أخرى أنا أقف وسط كارثة كونية، وتتساقط عليّ الشهب والنيازك، وأنا أجري من بينها أيضًا.

في كل مرة أنا أجري..

في كل وقت أنا مطارَد..

حتى وأنا مستيقظ، كانت الكوابيس تؤرقني، تمامًا كما قال (مصطفى)..

في أحد الأيام، حلمت بتلك الجميلة التي أتبعها عبر طريق طويل تحفه الأشجار إلى كوخ وسط الريف، ودخلته خلفها لأنفرد بها، فتحولت إلى شيء أسود غريب الشكل ما أن وضع يده علي حتى أصبت بالشلل التام..

أصرخ بلا صوت.. لا طاقة أحرك بها يدي.. شلل تام..

ودائمًا الاستيقاظ.. دائمًا العرق واللهاث، كأنني كنت أجري فعلًا..

دائمًا الرموز..

خذ عندك على سبيل المثال ذلك الحلم..

***

تدير عينيك فيما حولك..

جامع جميل ونظيف، يجلس فيه المصلين ينتظرون صعود الإمام إلى المنبر..

ومن بين الناس، تعبر هي بخطوات رشيقة، لترتقي درجات المنبر.. ترتدي عمامة تشبه تلك التي يرتديها الشيوخ..

هي!!؟؟ الإمام هو امرأة!!؟؟

كيف؟؟

لا أحد حولك يستنكر الأمر، بل ينهضون جميعًا للصلاة خلفها..

تقيم الصلاة..

(الله أكبر)

تبدأ الصلاة..

جميعهم يصلون، فهل ستقف ساكنًا؟؟ كلا بالطبع..

إذًا فلتصلي..

(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)

تنتهي الصلاة.. تشير هي إليك أن تعال..

تتجه إليها في خطوات متثاقلة..

.«اسمك إيه؟؟»

.«(جمال)»

تنظر إليك في دلال.. شكلها يبدو مألوفًا بشكل ما.. إنها جميلة إلى حد غير طبيعي، ولكنك لا تميز جمالها بوضوح، بسبب زي الإمام الواسع الذي ترتديه، دعك طبعًا من العمامة.

.«بص يا (جمال)»

وأشارت بيدها إلى المصلين الجالسين..

.«دول كلهم تابعين ليا.. مش عايز تبقى زيهم، وهتاخد كل حاجة؟؟»

تنظر إليها في حيرة..

.«كل حاجة زي إيه؟؟»

.«زي ده مثلًا»

وتشير بيدها لأحد الجالسين، فينهض ليحضر جوالًا ضخمًا، يلقيه أمامك ليتمزق، وتتدفق منه أنهار من العملة والنقود.

تنظر له في ذهول، وهي تقول:

.«تبقى تابع هتاخد كل حاجة، وأكتر من كده كمان»

تلتقط الجوال، وتمسكه بين يديك في قوة قائلًا:

.«يعني عايزة مني إيه بالظبط؟؟»

.«ولا حاجة»

تنظر إلى عينيك مباشرة..

.«عايزاك تبقى تابع ليا»

تنظر إلى عينيها الجميلتين.. تشعر بأنها تنومك مغناطيسيًا، كأعين القطط..

تحاول أن تبعد عينك عنها لتنظر من نافذة الجامع..

ما الذي يحدث؟؟

أناس تجري في كل مكان، وكأن أسدًا يطاردهم..

فجأة، ينفتح الباب بقوة، ويدخل أحد هؤلاء التابعين قائلًا:

.«الوباء انتشر في القرية.. الناس بتفرفر برة، وكله بينفد بجلده»

تنظر هي إليه في هدوء..

.«اقفلوا علينا أبواب الجامع، مش هيحصلنا أي حاجة»

ثم أردفت في ثبات:

.«إحنا مع الله»

تتوجس خيفة..

لا تدري لماذا، ولكنك تشعر بأن هناك شيئًا ما شيطاني يتعلق بها، على الرغم من أنها تتكلم باسم الدين.

.«مش هتدخَّلي الناس تنقذيهم من اللي بيحصل برة؟؟»

تنظر إليك في سخرية، ولا ترد.. فلا تدري أنت ماذا تفعل..

تتصرف بلا منطقية الأحلام، ولكن تشعر في نفس الوقت أن هذه حقيقة لا شك فيها.

تلتقط جوال النقود، ثم تتجه إلى باب الجامع، وتفتحه لتخرج.

المشهد بالخارج يثير فزعك.

أناس تجري وزحام رهيب.. بعضهم يسقط تحت الأقدام، فينسحق بلا رحمة.

البعض الآخر يركب الدراجات البخارية، فيمسكه البعض، ويقتله طعنًا، ليسرق الدراجة، ويهرب بها.

دماء، وصراخ، وشجار، ولكمات..

حرائق، ودخان، وأسلحة في كل مكان..

لا تدري ماذا تفعل.. تجري في الاتجاه الذي تجري فيه الناس، ومعك الجوال.. لا أحد ينتبه إليه حتى مع هول الموقف.

تجري، وتجري بلا توقف، حتى تصل إلى ترعة..

كيف ستعبر؟؟ تلتفت خلفك، فتجد أفواجًا قادمة من الناس..

تتنحى عن الطريق بسرعة، وتشاهدهم يقفزون في داخلها ليغرقوا.. ومن لا يريد القفز كان يُدفع، ليسقط أرضًا، ويموت سحقًا بالأقدام..

ماذا تفعل؟؟ الرعب يستولي على كل ذرة من كيانك..

قلبك يخفق بعنف لا مثيل له..

وسط كل هذا، ومن خلفك تعبر تلك الشاحنة الصغيرة.. تشعر بأنها خلاصك.. هذه هي الوسيلة التي ستخرجك من هنا.

تقفز أمامها، لترغم السائق على التوقف..

ترفع الجوال أمامه..

.«أنا معايا شوال فلوس، هديهولك كله، بس خرجني من البلد الموبوءة دي»

ينظر لك لحظة، ثم يقول:

.«لأ.. أنا مش هاخد الشوال كله.. أنا هاخد بس نصه»

تحدق فيه في دهشة..

.«انت قنوع أوي.. أومال النص التاني هتسيبه!؟»

.«لأ.. أنا عايزك تنط ورا في العربية وتحدف النص التاني على الناس الأغبياء دي؛ عشان يوسعوا الطريق، ونعرف نعدي أنا وانت»

لامنطقية الأحلام..

تنظر إلى الجموع المتجهة نحوكما.. جماهير قادمة تعدك بالدهس تحت الأقدام.

.«ماشي»

تقفز إلى الشاحنة.. تمزق الجوال.. تلقي النقود من الشاحنة..

الناس كالمسعورين يقفزون خلف النقود، ليجمعوها ويدهسهم الآخرون القادمون من خلفهم، فقط ليكتشفوا أن هناك أحمقًا ما يرمي بالنقود، فيقفزون خلفها بدورهم، ليدهسهم الآخرون.. وهكذا..

الشاحنة تعبر وسط جموع الناس..

الطريق يتسع..

الناس تفسح الطريق..

يتصبب العرق من جبينك، ليلقي بقطراته على معدن الشاحنة وعلى النقود.

الطريق يتسع أكثر..

تدخل الطريق السريع..

أنتم الآن رسميًا خارج القرية..

يطلق السائق العنان للمحرك، فيتعالى صوته، وتندفع السيارة إلى الأمام.

ويرتفع بك المشهد إلى الأعلى..

تراقب جموع الناس التي تمزق بعضها خلفك، وتندهس تحت الأقدام، في محاولة يائسة للخروج من القرية.

وهناك.. في الأفق..

تلك الشاحنة تبتعد.. وتبتعد..

حتى تغيب عن ناظرك تمامًا..

***

(نهايه الحلقة السادسة)

(الحلقة السابعة)

ملاك وشيطان

A Devil and an Angel

أحلام دائمًا..

أحلام في كل وقت، وكل وضع ومكان..

حكيت لكم في المرة السابقة عن الأحلام التي أصبحت تطاردني بلا هوادة، وطبعًا كما لابد أنكم خمنتم، أثار هذا رعبًا شديدًا في نفسي.. شيء ما في داخلي يتغير.. شيء ما على وشك الحدوث.. شيء مرعب غالبًا.

لماذا؟؟ كيف لا يكون مرعبًا وأنا أشعر بتلك القشعريرة التي تسري في ظهري دائمًا؟؟

حياتي كلها تتغير.. الناس الذين أحبهم وأعتز بهم، يتغيرون في معاملتهم لي.. إنني أصبح وحيدًا.. منبوذًا.

مضت أجازة الصيف كلها على هذا المنوال.. وطبعًا، بعد كل ذلك.. لم أعد أحب رؤية عمي (صلاح) كما كان الحال من قبل.. كنت أشعر أنه المسؤول عن كل ما يحدث لي بشكل أو بآخر.. أنتم تعرفون ذلك الشعور.. تحدث لك مصيبة ما تشعرك بالذنب، فتلقي باللوم كله على شيء آخر أو شخص آخر.. وغالبًا لا يكون هو السبب الحقيقي.

نفس الوضع هنا بالضبط..

أقول، مرت فترة أجازة الصيف كلها على ذلك الحال، ثم جاءت المدارس من جديد.. دراسة، واستيقاظ مبكر، واستذكار ودروس من جديد.. عاد الملل من جديد.

علاقتي بـ(مصطفى) توطدت بعدها من جديد، وأصبحنا نرى بعضنا كل يوم كما كان الحال من قبل.. ولاحظت وقتها أن (مصطفى) قد عاد لسابق عهده.. مرحًا ضاحكًا كما كان.. وأجسر على القول بأن

ذلك أثَّر فيّ أنا، ورفع من حالتي النفسية، فأصبحت أضحك أكثر ولم أعد أشعر بالاكتئاب طوال الوقت.. وقلت الكوابيس أيضًا.. لم تنتهِ، بل قلت.. وهذا مازال شيئًا حميدًا؛ نظرًا إلى كمية الكوابيس التي كانت تزورني كل يوم عندما كنت وحيدًا.

عرفت بعدها أن (مصطفى) تعرف على صديق يسكن في حيه، اسمه (روبي).. كان شابًا في مثل سننا تقريبًا.. وكان من عائلة ثرية ثراء عجيبًا.

كيف؟؟ لأن ثراءهم كان من تجارة الكلاب..

شيء غريب طبعًا، ولا تراه كل يوم.. كانت عائلة (روبي) هذا من أشهر تجار الكلاب في القاهرة، وكانوا يملكون بيتًا كاملًا خصصوا سطحه لتربية الكلاب.. كان لديهم نظامًا خاصًا لتربيتهم، وطريقة خاصة للمأكل، والمشرب، واللعب.

كان –على لسانه– هناك ما يدعى بلغة الكلاب.. ولغة الكلاب (يسمونها الحروف) هي سبب تفضيل كلب على كلب آخر.. مقدار معرفة الكلب للحروف، وطاعته لها.

أسمعكم تتساءلون، أي حروف؟

الحروف هنا تعني الأوامر.. مثلا يأمر صاحب الكلب ذلك الأخير بأن يجلس، فيجلس.. ويأمره بأن يقفز، فيقفز.. وهكذا.. تنفيذ الكلب للأمر يعني أنه قد تعلم حرفًا جديدًا.. وكلما تعلم حروفًا أكثر، كلما زادت قيمته وثمنه عند البيع.

تجارة كاملة كما ترون، وقد كان (روبي) وعائلته شديدي البراعة فيها.

توطدت صداقتي أنا و(مصطفى) وقتها بـ(روبي)، وصرنا نخرج ونجيء معًا.. وبدأ يأخذنا معه إلى سوق الجمعة، وهو يبيع كلابه.

كان مهمًا جدًا، وكانت له مكانة ونفوذًا خاصًا هناك؛ فبمجرد ما كان يدخل إلى السوق، كانت الناس تلتف حوله، لعلمهم بأن كلابه مدربه جيدًا، وذات صحة رائعة.. كان يوشك على التحول إلى علامة تجارية كمرسيدس وفيراري.. كلاب (روبي) المدربة.. اسمه واسم عائلته بمثابة شهادة ضمان.

كاد الأمر يستمر، ويمر على خير. لولا ما كان يحدث عندما أكون أنا و(مصطفى) معه في سوق الجمعة.

يريد (روبي) استعراض مهارات الكلب ليبيعه، فيبدأ في إعطائه الأوامر.. ولا شيء..

لا شيء على الإطلاق..

ينام الكلب على الأرض كالبط، ولا يفعل أي شيء، ولا يلبي أي أوامر، لدرجة أن الناس بدؤوا يعتقدون جديًا أن (روبي) نصاب، وأن سمعة عائلته، وطرقهم في التدريب ما هي إلا مزحة.. والدليل أمامهم.. وليس كلبًا واحدًا.. كل الكلاب تقريبًا.

الغريب في الأمر أن الكلاب كانت تتصرف بحرفية تليق بسمعتهم، فقط عندما لا أكون أنا و(مصطفى) موجودين.. ولم يلحظ (روبي) هذا إلا بعد فترة.. في البدء كان يظن أن الأمر لا يتعدى كوننا شؤمًا، مما كان يجعله يتناسى الأمر، لأنه لم يكن يؤمن بمثل تلك الأشياء، ومع مرور الوقت، وتكرر الظاهرة.. بدأ يدرك أن الأمر يتعدى حدود الشؤم والصدفة.

ماذا يفعل إذا؟؟ بالطبع.. بدأ يصمم التجارب..

أصبح يأخذني أنا وحدي في البداية، ويراقب سلوك الكلب، فيتصرف هذا الأخير كخادم إنجليزي.. ينفذ كل ما يطلب منه، بلا مناقشة، وكأنه كلب بوليسي أسطوري.. كأنه يفهم.

بعد ما تأكد أنني (نظيف) وأنه لا خطر مني، أصبح يأخذ (مصطفى) وحده.. وطبعًا أنتم تتخيلون ما حدث.

يعتري الكلب غباء وتراخٍ مفاجئ يقترب من درجة الخوف.. لا ينفذ شيئًا واحدًا يطلب منه، ولا يفعل شيئًا سوى الجلوس على الأرض، والتحديق في الشمس حتى يصاب بالعمى.. بطة.. مجرد بطة لزجة كسول.

لم يصدق (روبي) في البداية.. افترض أن الموضوع صدفة، وقرر أن يكرر التجربة أكثر من مرة، كأي تجربة علمية.. كان يريد أن يتأكد أنها قابلة للملاحظة، والتجريب، والتكرار.. كان الوغد يتمتع بعقلية عالم فيزياء.

كرر الأمر أكثر من مرة، حتى لم يعد هناك مجال للصدفة.. هناك شيء غامض يحيط بـ(مصطفى).. غامض ويجسر على الاعتقاد بأنه مخيف كذلك.. ماذا سيفعل؟؟ لا يستطيع التفكير.

وتمر الأيام حتى يحدث هذا الموقف..

***

حدق معي في ذلك المشهد الذي تراه أمامك..

خمسة شباب يقفون في الشارع بجوار المدرسة ويتحدثون.. وأحدهم يمسك بسلسلة كلب من نوع الراعي الألماني يقف بجواره..

.«عامل إيه يابني.. إيه الأخبار؟؟»

نطقتها مخاطبًا (روبي) وأنا ابتسم، فرد الأخير، وهو يداعب سلسلة الكلب في زهو:

.«تمام الحمد لله.. انتو إيه الأخبار؟؟»

رد (مصطفى):

.«كويسين.. مين الكلب ده؟؟»

نظر لنا (روبي)، وهو يقول فخورًا:

.«ده (عجينة)»

ضحك واحد من أصدقائنا الواقفين بصوت عال، بينما قال آخر وهو يضحك:

.«(عجينة)!؟؟»

.«آه»

نظر لنا (روبي) مبتسمًا، فكتمت أنا ضحكتي، وأنا أقول:

.«اشمعنى (عجينة) يعني؟؟ مش ملاحظ إنه اسمه عجيب شوية؟؟»

ضحك وهو يقول:

.«يا عم عادي.. أنا مش بندهله بيه كتير يعني، بس بحب أطلّع عليهم أسامي تضحّك.. ده أنا حتى كان عندي قطة زمان كنت مسميها (رأفت).. برغم إنها قطة مش قط»

لم أقدر على التماسك أكثر من هذا، فانفجرت ضاحكًا، وقال (مصطفى) وهو يغالب ضحكه:

.«انت سفاح يابني والله»

لم يرد (روبي)، وداعب عنق الكلب في قوة، فقال أحد الشباب الواقفين:

.«طب إيه.. مش هنلعب؟؟ أنا جايب الكورة معايا من البيت يعني»

وأخرج الكرة من حقيبة ظهره، ومررها إلي، فوضعت قدمي فوقها، وقلت:

.«أكيد هنلعب طبعًا.. بصوا أنا بقول هنلعب واحد وتلاتين.. مين هينزل ف النص؟؟»

أخذوا ينظرون لبعضهم مبتسمين، ولا أحد يتكلم، وكلهم يتظاهر بأنه اكتشف فجأة أن له ذقن، أو أظافر يد.

قال (روبي) فجأة:

.«بقولكو إيه.. (عجينة) اللي هينزل ف النص»

نظرنا له جميعًا في دهشة، وقال (مصطفى):

.«إزاي يعني!؟ هو بيلعب كورة!؟»

.«عيب عليك.. مش بيلعب كورة، بس هيعرف يقطعها منكوا»

ابتسمنا جميعًا في جذل، بينما قلت أنا:

.«طب يلا»

ومررت الكرة إليه، فترك سلسلة (عجينة)، وهو يقول:

.«(عجينة)، يلا اقطعها»

ومرر الكرة بسرعة إلى أحد الشباب، فانطلق الكلب خلفها.. تفاجأ الشاب بسرعة الكلب، فمررها بسرعة إلى شاب آخر، وهو يضحك، ومررها الشاب الآخر بدوره إلى (مصطفى).. وما إن تلقى (مصطفى) الكرة تحت قدمه حتى توقف الكلب فجأة.

.«فيه إيه!؟ هو وقف ليه!؟»

نظرت لـ(روبي) وأنا أتكلم في حيرة، فلم يعرني انتباهًا، وهو يراقب الكلب في دهشة:

.«(عجينة)، هات الكورة منه»

لم يتحرك الكلب من مكانه، وأخذ يتشاغل بلعق قدمه..

.«واضح إنه كلب حريف فعلًا»

قالها أحد الشباب في سخرية، فمرر (مصطفى) الكرة إلي، ومررتها أنا بدوري إلى (روبي) الذي تعمد أن يمررها من جديد إلى (مصطفى)، ليتكرر نفس المشهد.. يقف الكلب ساكنًا، ولا يقترب من (مصطفى) كأنه يعض.

.«هو في إيه!؟ ماله!؟»

قالها (مصطفى) في حيرة، فنظر له (روبي) في غيظ..

.«مش عارف ماله يا بوز النحس.. أنا همشي يا عم.. سلام»

وجذب الكلب من سلسلته خلفه..

.«يلا يا (عجينة)»

تحرك الكلب خلفه في خنوع، كخروف صغير، بينما نظرت له أنا في صمت.

يبتعد أمام مرمى بصري، والكلب خلفه..

أدرت بصري إلى (مصطفى)، فوجدته يبتسم..

وما إن لاحظ نظرتي حتى أدار وجهه لي، وغمز بعينه عابثًا..

برغم أنه كان يمزح بالتأكيد، إلا أن تلك الغمزة أثارت رهبة غير مبررة في نفسي.

لماذا يتوقف الكلب، ويبتعد عنه كأنه الشيطان!؟

هل الكلاب تخاف من البشر!؟

كلا بالطبع.. بل العكس هو الصحيح..

إذا مما تخاف الكلاب؟؟

نظرت لـ(مصطفى)، والسؤال يتردد في عقلي..

ولم أجرؤ على الإجابة..

***

أنظر له في صمت..

ينظر لي في زهو..

.«أنا شايف إن الطريقة اللي اديتهالك نفعت معاك ومابقيتش متضايق»

.«آه.. أكيد لاحظت.. أنا كنت مستنيك تكلمني في الموضوع»

أنظر له في دهشة..

.«انت فرحان بنفسك كده ليه!!؟ مبسوط إن الناس بتخاف منك!!؟ الحيوانات كمان»

.«أكيد يعني.. أنا حياتي كلها بقت أجمد أساسًا.. الناس ببصلها بس تنفذلي اللي أنا عايزه.. شخصيتي بقت حاجة قوية جدًا.. إيه اللي مش هيفرحني!؟»

أنظر له في صمت..

لا أدري ماذا أقول.. الأحمق فخور جدًا بنفسه، كأنه أصبح رئيس الولايات المتحدة، ولا يدرك مدى خطورة الذي يحدث.

تكلمت أخيرًا..

.«بص.. أنا حاسس إن السكة اللي إحنا ماشيين فيها دي بجد غلط.. وفيه حاجات مش مظبوطة بتحصل.. أنا بصراحة مش ناوي أكمل في السكة دي»

لم يتكلم، فتابعت:

.«كمان إحنا بعدنا عن هدفنا الرئيسي كتير.. فاكر الهدف؟؟ نعرف سر حروف القرآن؟؟ بعدنا عنه كتير، ودخلنا ف سكك مهببة ومنيلة بنيلة»

نظر لي نظرة غريبة.. نظرة جعلت قلبي يرتجف، وكأن رياحًا باردة هبت عليه..

.«ما أنا ماحكيتلكش»

.«ماحكيتليش إيه؟؟»

نفس النظرة الغريبة ينظرها إلي..

.«فيه حاجات تانية أنا اكتشفتها وعرفتها»

أنظر له..

وينظر لي..

ويتجسد الخوف، ليصبح سيد المشهد..

***

(هذه الفقرة من مذكرات والدة (جمال) ..)

(جمال)..

ابني.. فلذة كبدي الذي أخرجته للدنيا، وأعرف ما يفكر فيه، وما سينطقه قبل أن يتكلم.

(جمال).. ابني يتغير.. ولا أدري ماذا دهاه..

ربما أنا مصابة بالبارانويا.. ربما أنا أقلق أكثر من اللازم.. ربما أنا حمقاء ببساطة، ولكنني أعرف في قرارة نفسي أنه لم يعد كما كان.. إذًا لماذا؟؟

لا أستحق لقب (أم) إذا لم أعرف ما الذي يحدث في حياته ليغيره بهذه الطريقة.

كلام (عمر) أخوه الأصغر غير مطمئن.. هل يكذب الفتى عندما يتكلم عن كل تلك الكوابيس التي تراوده؟؟ وتلك الأشياء العجيبة التي تحدث في البيت.. أشياء تختفي.. أشياء تظهر فجأة.

ذلك الوجود غير المريح الذي أشعر بتواجده معي في كل مكان أذهب إليه.

كأن شخصًا ما يراقبني كلما غفلت عيني، أو أدرت ظهري لشيء ما..

و(صلاح) أخو زوجي..

ما الذي يفعله مع (جمال)؟؟ ولماذا يقضيان الوقت معًا بالساعات؟؟

هناك شيء ما.. شيء لا أفهمه..

هل هي المخدرات؟؟ مخدرات مع عمه؟؟ كلا بالتأكيد..

لا أفهم..

حاولت كثيرًا أن أنصت لما يقولان.. أن أفهم..

أفتش خلف (جمال)..

أفتش غرفته.. بين ملابسه.. مكتبه.. سريره..

لا شيء..

الفضول يستولي على قلبي وعقلي.. لا أعرف ماذا أفعل.. إحساس بالعجز.. هذا شيء لا يمكنك معرفته بأن تقرأ كتابًا أو تسأل طبيبًا.. هذا شيء غامض ببساطة.. شيء لا يمكن تفسيره بطريقة طبيعية.

(صلاح) قادم الليلة..

لابد أن أعرف..

***

تقترب الكاميرا في بطء من ذلك المشهد الذي تراه يتشكل أمامك في بطء على الكادر.

(جمال) و(صلاح) يجلسان في غرفه الأول، ويتحدثان بصوت منخفض.

فيم يتحدثان؟؟

لا تميز الكلام من موقع الكاميرا هنا..

مازالا يتكلمان.. يبدو على وجهيهما أهمية ما يُقال..

(صلاح) يهدي لـ(جمال) أجندة زرقاء كبيرة..

يفتحها الأخير، وينظر فيها.. مازالا يتكلمان..

تلاحظ في طرف الكادر باب الغرفة الموارب.. موارب؟؟ كيف؟؟ ألم يكن مغلقًا في بداية المشهد؟؟

تقترب الكاميرا في بطء، لتعطيك نظرة على من يقف خلفه..

والدة (جمال).. تراقب المشهد متسللة.. ترى الأجندة و(جمال) يخبئها بين حشايا السرير بجوار الكتاب.

تقترب الكاميرا من عينيها التي تعلوها نظرة لا تستطيع سبر أغوارها.

ليس الظفر.. وليس الراحة.. بل هو الغموض.. والتوجس..

والخوف..

***

في أحد الأيام.. كنت أجلس مع عمي (صلاح) في الغرفة..

تعرفون أنني صرت لا أحبذ لقاءه إلى ذلك الحد بعد ما حدث لي، ولكن الفضول كان فوق أي خوف أو توجس.

دعونا من كل هذا.. المهم في الأمر، هو أنه في تلك المرة أعطاني أجندة زرقاء كبيرة، وقال لي بأنه اكتشف جديدًا في موضوع حروف القرآن.

مبدئيًا.. كانت وجهة نظره أن القرآن كما هو بنيان لغوي إعجازي، فإن فيه أيضًا بناء هندسي إعجازي.

بمعنى أن حروف القرآن مرتبة بشكل هندسي معين..

كلام غير مفهوم طبعًا.. ماذا كان يعني؟؟ ماذا فعل لكي يكتشف ذلك؟؟

ما فعله هو أنه عد عدد الحروف في كل سورة في القرآن.. مثلًا عدد حروف الألف في سورة البقرة هو كذا، وكذا، وكذا.. عدد حروف الباء في سورة الكهف هو كيت، وكيت، وكيت.. وهكذا.. حتى أنهى السور جميعًا بكل الحروف.

مجهود رهيب طبعًا.. كبير لدرجة لا تتخيلونها، لدرجة أنه أفنى فيه سنة كاملة، يعمل ويبحث فيه يوميًا بالساعات كالموظفين.. في زمن كان أقصى أحلام من يملك جهاز كمبيوتر فيه هو أن يشغل صورة من على قرص ضوئي.

أعطاني بعد ذلك كله تلك الأجندة السالف ذكرها.. تحوي كل ما توصل إليه حتى ذلك الوقت.

منه مثلًا أن عدد الحروف يتناسب طرديًا مع حروف أسماء السور المذكورة فيها.. بمعنى أن سورة يس مثلًا تحوي عدد حروف ياء وسين متناسبة مع بعضها بعلاقة هندسية ورياضية من نوع ما.. لم أفهم ما كان يقوله ويشرحه بالضبط.

كلام جميل.. جميل ومنطقي، ولكن ما فائدته؟؟ كلام يذكرك بالمعلومات الخفيفة، مثال: (نهر النيل أطول نهر في العالم)، و(جبل إفرست أعلى جبل في العالم).. معلومات مثيرة، ولكنها لا تفيدك في شيء، ولا تزيد من ثقافتك.. بالإضافة إلى أنه كلام عائم، ولا يخضع لمقياس محدد، ولا يمكن إخضاعه للتجريب والملاحظة والتكرار، كأي تجربة علمية.. كلام لا يمكنك إمساكه.. لا يمكنك أن تقول في يوم أنك اكتشفت شيئًا حقيقيًا.. كلها أرقام وعلاقات تتناسب مع بعضها بشكل ما غير واضح المعالم.

في نفس الوقت، لاحظت أن والدتي تبحث خلفي في صبر.. لا تكل ولا تمل.

تفتش أي مكان أدخله أكثر من دقيقتين، وتبحث في غرفتي وأنا نائم أو خارجها.. وتنظر لي نفس النظرات الغريبة التي تذكرني بنظرة مخبر ضبطك متلبسًا بجريمه قتل.

نظرة متأهبة.. مترقبة.. نظرة من نوع (أنا أعلم ما فعلته أيها الوغد الصغير، ولكنني لا أملك دليلًا، ويوم أن أجده سأجعل حياتك جحيمًا)

لعبة قط وفأر، كنا نلعبها أنا وهي يوميًا.

كل يوم أغير مكان الأجندة والكتاب في مكان لا تفكر هي في البحث فيه.

حتى جاء أحد تلك الأيام..

***

.«(جمال)»

تنظر لها في تساؤل..

.«تعالى عشان عاوزاك»

تتجه إليها، وتقترب بخطوات متوجسة..

.«إيه ده!؟»

تخرج الكتاب المصور من وراء ظهرها..

قلبك يسقط بين قدميك.. تشعر به يرتجف كالذبيح..

الدم يتوقف في عروقك.. أعصاب قدمك تتخلى عنك..

لقد عرفتْ.. ما كنت تخشاه منذ بدأ ذلك الأمر يتنامى في داخلك..

لقد عرفتْ..

.«ده كتاب كده بتاع أعشاب ووصفات»

يرتجف صوتك ليعلن بوضوح أنك تكذب..

.«طب ماشي، برغم إن دي مش أعشاب ولا حاجة»

تنظر في عينيك مباشرة، وتمد يدها خلف ظهرها لتخرج شيئًا آخر..

.«والأجندة دي.. اللي مكتوب فيها ده أعشاب بردو؟؟»

.«..»

***

إن المستقبل رائع..

***

.«وهو أي حد يقول لك أي حاجة تمشي وراها!؟»

***

رائع إلى حد مخيف..

***

.«يابني الطريق اللي انت ماشي فيه ده طريق غلط»

.«..............................»

تنظر إلى الأرض.. تركز بصرك على بقعة معينة في السجادة، وكأنك ستخترقها بنظراتك.. إنها الطريقة المثلى للهروب من المواقف المحرجة كما تعرفون..

.«انت سامعني؟»

تصيح هي، وقد فقدت ذلك الهدوء المميز الذي يعتريها..

اتق شر الحليم إذا غضب.. قالوها منذ القدم، وتعبر عن الموقف بدقة الآن..

.«أيوة»

تحاول هي أن تتمالك أعصابها.. تأخذ نفسًا عميقًا..

.«بص.. أنا مش هعمل لك حاجة.. أنا هنصحك.. الكلام اللي في الكتاب ده عبارة عن سحر.. سحر وكفر صريح.. مش معقولة انت ما تعرفش.. الطريق ده مش هيوديك ف حتة إلا على جهنم.. هيدمر لك حياتك»

لا تدري ماذا تقول، فتصمت..

تثير أعصابها أكثر..

.«يا بني أنا مش بكلمك!؟»

.«أيوه يا ماما»

تترقرق الدموع في عينيك.. فعلًا أنت لا تدري ماذا تقول..

يرق قلبها.. تهدأ..

.«يابني.. شوف حياتك.. مصلحتك مش في الكلام ده، مصلحتك في مذاكرتك»

تتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعك الآن حالًا.. يمكنك أن تبيع روحك للشيطان في تلك اللحظة بالذات مقابل أن ينتهي هذا الموقف.. يمكنك أن تقول أي شيء..

.«حاضر»

الشك يطل من نظراتها.. تعرف أنك أحمق ككل الشباب، وأنك لن تترك الموضوع، وستظل على نفس الطريق ونفس المنوال حتى يذهب عقلك إلى حيث ألقت.. تنظر لك في غل.. تريد تحطيم رأسك ولكنها للأسف لا تملك دليلًا على أنك ستفعل هذا في المستقبل.. تذكرك بجحا مع ولده عندما يرسله في مهمة.. يصفعه قبلها حتى يتذكر الولد الألم الذي أصابه من الصفعة، فيبذل قصارى جهده لينجح في مهمته حتى لا يتلقى صفعة أخرى..

هل تصفعك؟

كلا بالطبع..

إنها سيدة فاضلة وطيبة لا توجِّه الصفعات للأولاد، ثم إن سنك لا يسمح بهذا بالتأكيد..

رباه! اجعل هذا الموقف ينتهي!

.«وانت كل ده عايش مع عمك (صلاح) اللي هيوديك ف داهية وما بتفكرش.. ما بتفكرش في اللي بتعمله!؟»

ولكنك توقفت بالفعل.. لا تريد أن تكمل في الطريق..

لا تجد القوة في نفسك لتخبرها بأنك لا تقرأ في الكتاب ولا تحضر في طرقه منذ فترة، ولا تنوي أن تفعل.. كل ما تنجح في إخراجه من حلقك هو..

.«أنا آسف»

.«استفدت إيه انت بقى من كل ده؟ ولا حاجة»

تطرق برأسك كما كنت.. وكأن الوقت لا يمر.. تتذكر الكلام الذي قرأته منذ فترة عن نسبية (أينشتاين).. أنت تكره كل لحظة في هذا الموقف، لذلك فهو يمر بطيئًا للغاية.. يوشك على إزهاق روحك..

ذلك المثل الذي قرأته منذ فترة يتردد في ذهنك فلا يدع مجالًا لشيء آخر..

((ما شافوهمش وهُمَّ بيسرقوا، وشافوهم وهُمَّ بيتحاسبوا)).

.«الكتاب ده هيفضل معايا، ومش هتشوفه تاني.. وبجد يا (جمال).. مش عايزة أعرف إنك عملت حاجة ليها علاقة بالموضوع ده تاني»

تومئ برأسك علامة الإيجاب..

أنا لا أفعل شيئًا له علاقة به بالفعل.. ولا أنوي شيئًا.. ولكن حلقك لا يجسر على الكلام..

.«اتفضل على أوضتك»

إنه الخلاص.. تستدير إلى غرفتك.. تمشي إليها بخطوات أقرب إلى الركض..

وهي.. تقف مكانها كما كانت لا تدري ماذا تفعل..

هل كانت متساهلة؟ تشعر أنها كانت متساهلةً معك.. ترغب في تحطيم رأسك حتى تتأكد من أنك لن تقرب هذه الأمور ثانية.. ولكن الأمر انتهى.. لن تدخل إلى غرفتك لتحطم رأسك بعد أن أمرتك بأن تذهب إليها..

لابد أن تتمالك أعصابها.. تهدأ..

تنظر إلى الكتاب في يدها وتزفر في حرارة..

***

بعد كل ما حدث، لم يعد المناخ في البيت كما كان..

أصبح الجو قاتمًا، ضبابيًّا.. كئيبًا، لا يحوي تلك المتعة والبهجة التي يحويها الجو الأسَري..

لم نعد كما كنا.. لم يعد (عمر) أخي يتكلم معي كما كان..

لم تعد هناك تلك الجلسات العائلية التي تجمعنا جميعًا وتملؤها أصوات الصياح والضحكات..

لا شيء سوى الصمت.. الهدوء.. الكآبة..

حتى شكل البيت نفسه أصبح كئيبًا..

ويمر الوقت..

تمر امتحانات الثانوية العامة.. تنتهي..

يمر الوقت..

أنا الآن في السنة الأولى من كلية التجارة وإدارة الأعمال بجامعة عين شمس..

و بطبيعة الحال، كان (مصطفى) يلازمني في نفس الكلية، وكأن مصيرينا مرتبطان بشكل ما..

يرافقني طيلة حياتي.. فلا مهرب ولا مفر..

أصبحت عندي مساحة من الحرية أكبر من ذي قبل.. أنا الآن طالب جامعي.. مرحلة عمرية وعقلية مختلفة تمام الاختلاف بالطبع..

أقول، يمر الوقت..

يمر، والحياة راكدة.. كئيبة لا يحدث فيها شيء..

يمر الوقت..

***

- ٥ -

(جرس الهاتف يدق).

<<تررررررررررن>>

.«ألو»

.«......»

.«مش فاهم مين اللي بيتصل كل شوية وما يردش ده»

(صوت وضع سماعة الهاتف).

.«بابا»

.«أيوة»

.«أنا هروح أقعد عند جدتي شوية.. شهر مثلًا.. وهذاكر عندها»

.«اشمعنى يعني!؟»

.«عادي يعني.. زهق.. وبعدين أحسن من الجو الكئيب اللي إحنا فيه ده.. إيه رأيك؟»

.«....»

.«بتفكر في إيه؟»

.«مفيش.. روح»

***

طبعا اعترضت والدتي أشد الاعتراض على ذهابي للعيش مع جدتي.. كانت متخيلة أنني ذاهب إلى هناك حتى أكون مع عمي (صلاح) ويخلو لنا جو السِّحر والشعوذة كما تعتقد طبعًا..

لم تكن هناك فائدة من إقناعها بأنني فعلًا لم أعد أطارد هذه الأمور أو أبحث فيها..

ولم يمنعني هذا كله من الذهاب إلى جدتي.. ذهبت بالفعل، وأصبح لي غرفة خاصة بي.. الغرفة المقابلة للباب بالضبط.. نفس الغرفة التي حدث فيها موقف عمي (صلاح) عندما تشاجر مع عمي (كمال) و(شريف) وخرج ليعود بملابس مختلفة.. هي ذاتها..

بدأت الحياة تبتسم وقتها..

لم أكلمكم عن جدي وجدتي من قبل..

جدي كان من الصعيد.. صعيدي جدًّا لو جاز التعبير.. كان يحفظ معظم أشعار الصعيد، ودومًا ما يحكي لي قصة (أبو زيد الهلالي) و(الزناتي خليفة) بالشعر العامي الصعيدي.. وأدوّن أنا هذا كله خلفه.. صعيدي أسمر طيب القلب..

جدتي تطبخ لنا الطعام، لأتذوق أفضل أطعمة أتذوقها في حياتي.. الطعام الذي تعده يشعرك بما بذلته في إعداده.. تشعر أنها تضع حبها ومجهودها في الطعام.. توشك أن تشم رائحة يديها المغضنة الرقيقة الحانية..

جوٌّ رقيقٌ، حانٍ يشعرك بالألفة والتَّرحاب.. لم يقلل منه أن عمي (صلاح) لم يكن موجودًا وقتها.. أين كان؟ مسافرًا للعمل بالطبع.. قلت لكم من قبل إنه لا يستقر في مكانه كثيرًا.. دائم السفر والتَّرحال بطبيعة عمله..

أشعر أن الأيام تضحك لي.. السعادة تملأ قلبي وأشعر بالاستقرار..

كان (مصطفى) يزورني أيضًا؛ فقد كان جدي وجدتي يعرفانه ويألفانه ولم يدخرا وسعًا في أن يرحبا به أيضًا بتلك الطيبة الصعيدية الساحرة..

تمر الأيام والسعادة هي السائدة.. لا شيء يحدث ليعكر صفوها..

جل ما كان يضايقني وقتها هو تلك الغرفة التي أعيش فيها.. لم تكن مريحة.. شديدة الكآبة برغم ما كان يحدث فيها من تجمعات عائلية كثيرة وذكريات جميلة، منذ كنا نبيت في البيت هنا كل يوم جمعة.. هل تذكرون؟

كانت الغرفة شديدة الكآبة، لدرجة تشعرك بوجود نفسي يراقبك كلما دخلتها.. كلما جاء الليل يبدأ الخوف.. تشعر بأن الجدران تقترب منك وبأنك تختنق.. إنها الـ(كلوستروفوبيا Claustrophobia) بأسوأ معانيها.. لم أعد أستطيع النوم.. كانت الغرفة تملك شرفة خاصة بها، فكنت أجلس فيها ليلًا بالساعات خوفًا من النوم فيها بمفردي.. لا يمكنني الشكوى بالطبع فأنا لم أعد طفلًا..

ولكن بالطبع لم أكن أستطيع السهر في الشرفة طوال الوقت.. في بعض الأيام كان النوم ينتصر..

ويجيء دور الحلم..

***

تدور الكاميرا في الموقع الذي يبدأ فيه المشهد..

ترى كل شيء أمامك بذلك الطابع الضبابي المميز للأحلام..

تدور الكاميرا حتى تقع عيناك على ذلك المشهد الذي يدخل إلى الكادر..

امرأتان عجوزان جالستان لتتحدثا.. شيختان طاعنتان في السن، للدرجة التي تجعل جلد الوجه نفسه متغضنًا ومتجعدًا..

تتحدثان.. عن ماذا تتحدثان؟ لا تعرف.. فالحلم بلا صوت..

يخرج ذلك المشهد من الكادر، وتدور الكاميرا من جديد لتعطيك نظرة على معالم الشقة.. مألوفة تشعرك بأنك رأيتها من قبل..

تدور الكاميرا قليلًا، ثم تعود من جديد إلى المشهد الأول، لتجد هاتين المرأتين جالستين في نفس المكان، وتكتبان شيئا ما..

لا تميز ما يكتب من مكانك هنا لأن الكاميرا بعيدة عنهما.. كل ما تراه هو الوجوه المجعدة المتغضنة..

تبتعد الكاميرا من جديد.. تدور في معالم الشقة.. الشقة مألوفة جدًّا.. مألوفة أكثر من اللازم.. تبدو أشبه بشقة جدك وجدتك، إن لم تكن هي.. بل هي نفس الشقة بالتأكيد.. ما الذي تفعله في الحلم إذًا؟ تدخل تلك الصورة المعلقة على الحائط إلى الكادر فجأة.. صورة التنين والفارس المسيحية الشهيرة.. مسيحية؟ إذًا فهاتان المرأتان مسيحيتان.. من هما بالضبط وماذا تفعلان؟

لا إجابة..

تدور الكاميرا في معالم الشقة من جديد لتعود إلى مشهد المرأتين.. المرأتين اللتين تفعلان شيئًا عجيبًا للغاية..

***

.«جدي.. هوَّ انت وتيتة أول ناس تسكنوا ف البيت هنا؟؟»

.«لا يابني طبعًا، كان في ناس قبلنا»

.«ناس مين؟»

.«أم (بيشوي) وقريبتها.. دول ناس مسيحيين معروفين أوي كانوا ساكنين هنا.. كانوا شغالين في تدميس الفول، وكان عندهم مستودع بتاع فول بتاعهم ورا البيت هنا، ومنفّد على البيت.. بس الكلام ده من زمان أوي، يمكن في التلاتينات كده أيام الملك.. بتسأل ليه؟؟»

.«مفيش.. فضول»

***

ما الذي تفعلانه بالضبط؟؟

ما الذي يحدث؟؟

لا تعرف.. المشهد يثير خيالك ورعبك، ويجثم على عقلك فلا يدع لك مجالًا للتفكير..

إحدى المرأتين تمسك وعاءً يحوي سائلًا ما أشبه بالدم، وتغمس فيه شيئًا أشبه بالريشة تستخدمها بعدها لتكتب بها على ورقة موضوعة أمامها..

الثانية تقف بجوارها تمسك بمبخرة تحركها في حركة دائرية حول رأس الأخرى..

تنتهي الأولى من الكتابة بذلك السائل الأحمر القاني، فتلتقط الثانية منها الورقة وتبخرها بتلك الأبخرة الغريبة الخانقة المتصاعدة من المبخرة التي تحملها..

تحضر الأولى قطعة من القماش.. تبدو أشبه بالقطيفة ذات لون أحمر غامق.. ثم تقصُّها بمقص حتى تصل إلى شكل مثلث، تضع الثانية بداخله الورقة، ثم تطويانه على بعضه في نفس شكل المثلث وهما تقولان شيئًا ما..

لا تميز الكلام لأنه لا صوت هنالك.. كل ما تميزه هو حركة شفاههما وهما تتكلمان.. لا تفهم حرفًا..

البخور المتصاعد يتزايد.. يعمي عينك فلا تقدر على الرؤية..

تدريجيًا يتحوّل المشهد أمامك إلى ضبابٍ رمادي دخاني لا تميز فيه شيئًا..

يتزايد الضباب حتى تظلم الشاشة أمامك تمامًا..

***

-٦-

تكرر ذلك الحلم.. تكرر كثيرًا..

في كل يوم أنامه أحلم بجزء آخر من نفس الحلم.. كأنه فيلم سينمائي يعرض على لقطاتٍ متقطعة..

لم أكن أفهم ما معناه، ولا لماذا كان يحدث..

ما فهمته من جدي هو أنه كانت هناك عائلة كبيرة تسكن هنا قبلنا، ثم رحلت فجأة من البيت دون سبب واضح..

لماذا؟ لا أعرف..

ما لاحظته في تلك الفترة هو أن أحدًا لم يكن يدخل الغرفة..

عندما يريد أحدهم أن يكلمني، فإنه يناديني لأخرج خارج الغرفة.. وكذلك جدي وجدتي.. لم يكن أحد يجرؤ على دخول الغرفة، وقد أصابني هذا بحيرة لا حدود لها.. لماذا لا يدخل أحد إلى الغرفة؟

فضول.. فضول لا حد له..

***

.«جدي.. هو انتو ليه مش بتدخلوا الأوضة!؟؟»

.«معرفش والله يابني، بس في حاجات غريبة بتحصل في الأوضة دي من قبل ما انت تيجي.. انت عارف إن دي الأوضة اللي أعمامك كانوا بيسهروا فيها ويلعبوا كوتشينة وشطرنج صح؟»

.«آه عارف.. طول عمرهم بيسهروا فيها.. إيه اللي حصل بقى؟»

.«معرفش.. منين ما بقوا يسهروا فيها لازم يتخانقوا.. بسبب أو من غير سبب.. أنا وجدتك لازم نتخانق فيها.. فيها حاجة غريبة وكئيبة أوي، فعشان كده ما بقيناش بنقعد فيها»

.«عشان كده يعني قعدتوني فيها؟»

(صوت ضحكات)

(صوت سعال خفيف)

.«لا يابني والله هو الموضوع جه كده.. هي الأوضة اللي فاضية.. أنا بس ما حبيتش أخبي عليك»

***

ما معنى هذا الذي يحدث؟

ما معنى ما قاله لي جدي؟

غرفة تصيب من يجلس بداخلها بالجنون. فيتشاجر لأتفه الأسباب؟ شيء ما يخبرني بأن هذا ليس هراءً كما يوحي الموضوع.. أنا أعرف أكثر من غيري فأنا الذي أسكن فيها..

هذه الغرفة بها وجود ما.. بها شيء ما لا أقدر على التعبير عنه.. لا يقدر على التعبير عنه سوى العرق والإجهاد الذي يبدو على ملامحي عندما أستيقظ من النوم بداخلها.. وكأن أحدًا يجلس على صدري فلا يترك لي مجالًا لأتنفس..

كابوس.. كابوس طويل لا إفاقة منه.. جدي لم يكن يمزح عندما قال بأن الغرفة بها شيء ما لا يدري كنهه..

غرفة تجلب الجنون؟ لم أسمع بهذا من قبل إلا في رواية ١٤٠٨ الشهيرة لـ (ستيفن كينج Stephen King).. ربما أسطورة صندوق بندورا الإغريقية تعبر عن الموقف نوعًا ما.. ذلك الصندوق الذي حبست فيه روح الجنون أو شيطان الجنون كما يسمونه.. لو فتح على آخره لعم الخراب العالم..

هل يسكن الجنون الغرفة؟ لا أدري..

والأحلام لا تفارقني..

***

تضيء الشاشة أمامك فجأة، ويواجه الكادر تلك المشاهد المتقلبة السريعة ذات الطابع الضبابي المميز للأحلام..

المشهد الأول..

تدور الكاميرا في معالم البيت، وتعطيك نظرة على مخزن الفول المفتوح على الشقة.. تعطيك نظرة على اللوحات ذات الطابع المسيحي المعلقة في كل مكان من الشقة.. تعطيك نظرة على الناس الذين يعيشون ويجلسون ويتسامرون في كل ركن من المنزل.. من الواضح أنه بيت عائلة.. هذه حقيقة واقعة لا جدال فيها..

المشهد الثاني..

تعبر تلك الفتاة الرقيقة أمامك على الكادر.. هفهافة كالنسيم.. كالورود في بستان تداعبه الرياح.. لا يمكن للجمال أن يصفها، بل أنت تحتاج لكلمة أرق من هذه وأروع.. فاتنة.. نعم.. هذا هو التعبير.. فاتنة..

على وشك الزواج هي كما يبدو.. هذا واضح لأن كل من في البيت هم شديدو الاهتمام بها.. تقضي هي وقتها في تجربة الفساتين البيضاء الرقيقة، ويواظب كل من حولها على خدمتها وكأنها أميرة من العصر الفيكتوري.. تنظر إلى طرف الكادر بعينك لترى أم (بيشوي) وقريبتها تراقبانها في غل.. الحسد يتقافز من أعينهما فتوشك الفتاة على أن تحترق في مكانها..

المشهد الثالث..

أم (بيشوي) تمسك شيئًا ما أشبه بالملعقة الكبيرة بيدها، وتحفر به في حائط الغرفة بقوة.. قريبتها تنتظرها على باب الغرفة، وتطل خارجها كل ثلاث ثوان لتتأكد من أن أحدًا لن يفاجئهما..

تحفر أم (بيشوي) أكثر.. تُخرج من صدر جلبابها المنزلي تلك القطعة القماشية المثلثة ذات اللون الأحمر الغامق، ثم تدفنها داخل الحفرة التي صنعتها في الجدار.. تبدأ في الطلاء على الحفرة بشيء ما أشبه بالأسمنت.. تنسد الحفرة تمامًا..

المشهد الرابع..

بعض الرجال يدخلون إلى الغرفة حاملين خزانة ملابس عملاقة.. تشير لهم أم (بيشوي) أن يضعوها على الحائط الذي دفنت فيه قطعة القماش.. ينسد الحائط ويختفي خلف خزانة الملابس تمامًا..

المشهد الخامس..

زغاريد وأضواء في كل مكان.. الفتاة الفاتنة تدخل إلى الغرفة ومعها زوجها ثم تغلق الباب خلفها.. من الواضح أنها ليلة الدخلة فلا تكن متطفلًا..

يخلع زوجها معطفه وقميصه، ثم يتجه إلى مقبس النور ليغلقه فيسود الظلام..

المشهد السادس..

الفتاة الفاتنة تتشاجر مع زوجها الوسيم.. يطول الشجار بعض الوقت ثم يصفعها زوجها.. تحدق في وجهه بذهول، فيصفعها من جديد، ثم ينقض عليها ليوسعها ضربًا وركلًا.. ثم يخرج من الغرفة تاركًا إياها على الأرض وجسدها يمتلئ بالكدمات، ووجهها ينزف من كل مكان..

المشهد السابع..

الفتاة التي لم تعد فاتنة تجلس على السرير تكلم نفسها وهي تنظر إلى مرآتها.. الدموع تجري على وجنتيها فلا تنافسها إلا فتنة قميص النوم الذي ترتديه.. يدخل زوجها إلى الغرفة.. يخلع ملابسه ثم يمد يده إلى مقبس النور ليسود الظلام..

المشهد الثامن..

أنت تقف داخل الغرفة.. كل شيء حولك ينهار.. الجدران، السقف، كل شيء.. إلا ذلك الجدار.. الجدار المدفونة بداخله قطعة القماش.. لا يتأثر بما يحدث في باقي الغرفة..

تتساقط الصخور على رأسك من السقف فتنحني وتحاول أن تمد يدك إلى الحائط لتنتزع قطعة القماش.. ثم الظلام..لا شيء سوى الظلام..

تستيقظ..

تفتح عينيك..

يطالعك ظلام الغرفة الذي يشوبه بعض الضوء الخافت.. تنهض معتدلًا على السرير..

تلهث وكأنك فرغت من هدم حائط.. جسمك كله مغطى بالعرق وكأن أحدًا رماك بدلو من الماء المالح..

قلبك يخفق في عنف.. قشعريرة تزحف على ظهرك، فترتجف..

تحاول أن تهدأ.. تتمالك أعصابك..

حلقك جاف كالقش.. تريد أن تشرب..

تنهض من على السرير، تضيء أنوار الغرفة.. تتجه إلى الباب..

ولكن.. ما هذا؟

رباه! ما هذا؟

خيال يتجسد أمامك في وسط الغرفة.. يتجسد ويترك ظلًّا خلفه..

كيان ضبابي الشكل لا يمكنك تمييز ملامحه، حتى يوشك على إشعارك بأنك تهذي..

هل أنت تهذي حقًّا؟ ربما أنت ما زلت تحلم.. لا تعرف..

ذلك الكيان العملاق يقف في هواء الغرفة أمامك بالضبط..

دقات قلبك تتزايد حتى يوشك على القفز من مكانه..

الرعب.. الرعب يتجسَّدُ في كل مكان حولك.. يزحف على الموجودات فلا يدع مجالًا للتعقل.. يجب أن تهرب..

تستدير على عقبيك ثم تركض إلى الشرفة كأن الشيطان يطاردك.. تفتحها ثم تلقي بنفسك داخلها وتغلقها خلفك وأنت تلهث بقوة.. قلبك يوشك على التوقف ذعرًا..

ذلك الشعور غير المريح.. تشعر بأن أحدًا يراقبك.. أحدهم يقترب..

تسمع صوت خطوات ثقيلة..

تشعر بالدبيب تحت أقدامك..

تحبس أنفاسك..

لا شيء..

لا تسمع شيئًا ولا ترى شيئًا..

تظل في مكانك لدقيقة وأنت تصغي..

لا شيء هنالك.. لا خطوات..

تمد يدك إلى باب الشرفة في بطء..

تفتحه في حذر..

(صوت صرير الباب).

تطل برأسك لترى..

***

- ٧ -

إنه الخوف.. الخوف عندما يصبح سيدًا..

***

طبعا لم أر شيئًا وقتها..

وكأنني كنت أهذي.. كأن شيئًا لم يكن..

طبعًا أنا أعرف أنني لم أكن أهذي.. لا مجال للمزاح هنا.. لو كان هذا هذيانًا فكيف تكون الحقيقة إذًا؟

لا أعرف..

ما الذي يختبئ خلف جدار الغرفة؟ أعرف وأوقن أن له علاقة وثيقة بكل ما يحدث لي.. بكل ما يحدث في الغرفة ككل..

ولماذا الآن بالذات؟

لماذا ينشط ذلك الأمر الآن بالذات؟

لو أن ما يختبئ خلف ذلك الجدار - لو كان هناك شيء من الأصل - هو السبب في كل هذا، فلماذا لم ينشط منذ زمن!؟؟ لماذا ظل ساكنًا طوال هذه المدة!؟؟

أسئلة.. أسئلة.. ولا إجابات..

مر الوقت بعد ذلك حتى جاء والدي لزيارتي في البيت ذات يوم..

كنت قد قررت وقتها.. يجب أن أعرف..

***

.«انت مش ناوي ترجع ولا إيه؟ عجبتك القعدة؟»

قالها والدي مبتسمًا وهو ينظر إليَّ متسائلًا، فجذبته من يده إلى الغرفة وأنا أقول:

.«تعالى يا حاج عايز أقول لك على حاجة»

جذبته إلى داخل الغرفة، فدخل حائرًا..

.«فيه إيه يابني؟؟»

.«اقعد بس»

جلس على السرير وهو ينظر إليَّ في حيرة، فجذبت كرسيًّا لأجلس في مواجهته صامتًا كالأسماك..

يمر الوقت..

ينظر لي.. وأنظر له..

هل سيجنُّ ككل من يدخل هذه الغرفة؟ إنني أتساءل..

يمر الوقت وهو ينظر لي حائرًا..

.«يابني مالك فيه إيه؟؟»

.«مفيش»

ينظر لي.. وأنظر له..

يمر الوقت..

.«انت جايبنا هنا ليه طيب!؟ ما تيجي نقعد مع ستك وجدك»

لا رد..

يمر الوقت..

.«فيه إيه يا (جمال)؟ انت اتجننت؟»

أخيرًا.. الجنون يبدأ.. هذه العصبية ليست طبيعية أبدًا..

من يدري.. ربما أنا من جننت لأفعل ما أفعله هنا..

.«بص يا بابا.. الأوضة دي فيها حاجة مش طبيعية»

أنظر له في ترقب..

.«آه.. هو الكتاب لحسلك دماغك ولا إيه؟»

دهشة..

.«هي ماما قالتلك؟»

.«طبعًا.. وأول ما قالتلي جيت عشان آخدك على طول»

صمتُّ للحظة وأنا أنظر له، ثم قلت متجاهلًا ما قال:

.«والله فعلًا الأوضة فيها حاجة غريبة.. وده بشهادة جدي»

ينظر لي في دهشة، ولكنه يبدو مهتمًّا.. يريد أن يسمع..

.«الأوضة كل ما حدّ يخشها لازم يتجنن ويتعصب وتحصل مشاكل.. ده كلام جدي مش كلامي أنا»

ألتقط المطرقة والإزميل من جواري..

.«بص.. أنا هوريك.. امسك دول»

مد يده في حيرة ليمسك المطرقة وناولته الإزميل في يده الأخرى..

«بص.. دق انت هنا بالظبط».

ينظر لي في دهشة..

«والله يابني انت اتجننت!».

«والله صدقني بس.. دق».

ولماذا لا أدقها أنا!؟ لا أعرف..

إنه الخوف.. الخوف مما سأجده.. الخوف من ذلك الخيال الضبابي الشبحي الذي تجسد لي..
الخوف في أنقى صوره..

لا يقل هذا عن خوفي من والدي نفسه لو لم يجد شيئًا يدعم كلامي.. لربما دق الإزميل في رأسي بالمطرقة.. لا أستبعد أن يحدث هذا في هذه الغرفة بالذات.. يمكن أن يحدث فيها أي شيء لا تتوقعه..

بدأ والدي يلين أخيرًا، ولا أدري لماذا.. ربما هو إصراري وإلحاحي الأشبه بالجنون الذي جعله لا يقدر على رفض ما أقول..

«طب ماطلعتهاش ليه انت الحاجة اللي في الحيطة دي؟».

«ما هو مش هينفع.. لازم انت».

ينظر لي في شك، ثم يتنهد في صبر ويبدأ في الدق..

<<تن.. تن.. تن..>>

صوت الدق على الإزميل يتعالى..

يدخل جدي وجدتي إلى الغرفة..

«فيه إيه يابني؟؟».

أشير بيدي إلى جدي أن يصبر..

<<تن.. تن.. تن..>>

يدق والدي أكثر على الإزميل ويحفر في الحائط مدمرًا شكله تمامًا..

لا شيء يظهر.. ينظر لي والدي شزرًا..

يبدو أنني مخطئ.. رباه! .. هناك مشكلة كبيرة على وشك الحدوث..

<<تن.. تن.. تن..>> لا شيء..

لحظه.. ما هذا؟؟

طرف صغير من القطيفة الحمراء غامقة اللون يظهر أمامي.. نفس لونها الذي في الحلم.. مرسوم عليها صلبان كثيرة العدد بشكل مبالغ فيه..

تمتد يد والدي لتلتقطها.. يقلبها في يده..

ينظر لي في ذهول..

أنظر لقطعة القماش التي في يده وأنا لا أقوى على الكلام..

يدوي صوت جدي..

.«إيه ده يا (جمال)؟؟»

أدير عيني له في بطء..

ولا أرد..

***

(نهاية الحلقة السابعة)

(الحلقة الثامنة)

تجسُّد

Apparition

-١-

.«إيه ده يا (جمال)؟؟»

***

.«فيه إيه يا (جمال)؟ انت اتجننت؟»

***

.«إيه اللي انت جايبه ده يا (جمال)؟؟»

***

.«كنت فين يا (جمال)؟؟»

***

.«انت عرفت إزاي إن ده كان هنا؟؟»

يرفع قطعة القماش أمام وجهه..

أنظر له..

.«شفت بقى إن مفيش حاجة لحست دماغي؟ وإن كلامي صح؟»

يلتقط الورقة ذات الكتابة الدموية غير المفهومة من داخل قطعة القماش..

صوت جدتي المتوجس..

.«ده حجاب ده؟؟»

ينظر لها جدي بنفس التوجس..

يقول والدي وهو ينظر في شرود إلى الورقة التي بين يديه:

.«لأ مش حجاب»

يدير بصره ليواجهنا جميعًا..

.«ده عمل»

ويسود الصمت تمامًا..

***

عدت للبيت بعدها طبعًا.. مع والدي..

لن أهين ذكاءكم بقولي إنه كان مندهشًا مما حدث، هذا شيء مفروغ منه.. المثير في الأمر هو أنني رأيتُ دليلًا ماديًّا ملموسًا على أن ما يحدث معي ليس صدفة.. ليس هلوسة.. إنه حقيقي كالتنفس..

وما الذي يحدث معي بالضبط؟ لا أفهم..

ولكن هذا لم يكن مهمًّا بالنسبة لي.. لقد عدت إلى البيت، وبدأت الأمور في التحسن.. إذًا فليذهب كل شيء إلى الجحيم.. لا أبالي..

أخي أصبح يتكلم معي من جديد.. أصبحتْ علاقتُنا أفضل نوعًا..

والدتي تحسنت علاقتها بي، إلا أنها لم تُشفَ من نظرات الشك التي تصوبها إليَّ في كل لحظة.. تلك الطيِّبة الحنون أصبحت لا تثق في.. تحبني؟ نعم.. ولكنها لا تثق فيَّ أكثر من ثقتها في بائع الأنابيب النصاب الذي ينتهز أي فرصة يكون فيها وحده حتى يسرق أي شيء من أي درج..

والكتاب؟

ما عرفته من أخي هو أن الكتاب كان بخير حال.. لم تتخلص منه أمي، بل خبأته هو والأجندة في مكان لا يعرفه سواها..

شيء طبيعي طبعًا.. إلا أن الغريب هو أنها لم تتخلص منه برغم توجسها.. لم يكن هناك سبب يدفعها للاحتفاظ به، فلماذا!؟؟

لا أدري..

ولم يكن هذا أغرب ما قاله لي أخي..

***

تستيقظ من النوم..

تنظر إلى السقف..

تشعر أن حلقك جاف.. هذا الشعور يتكرر كثيرًا..

تفرك عينك بيدك اليمنى بينما تمتد اليسرى لتضيء نور المكتب الخافت من جوار فراشك، ثم تزيح الأغطية لتنهض، فقط لتتسمر في مكانك..

ما هذا بالضبط؟

تتسارع دقات قلبك وأنت تحدق في نهاية السرير في اتجاه أقدامك..

خيال هلامي له شكل بشري يقف في مواجهتك مباشرة.. كأنه يراقبك..

تحدق فيه وهلة.. لا يتحرك ولا تتحرك عينك أنت من عليه..

تتسارع دقات قلبك أكثر.. حلقك جاف ولا تقوى حتى على الصراخ..

تحدق فيه، وهو ساكن لا يتحرك..

(دززززز.. ززززز..).

ينطفئ ضوء المكتب فجأة، ويسود الظلام.. ظلام دامس..

تنتفض أنت في مكانك، وتتسارع دقات قلبك إلى الحد الأقصى.. توشك على الموت رعبًا..

تقفز من فوق السرير، وتركض إلى مفتاح ضوء الغرفة لتضيئه، ثم تنظر خلفك من جديد وأنت تلهث بينما يسطع الضوء الأبيض في كل ركن..

لا شيء..

لا شيء هنالك.. وكأنك كنت تهذي..

مازلت تلهث في انفعال.. الخوف يستولي على قلبك..

هل كنت تهذي حقًّا؟ لا تعتقد.. ليس الهذيان بمثل هذا التفصيل..

تنظر إلى الساعة.. الخامسة فجرًا..

لا نوم الليلة..

***

تكرر الأمر أكثر من مرة مع (عمر) أخي..

يستيقظ من النوم، ليجد ذلك الشيء الهلامي واقفًا أمام فراشه بالضبط، ثم يدير عينه بعيدًا للحظة وينظر مجددًا فلا يجد شيئًا..

تكرر أكثر من اللازم، حتى قرر أن يخبرني بالأمر..

وماذا أعرف أنا؟ لا شيء بالطبع..

من ذلك المدعي الذي يجسر على القول بأنه يفهم شيئًا؟

ليس أنا بالتأكيد.. ليس الأمر بهذه البساطة.. هناك خيوط كثيرة..

بدأتُ وقتها محاولة ترتيب أفكاري.. جمع الخيوط والأحداث التي حدثت لي منذ بدأ ذلك الأمر كله.. على الورق طبعًا.. ترتيب الأفكار وتنظيمها أسهل كثيرًا على الورق كما لابد أنكم تعلمون..

ما الأشياء الجيدة التي حدثت لي منذ قرأت ذلك الكتاب؟

ذلك المشهد الذي رأيته.. تلك الخيوط المضيئة الشبيهة بالشهب التي ترتفع وتهبط في السماء الزرقاء الفارغة.. لم يكن هذا المشهد سيئًا.. مازلت لا أعرف ما كان هذا بالضبط ولكن إحساسي لم يكن سيئًا وأنا أشاهده..

جميل.. وماذا أيضًا؟

بالطبع.. موضوع الحجاب.. أو العمل؛ لا أدري بالضبط.. ذلك الذي أخرجته من الجدار في بيت جدتي.. لم يكن هذا سيئًا إلى هذا الحد.. لربما كان ذلك الشيء هو سبب المشاكل التي كانت تحدث لهم طوال الفترة السابقة..

بالطبع يبقى ذلك السؤال الأزلي.. لماذا الآن؟ لماذا اختار العمل أن يعلن عن وجوده في ذلك الوقت بالذات؟ حسب ما أعرف فقد كان مدفونًا منذ فترة طويلة للغاية. فلماذا الآن؟

لا أدري..

إذًا فما هي الأمور السيئة التي حدثت لي؟

فلنر.. الكوابيس..

خوف أخي مني.. ذلك التغير المفاجئ الذي أصاب شخصيتي وأدى إلى أن يتجنبني الجميع..

تغير شخصية (مصطفى).. غضب أمي.. ذلك الخيال الذي رأيته في بيت جدتي..

الصعقة التي تلقيتها عندما كنت أريد أن أشرب، وأنا أجرب طريقة أسماء الله الحسنى..

الكثير والكثير..

إذا هل ذلك الكتاب اللعين خير أم شر؟ لا أفهم.. حيرة لا حدود لها.. لا تستطيع الجزم بشيء واضح، لأنه لا شيء مؤكد.. أنت تمشي في الظلام حرفيًّا.. تجرب أشياء لم يجربها غيرك من قبل، ولو جربها فبالتأكيد لم يحكها لأحد أو ينشرها في المراجع.. لا سبيل للمعرفة إلا بالطريقة التقليدية الصعبة.. التجريب..

فهل تجرب؟

***

البحث.. يجب أن أبحث..

كما لابد أنكم تعرفون، مر الكثير من الوقت منذ كنت في الإعدادية..

نحن الآن في بداية الألفية الجديدة تقريبًا..

وكما تعرفون، أنا أملك جهاز كمبيوتر.. إذًا فما الخطوة التالية؟

بالضبط.. شبكة الإنترنت..

بدائية.. سرعة شديدة البطء.. أسعار شديدة الغلاء.. أنتم جميعًا تعرفون عن ماذا أتكلم بالضبط. ولابد أن لكم ذكرياتكم الخاصة مع بداية شبكة الإنترنت في مصر..

ما كنت أفعله وقتها هو شيء يسمى بالـ(Internet Dial Up).. لا أعرف ترجمتها الحرفية للعربية، ولكن الأمر كان أشبه باتصال فوري بالإنترنت.. لا لم يكن (٠٧٧٧٥٠٠٠) قبل أن تتساءلوا؛ فالطريقة الأخيرة كان سعرها غاليًا.. ما أتكلم عنه هنا هو طريقة مجانية للاتصال بالانترنت عن طريق سلك الهاتف، وقيمتها تضاف لفاتورة الهاتف كأنها مكالمة هاتفية عادية..

كان هذا في سنة ١٩٩٩ على ما أعتقد.. أنا أتذكر هذا جيدًا بسبب ما كان يدعى بهلع 2k..

ما هذا بالضبط؟ لم يكن لهذا علاقة بأحداث قصتنا ولكنني سأخبركم باختصار. كانت هذه إشاعة منتشرة بين مهندسي الحواسب والمحللين في العالم أجمع، وهي أن أنظمة الكمبيوتر صممت وهي لا تحوي في ذاكرتها سنة ٢٠٠٠، وكنتيجة لهذا، ما إن يأتي القرن الجديد فستتوقف جميعها عن العمل، وسيؤدي ذلك كله إلى أن تنهار أنظمة البنوك والبورصة وبالتالي ينهار الاقتصاد العالمي لتحدث فوضى عالمية تؤدي إلى نهاية المجتمع والعالم..

خيال واسع ومثير كما ترون، ولكن للأسف تم إصلاح كل هذا بمجرد تحديث بسيط لأنظمة النوافذ.. من المثير التفكير في ما كان سيحدث لو لم يستطع أحد السيطرة على تلك المشكلة التي لم تكن بهذا

التعقيد.. تلك المتعة الخفية التي تشعر بها عندما تتخيل السيناريوهات المختلفة لنهاية العالم.. ولكن ليس هذا موضوعنا على كل حال..

ما كنت أفعله وقتها هو الانتظار..

الانتظار حتى منتصف الليل.. عندما ينام الجميع وأصبح وحدي تمامًا..

أنهض من مكاني متسللًا، وأصل أسلاك الهاتف بالكمبيوتر، وأتصفح بالساعات.. عن ماذا؟ لا أدري.. أي شيء له علاقة بما يحدث لي..

لم يكن الأمر بالبساطة التي ترونها اليوم، فوقتها لم تكن شبكات البيانات العالمية ومحرك البحث جوجل (Google) بالتطور الذي تعرفونه الآن، وكانت معظم البيانات والمعلومات والمواقع أجنبية.. لم تكن هناك مواقع عربية إلا أقل القليل.. وبالتأكيد لم يكن هناك ذكر لما أبحث عنه..

اكتشفت هذا بعد بحث طويل.. لا مصادر هناك.. لا معلومات.. أنت في الظلام تمامًا..

لا عمل هناك.. إذًا فلتنس الأمر..

مرت الأيام، ما بين جامعة وبيت.. لا جديد.. أنا و(مصطفى) وقتها كنا نتنزه بمعنى الكلمة في الجامعة.. لا محاضرات ولا استذكار.. مجرد نزهة.. وكان ذلك الوقت هو عندما كلمني عنه لأول مرة..

(علي)..

***

.«بقولك إيه.. أنا عايز أخليك تقابل (علي)»

.«مين (علي) ده؟»

.«ده قريبي.. من البلد»

.«أيوه ماله يعني؟ أقابله ليه؟»

.«يا بني (علي) ده موسوعة.. (شمس المعارف) ده أقل كتاب عنده أساسًا.. ليه في نفس السكة اللي أنا وانت عدينا بيها دي، وممكن نعرف منه حاجة مفيدة»

.«همممم»

.«بتفكر في إيه؟»

.«مش عارف.. لو هو فعلًا بيفهم في الحاجات دي، يبقى ممكن يساعدنا.. أو على الأقل يقولنا إيه اللي بيحصللنا بالظبط»

.«هو ده اللي بفكر فيه»

***

حاولت بعدها أن أتعرف على (علي) هذا.. حاولت أن أتقرب منه؛ لا لسبب إلا أن أفهم ما الذي كان يحدث بالضبط، لكنني لم أسترح له..

لم يكن شكله مريحًا..

طويل ورفيع، بدأ شعر رأسه في الزوال من الأمام في سن مبكرة، وعيناه تكنان أكثر مما تظهران..

هذا الفتى ليس مريحًا، وهو منخرط في أشياء عميقة وغريبة.. هذا واضح لكل ناظر وليس الاستنتاج صعبًا..

حتى نظرته لي.. تذكرني بنظرة مجرم مقيد.. ينتظر لحظة يغفل فيها عنه الضابط ليهرب ويؤذي أحدًا..

شعور عدم الارتياح لم يكن يفارقني، وبالطبع حذرت (مصطفى) منه ولكنه لم يستمع إلي.. ومما ساعد في هذا تلك الأفعال الغريبة التي كان يفعلها والأشياء التي يقولها..

كان يقول لي ولـ(مصطفى) أن لديه عشيرة من الجن تنفذ له أوامره..

هراء كما ترون طبعًا.. أنا أعرف أن ما نمر به غريب وغير معتاد، ولكن ليس لدرجة أن أصدق هذا السخف.. الوغد يكذب ويدعي في نفسه قدرات خارقة..

لكن هذا لم يمنع أنه كان يفعل أشياء غريبة فعلًا.. مثلًا كان يقول لي ولـ(مصطفى) أنه سيُحضر لنا فاكهة وخضراوات ليست هذه مواسمها، وكان يفعل هذا بالفعل.. وكانت الثمار تبدو طازجة وصحية كأنما قطفت من الحقل حالًا.. لم تكن الصوبات الصناعية التي تستخدم لزراعة المحاصيل في غير موعدها معروفة في مصر وقتها طبعًا.. فكان هذا كله غريبًا وغير معتاد.. ومما زاد الأمر غموضًا أنه كان يخلط ما كان يفعله ببعض الهراء المماثل عن الجن، ثم يخلط هذا كله بالقرآن وآيات منه ليضفي على ما يقول صبغة دينية، كأنه نبي، ومن الكفر ألّا تصدقه..

ظل الأمر على ما هو عليه، حتى فاتحنا في موضوع الآثار..

***

.«انتوا مش مصدقيني طبعًا.. صح؟»

نظرت له في صمت، بينما قال (مصطفى):

.«مش مصدقينك في إيه بس!؟ لأ طبعًا»

ثم نظر إلى النظرة التي على وجهي، وتنحنح في مكانه قليلًا ثم أضاف:

.«بقولك إيه.. قول له على موضوع الآثار»

نظرت لهما في دهشة..

.«آثار؟ آثار إيه؟»

نظر لي (علي) صامتًا ولا يتكلم، فأشار له (مصطفى) إشارةً خفيةً أنْ قل شيئًا، فقال في بطء:

.«أنا قلتلك قبل كده إن تحت أمري عشيرة جن كاملة مسخرهم.. وبينفذوا لي كل طلباتي»

نظرت له في سخرية صامتًا، ثم أومأت برأسي وأنا أرفع حواجبي علامة الاهتمام أن أكمِل كلامك، فتابع:

.«العشيرة دي عرفت وأنا بكلمهم في مرة إنهم يعرفوا مواقع الآثار والكنوز الفرعونية المدفونة.. ويقدروا يطلعوها بمنتهى السهولة»

أنهى كلامه ثم صمت تمامًا وهو ينظر لي ، فأدرتُ وجهي إلى (مصطفى) ونظرة الاهتمام التي تعلو وجهه..

يا له من هراء! لا أنكر أن الأمر مثير وجذاب ولكنه هراء بمنتهى البساطة.. هذا لا يمكن أن يحدث..

قلت له:

.«وإيه اللي مخليك متأكد إنهم هيطلعولنا الحاجات دي لو قلتلهم؟»

تراجع في مقعده صامتًا وهو ينظر إلى عيني مباشرة..

يعرف أنني لا أصدقه، ويعرف أنني أسخر من الأمر كله وأعتبره مزحة، وبرغم ذلك هو جالس بمنتهى الهدوء ليقول:

.«مش مصدق طبعًا.. صح؟»

لم أرد.. فرد (مصطفى) ليقول كلامًا ما لم أميزه لأنني كنت شاردًا في عيني ذلك الرجل..

لا أصدقه.. ولكنه يبدو واثقًا ممَّا يقول..

وعيناه.. هاتان ليستا عينَيْ كاذب..عميقتان كبئر تبتلعك بلا هوادة فلا تقدر على الفكاك..

(مصطفى) مازال يتكلم، وأنا لا أميز ما يقول..

فقط.. أنظر له..

وينظر لي..

***

.«انت مش مصدقه ليه مش فاهم!!؟»

قالها (مصطفى) ونحن نمشي في الشارع معًا عائدين للبيت بعد أن انتهى لقاؤنا مع (علي)، فقلت:

.«الموضوع مش إني مصدقه ولا لأ.. حتى لو أنا مصدقه، الكلام ده حرام.. حرام يا (مصطفى) ومش ده اللي إحنا عايزينه.. إحنا كنا عايزينه يفهمنا حاجة عن الكتاب أو اللي بيحصلنا، بس كده إحنا بنجر نفسنا لسكك منيلة وهتودينا ف داهية»

صمت ولم يرد، فتابعت:

.«وبعدين انت عملت إيه صحيح مع الخيال اللي كان بيظهرلك في المراية؟؟»

تجاهل سؤالي تمامًا وقال:

.«أنا عارف إنك عايز تخوفني.. بص.. أنا هقول لك على حاجة»

نظرت له متسائلًا، فتابع:

.«إحنا نعمل الموضوع ده مرة واحدة بس.. نعمل منه مصلحة وبعد كده شكرًا.. أنا نفسي مش هتكلم في المواضيع دي تاني خالص»

لم أرد وأنا أمشي في صمت.. فأضاف في غيظ:.«يابني دي المصلحة الواحدة بملايين»

.«(مصطفى).. أنا قلتلك اللي فيها.. الكلام ده حرام.. سحر وسرقة كمان، وأنا مليش دعوة بيه»

زفر في ضيق، وهو يمشي بجواري صامتًا تمامًا..

لا أنكر أن الأمر مثير.. أريد أن أتوصل لنهايته وأعرف ما الذي سيحدث، ولكن ليس معنى هذا أنني سأوافق على أن أكون طرفًا فيه.. هناك فرق بين أن تعجب بذكاء اللص الذي يسرق عشرات البنوك، وبين أن تكونه.. وأنا لن أسرق بنكًا بالتأكيد.. دعك من الآثار طبعًا..

ثم لماذا يتجاهل سؤالي؟ إنه يتعمّد ذلك..

.«يابني الخيال اللي كان بيظهر لك في المراية.. عملت معاه إيه؟؟»

مازال لا يرد.. أدرت عيني له..

هل أنا أهذي أم إن تلك التي تترقرق في عينيه هي دموع؟

لا.. أنا لا أهذي بالتأكيد..

***

مر الوقت بعد كل ذلك.. مر سريعًا..

انشغل (مصطفى) أكثر مع (علي) هذا في موضوع الآثار، وظل يتجاهل السؤال ولا يرد كلما سألته عن الخيال الذي كان يظهر خلفه في المرآة.. يتجاهلني بإصرار كأنه سيحترق لو أخبرني.. لماذا؟؟

لا أدري..

وبعد ذلك الوقت بفترة، عاد عمي (صلاح) من السفر أخيرًا.. وعلم بموضوع العمل الذي أخرجته من الحائط في بيت جدتي.. حكيت له كل شيء طبعًا، فاندهش أيّما اندهاش.. وكان ينظر لي نظرات غريبة لم تكن تريحني كثيرًا..

كنت أشعر أنه يراقبني بشكل ما.. شعور يعتريني في كل وقت ليؤكد لي ذلك..

هذا هو الأمر.. ذلك الشعور.. شيء أشبه بالشفافية أو الاستبصار.. أعرف وأشعر بأمور لا يمكن أن أعرفها بأي شكل.. أمر يذكرك قليلًا بالإدراك الفائق للحواس Extra Sensory Perception أو ESP..

شيء ما لا تفهمه ولا تدركه بالضبط، ولكنه موجود..

نفس الأمر كان يحدث مع (مصطفى)، ولكن بشكل أكثر رعبًا.. ولم يكن يخبرني كيف حتى كففت عن السؤال..

بعدما حكيت لعمي كل تلك الأمور، تعمقت أكثر في مجموعة الكتب التي كان يملكها.. هل تذكرون تلك الكتب كثيرة العدد التي كانت متناثرة في الغرفة يوم أن سرقت الكتاب منها؟

تركني عمي وقتها أبحث في تلك الكتب..

وبحثت.. بحثت كثيرًا، حتى وجدت أحد تلك الكتب على وجه الخصوص.. كتاب يدعى (سحر الشيطان المسمى بسحر فرعون) أو شيئًا من هذا القبيل..

ذلك الكتاب بالذات كان مقبضًا.. منفرًا.. ما إن رأيت شكله حتى اعتراني عدم ارتياح مفاجئ.. وكأن قبضة خفية باردة تعتصر قلبي اعتصارًا..

كان ذلك الكتاب يتكلم عن السحر المظلم.. السحر الأسود بلا تذويق.. بطريقة مباشرة تمامًا بلا أي تلميحات، وبشكل يجعل قلبك يرتجف بين ضلوعك.. قررت ألّا أصوره بسبب الضغط النفسي الذي كان يصنعه.. شيء يذكرني بنفس الشعور الذي شعرته عندما أمسكت (شمس المعارف) لأول مرة.. نفس الشعور إن لم يكن أسوأ..

الكتاب كله يتكلم عن الخلوة.. كل الطرق التي يحويها تتحدث عن خلوة معينة يظهر لك بعدها واحد من الجن أو تتملك قدرة معينة تستخدمها كيفما تحب.. حتى الطريقة الخاصة بقفل الرصد، ذلك الرمز المتغير المرسوم على جدار غرفة عمي.. تلك الطريقة كانت إحدى الطرق المذكورة فيه، وأعتقد أن عمي نفذها بمساعدة ذلك الكتاب..

بدأت بعد ذلك في مقارنة الأسماء والطرق والمصطلحات الموجودة به بكتاب (شمس المعارف).. تشابه كبير جدًّا بين الكتابين، وإن لم يكن نفس المضمون..

نفس الجو المقبض، ولكن الطرق والكلام مختلف..

بدأت أفهم.. ذلك المدعي الذي ألف كتاب (شمس المعارف ولطائف العوارف) -لا أعرف إن كان فعلًا (ابن البوني) أم إن هذه كذبة- كتب عن طرق سحر أسود حقيقي.. طرق شيطانية خلطها بالقرآن والأدعية وبعض من خياله ليعطيها صبغة دينية خادعة لكل من يريد أن يجرب.. هذه هي الخدعة..

هذا ليس إيمانًا أو دينًا أو علمًا.. هذا سحر أسود.. بلا تذويق وبكل وضوح..

حتى أتأكد أكثر، قررت أن أذهب إلى مشيخة الأزهر بعدها لأسألهم، وأخذت (مصطفى) معي لأثبت له الأمر..

من المذكور في (شمس المعارف) أن كل العلوم التي يحويها مأخوذة من كتاب آخر هو كتاب (الجفر) للإمام (علي بن أبي طالب).. فهل هذا صحيح فعلًا؟

يجب أن أعرف..

***

.«بعد إذنك.. يا حضرة الشيخ»

.«أيوة.. اتفضل»

.«أنا بس كنت عايز أسأل، فيه حاجة في علوم الدين اسمها علم الجفر؟؟»

.«لأ والله معرفش.. وحاول ماتسألش في الحاجات دي»

.«ليه؟»

.«.......»

***

.«بعد إذنك يا شيخ»

.«اتفضل يا ابني»

.«هو في حاجة في علوم الدين اسمها علم الجفر؟؟»

.«حرام»

.«حرام ليه؟؟»

.«حرام ليه؟؟» (صوت خطوات مبتعدة)

***

لماذا لا يريد أن يتكلم أحد!؟؟

هل الموضوع محرم وخطير لهذه الدرجة!؟ إذًا لماذا لا يخبرونني بهذا؟ هذا هو كل ما أريده.. أن يقول لي أحدٌ شيئًا..

نظرت لـ(مصطفى) في ضيق، فنظر لي وهو يهز كتفيه بمعنى أنه لا يدري ماذا يفعل..

جذب انتباهي شيخ وقور يمرُّ من خلفه.. شيخ تبدو على وجهه علاماتُ الوقار والطيبة والسماحة.. لماذا لا أسأله؟ لن يكون الرد أسوأ مما حدث بالفعل..

.«بعد إذنك.. ثانية.. يا حضرة الشيخ»

يلتفت لي ويقف مكانه، ثم يبتسم ابتسامة مشرقة ويقول:

.«أيوه يا ابني تحت أمرك»

قلت وأنا أشير نحو (مصطفى):

.«بعد إذنك.. كنت عايز أسألك بس على حاجة كده لقيتها في كتاب حاصل لي أنا وهو مشاكل بسببه. بس أرجوك تفهِّمنا بالراحة عشان إحنا مش عارفين فعلًا وعايزين حدّ يدلّنا.. وكل ما نسأل حد بيسيبنا ويمشي»

ارتفع حاجباه في دهشه، ثم قال في مودَّة:

.«لأ طبعًا لو أعرف هقول لك والله.. قولي، فيه إيه؟؟»

.«إحنا بس عايزين نسأل، فيه حاجة في علوم الدين ومنسوبة للإمام (علي بن أبي طالب) اسمها علوم الجفر؟؟»

صمت لحظة وهو ينظر لنا، ثم قال:

.«بص يا ابني.. مفيش حاجة اسمها علوم باطنية في الدين»

.«يعني إيه؟»

قلتها في حيرة، فقال:

.«يعني اللي قاله الله ورسوله هو اللي بنمشي عليه.. غير كده لأ.. فيه علوم دنيوية طبعًا مفيدة وكويسة هي العلوم اللي بتتدرس دلوقتي، لكن بالنسبة لعلم الجفر ده، ده بدعة شيعية عملوها عشان يدّوا للإمام (علي) مكانة خارقة.. لكن الحقيقة إن سيدنا (علي) بريء تماما من الكلام ده»

نظرت لـ (مصطفى) في ظفر، فهز رأسه غير مقتنع، بينما أضاف الشيخ:

.«مش هقولك انت قريت الكلام ده فين، بس نصيحة مني يا ابني»

نظرت له في تساؤل بينما تابع هو:

.«ابعد عنه أيًّا كان.. الكلام ده مش هيفيدك في حاجة غير إنه هيدمَّر لك حياتك وهيغضب عليك ربنا»

قالها واستدار مبتعدًا بلا كلمةٍ أخرى..

نظرت لـ (مصطفى) وقلت:

.«شفت.. مش قلت لك؟»

هزَّ رأسَه موافقًا..

نظرت في داخل عينيه محاولًا سبر أغوارهما ولكنني لم أستطع..

هل يصدق؟ هل هو مقتنع؟

لا أعرف..

نظر لي لحظة ثم قال:

.«يلا نروح»

ثم استدار مبتعدًا، فتحركت خلفه..

أعرف أنه لا يصدق ولا يقتنع..

سيكون عليَّ أن أقنعه بطريقة أخرى.. طريقة أكثر فعالية..

إن المستقبل مشرق..

مشرق ورائع إلى حد مخيف كما أقول دائمًا..

***

(الجزء القادم ليس من مذكرات (جمال))

لا أصدقه..

لا أصدق أنه توقف فعلًا عن الأمر..

تبدو لي تصرفاته متغيرة فعلًا، ولكن كل لص يغير تصرفاته بعد أن يُقبض عليه.. لا يعني هذا أنه تغير..

أنا أمه.. أعرف كل تصرفاته وكل حركة يتحركها، وكل كلمة ستخرج من بين شفتيه قبل أن ينطقها..

لن يمكنه أن يكذب عليَّ أو يخفي الأمر عني..

لا أدري إن كان هذا مسًّا أم ماذا، ولكنني أعرف شيئًا واحدًا..

هذا الـ.. شيء..

هذا ليس (جمال)..

***



.«مالك يا بنتي؟ الهم باين عليكي بقاله فترة.. إيه اللي مضايقك بس؟»

.«(جمال)»

.«ماله؟»

.«مش عارفة.. حاسة إن الولد بيضيع.. بيضيع وأنا مش عارفة أعمل له حاجة»

.«بسم الله الرحمن الرحيم.. اهدي بس يا بنتي، كل حاجة وليها حل»

(صوت بكاء خافت)

.«هو ماله بالظبط؟»

.«بيقرا كتب سحر»

.«.........»

.«بيقرا كتب سحر يا ماما.. وبيعمل اللي فيها.. وبيتغير»

***

(الفقرة القادمة من مذكرات والدة (جمال)).

حكيت لأمي..

حكيت لها كل شيء..

أعرف أنه كان لابد أن أبقي الموضوع سرًّا حتى لا تصبح فضيحة، ولكنني لم أعد أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك.. ثم إنني أثق فيها، وهي لن تخبر أحدًا.. إن السر في أمان معها كما هو في أمان في أعماقي بالضبط.. فلا فرق..

بحثت لي هي بعدها عن شخص يساعدني، أو على الأقل يخبرني كيف أساعد ابني.. بحثت كثيرًا..

خارج العائلة.. داخلها.. لا أحد يفهم، والمصيبة أنها لا تستطيع التكلم بوضوح.. فقط هي تسأل في صيغة غير مباشرة كأنها توجه أسئلة عادية، وهذا لا يجدي كما تعرفون.. بالإضافة إلى أن المدَّعين كثيرون.. أكثر من اللازم في الواقع..

ظلت تبحث لفترة بعدها، حتى وجدته..

(رأفت)..

شقيقي من أب أخر ، ويمكنني اعتباره في منزلة خال (جمال) بلا جهد.. كانت علاقتي به جيدة بالطبع إلا أنني لم أكن أعرف أن له خبرة في تلك الأمور.. اتَّضَحَ بعدها أنه ليس خبيرًا، وإنما هو متعمق في علوم الدين والقرآن، ويعرف كيف يمكنه أن يؤثر على من يخاطبه..

بعد جلسة سريعة بيننا حكيت له فيها كل شيء، قال لي بأنه لا يفهم كثيرًا في تلك الأمور التي تورط فيها (جمال) ولكنه يعرف كيف يمكنه أن يثنيه عن الأمر.. قال لي أن أحضره معي حتى يتسنى لهما التحدث..

ولم لا!؟ لا يوجد شيء أخسره على كل حال..

***

بعد رحلة الأزهر إياها، زاد لديَّ اليقين أكثر بأن الأمرَ كلَّه محرَّم.. وهو ما كنت أعرفه منذ فترة. ليست هذه مشكلة..

المشكلة هي في (مصطفى).. مشكلة كبيرة..

إنه ينجرف.. لا يسمع أيَّ كلمةٍ منِّي ولا يصدق، ومتصلب الرأي لدرجة عجيبة فعلًا.. لم يكن هكذا مطلقًا ونحن صغار.. لقد تغيَّر.. تغيَّر تغيُّرًا كبيرًا، وأجسر على القول بأنه مخيفٌ كذلك..

لن أنسى أبدًا مشهد الكلب الذي لا يريد الاقتراب منه.. لن أنسى الكلاب التي لا تتحرك من أماكنها وهو موجود.. لن أنسى الذعر الذي يوقعه في نفسي في بعض الأحيان..

لحظة.. بعض الأحيان.. هذا هو بيت القصيد..

(مصطفى) لا يتصرف بتلك الطريقة العجيبة وليست له تلك الشخصية المخيفة طوال الوقت، بل هي تظهر وتختفي..

أحيانًا.. وليس دائمًا..

هذا مهم.. شيء ما يخبرني بأنه مهم، ولكنني لا أفهم ما الذي يعنيه ذلك بالضبط.. الأمر أكبر مني.. والأدهى أنه لا مراجع أتعلم منها أو أشخاصًا أسألهم.. لا أدري كيف أستخدم طرف الخيط هذا..

أحيانًا أشعر أن له أكثرَ من شخصية.. أحيانًا تكون له تلك الشخصية الحازمة القوية المخيفة التي يتسمَّر أمامها أعتى الرجال، وأحيانًا هو ذلك الضعيف البائس الذي تدمع عيناه عندما أسأله عن الخيال الذي يظهر خلفه في المرآة..

وذلك الخيال.. ما هو؟ هل هو حقيقي؟ ولو كان حقيقيًّا فما معناه؟ ما الذي يفعله به؟ هل يتحكم به بشكلٍ ما؟ أسئلة وأسئلة.. أسئلة لا حصر لها تتزاحم داخل ذهني، ولا تترك لي وسعًا لأفكر في أي شيء آخر، وبالتالي يحولني هذا إلى ذلك الشخص الشارد المتوحد الذي كنته منذ فترة، ويدفع أمي للشك فيَّ أكثر..

أمي التي تريدني أن أقابل شخصًا ما.. شخصًا يدعى (رأفت)..

أعرفه بالطبع؛ فهو في مثابة خالي.. ولكن ما الذي يريده بالضبط؟ لا يمكن أن يكون الأمر لمجرد أنه يفتقدني.. بالتأكيد له عَلاقة بالكتاب.. له عَلاقة بما تظنه أمي التي لا تنفك تنظر لي نظرات يمكنها أن تحرق..

الموضوع يفلت من بين يدي وأشعر أنه سيتحول إلى مشكلة.. لا يمكنني أن أرفض.. يجب أن أقابله.. أذهب مع أمي إلى بيته..

الملل.. أكثر ما يثير أعصابي هو الملل..

سيكون يومًا طويلًا..

***

.«عامل إيه يا (جمال)؟»

نطقها (رأفت) وهو ينظر إليّ مبتسمًا ونحن نجلس في صالون شقته أنا وأمي، فابتسمت مجاملًا وأنا أقول:

.«الحمد لله أنا تمام وكويس.. إنت أخبارك إيه يا خال؟»

.«الحمد لله تمام.. انت في سنة كام دلوقتي؟»

.«أولى جامعة»

هز رأسه متابعًا وقال:

.«كلية ايه؟»

.«تجارة.. عين شمس»

.«ربنا معاك»

ساد الصمت بعدها لبرهة، قبل أن تنهض أمي قائلة:

.«طيب أنا هقوم أخش أعمل لنا شاي وجاية تاني»

قال (رأفت) وهو يهم بالنهوض من مكانه:

.«ما تتعبيش نفسك»

نظرت له نظرة ذات معنى وهي تقول:

.«لأ مفيش تعب ولا حاجة.. ده زي بيتي بردو»

واتجهت إلى المطبخ بخطوات سريعة..

أفهم ما فعلته بالضبط؛ فأنا لست غبيًا.. تريد أن تخلي الجو له ليتكلم.. ولكنه صامت كالأسماك..

كأنما سمع أفكاري، قال وهو ينظر لي في ثبات:

.«قولي صحيح.. والدتك قالت لي إنك عندك كتاب اسمه غريب كده.. (شمس المعارف) باين أو حاجة زي كده، وأجندة جواها تجميع لحروف القرآن المتقطعة.. بتعمل إيه بالحاجات دي؟»

ابتلعت ريقي وأنا أقول:

.«ما بعملش بيهم حاجة.. مجرد مغامرات طفولة كنت بتسلى بيها.. كنت ببحث في حروف القرآن اللي بيقولوا عليها بتدِّي قدرات خاصة للي يفهمها ويعرف يستخدمها.. بس خلاص بطلت تدوير في الموضوع»

رفع حاجبيه وهو يومئ برأسه قائلًا:

.«بطلت؟ متأكد؟»

.«أيوه طبعًا.. بطلت من زمان كمان»

هز رأسه متفهمًا، وصمت لحظة ثم قال:

.«بص يا (جمال).. أنا مش هكدب عليك.. إنت مش صغير.. مامتك طلبت مني إني أكلمك في السكة اللي انت ماشي فيها دي، عشان هي بتثق فيا وعشان انت زي ابني.. انت بنفسك شايف شخصيتك وطريقتك بتتغير إزاي»

هذا مجددًا.. لماذا لا يفهم أحد أو يصدق أنني تخليت عن الموضوع فعلًا!!؟؟ كل ما أفعله الآن هو ردود أفعال على تلك المواقف التي يبدو أنها لا تحدث إلا لي.. وشخصيتي؟ ماذا يعرف هو عن شخصيتي!؟؟ أنا أكبر الآن.. خرجت من مرحلة الإعدادية والثانوية إلى المرحلة الجامعية.. بالطبع شخصيتي تتغير.. هذا طبيعي جدًّا وليس سحرًا..

قلت في ضيق:

.«أيوه يا خالي عارف، بس أنا فعلًا مش ببحث في الحاجات دي دلوقتي.. حتى الكتاب والأجندة خدتهم ماما وأنا مش بدوَّر عليهم خلاص ومش محتاجهم»

قال وهو ينظر إلى عيني مباشرة:

.«انت عارف إن الكتاب ده كتاب سحر صح؟»

تسمَّرت مكاني لحظة قبل أن أومئ برأسي إيجابًا، فتابع هو:

.«وعارف كتب السحر بتعمل إيه في الناس؟ عارف إن السحر بكل صوره ومهما كان حرام؟ الكتاب اللي معاك ده.. (شمس المعارف).. الكتاب ده أنا سمعت عنه كذا مرة قبل كده.. ومكانش كلام كويس.. الكتاب ده خطر جدًّا يا (جمال) ولو ما سبتوش وبعدت عنه مش هيسيبك ف حالك»

هززت رأسي وأنا أقول:

.«أنا والله مقتنع بكلامك وعارف إن كل ده غلط.. حتى سألت في مشيخة الأزهر وقالولي إن الموضوع بيوصل للكفر.. أنا خلاص مش هركز في الموضوع ده تاني»

نظر لي في شك، ثم قال بعدم اقتناع:

.«طيب.. يا ريت تبقى مقتنع فعلًا بالكلام»

.«السحر محرَّم في القرآن يا خالي.. مفيش حاجة تتقال.. لازم أبقى مقتنع»

.«أما نشوف»

دخلت أمي في تلك اللحظة حاملة صحفة عليها ثلاثة أكواب من الشاي وضعتهم على المنضدة أمامنا، ثم قالت:

.«ها.. إيه الأخبار؟»

نظرت لها في عتاب، بينما قال (رأفت):

.«لأ تمام.. (جمال) كويس وزي الفل»

ثم أدار بصره لي وتابع في بطء:

.«وأكيد عارف وفاهم هو بيعمل إيه»

***

توالت الزيارات بعدها بيني وبين خالي (رأفت)، وتوطدت العلاقة إلى أقصى حدودها..

أصبحت أنا وهو أصدقاء برغم فارق السن.. شيء يذكرك بجلساتي مع عمي (صلاح).. نفس العلاقة والمودة..

كان يعمل في مجال الجرافيك، وكان شديد البراعة فيه، لدرجة جعلتني أحب ذلك المجال أكثر مما كنت أحبه.. كنت أريد التعلم منه.. وفعلًا علمني الكثير فيه، بداية من برنامج الـ (دايركتور Director) و(فلاش Flash Player) اللذين كانا تابعين لشركة (ماكروميديا Macromedia) وقتها، قبل أن تستولي عليهما (أدوبي Adobe).. ليس هذا موضوعنا على أي حال..

توطدت العلاقة بيني وبينه، ومع الوقت بدأت أدرك أنه كانت لديه مشكلة كبيرة.. ما هي؟

دعوني أصفه لكم أولًا..

خالي (رأفت) كان وسيمًا.. شديد الوسامة في الواقع.. وسيم ومتدين، بالإضافة إلى أنه كان فنان جرافيك يعرف ما يفعله حقًّا.. كان من أفضل مصممي الجرافيك الذين رأيتهم في ذلك الوقت.. ولم يكن فقيرًا قَط.. بل كان ميسور الحال بطبيعة عمله في مجال الجرافيك الذي كان يمثل طفرة كبيرة في ذلك الوقت، بالإضافة إلى تعويضات ضحايا الحرب التي كان يحصل عليها من الدولة؛ لأن والده كان ضابطًا كبيرًا في الجيش واستشهد في حرب ١٩٧٣.. دعك طبعًا من والدته –التي هي جدتي (أم والدتي)– التي سافرت إلى الخليج لفترة طويلة نسبيًّا جمعت فيها ثروة صغيرة..

وسيم.. متدين.. فنان جرافيك.. ثري.. يملك شقتين؛ واحدة منهما في شبرا وهي التي كان يعلمني فيها استخدام برامج الجرافيك.. أشياء تجذب أي فتاة بالطبع، وكان هذا يؤهله للزواج من أي واحدة يختارها.. وهنا بالضبط كانت المشكلة..

في البداية يبدأ الموضوع طبيعيًّا جدًّا.. تعجبه فتاة، فيذهب لخطبتها ويشتري لها الذهب والشبكة ويحضر للعُرس، ويسير كل شيء على ما يرام، حتى تفسخ الخطبة فجأة بلا سبب مقنع..

حدث ذلك الأمر أكثر من عشر مرات.. حتى بدأت جدتي تقتنع أن الأمر غريب حقًّا.. لا يمكن أن يكون هذا طبيعيًّا..

وبعد فترة من كل ذلك، بعد أن أتقنت موضوع الجرافيك ووعدني هو بأن يدربني في شركة جرافيك كبيرة، كنت عنده في البيت هو وجدتي.. كان اليوم يسير بشكل طبيعي..

و حدث بعدها شيء غريب للغاية..

***

.«بس.. فهمت كده؟»

نظرت له مبتسمًا..

.«أيوه.. كله تمام.. أنا هبقى أحسن منك كمان في الجرافيك»

ابتسم ابتسامة واسعة وهو يقول:

.«يا رب ياخويا.. أشوفك مصمم جرافيك قد الدنيا كده وأفرح بيك»

ضحكت وأنا أقول:

.«بكره كلمة (قد الدنيا) دي»

هم بالرد، في نفس اللحظة التي دخلت فيها جدتي، وهو معها..

ذلك الشخص غريب الأطوار..

يرتدي ملابس الشيوخ، وعلى رأسه تلك العمامة المميزة.. لا يبدو مخيفًا، بل تعلو وجهه طيبة وسماحة لا شك فيهما..

أشارت له جدتي أن ينتظر ويجلس في الصالون، بينما سألها خالي:

.«مين ده؟؟»

أشارت له بيدها أن ينتظر، ثم اقتربت منه وهي تقول:

.«ده الشيخ (حسن) يا (رأفت)»

نظر له لحظة ثم أدار وجهه إليها وهو يقول:

.«أيوه ماله يعني؟ بيعمل إيه هنا؟»

صمتت تمامًا وهي تنظر إليه، فهز رأسه رافعًا حاجبيه متسائلًا، فقالت هي بلهجة الأمهات المحفوظة:

.«انت عارف يابني إني عايزة أفرح بيك قبل ما أموت.. أنا مليش غيرك»

صاح هو ثائرًا:

.«جايبالي مشعوذ البيت!!؟»

.«يابني لأ، ده شيخ مبروك أوي، وهيقدر يعرفلنا ليه كل الجوازات بتاعتك بتبوظ و...

قاطعها هو بنفس الثورة:

.«حرام.. حرام يا أمي.. حرام.. ده سحر وشعوذة وإحنا ناس حافظين القرآن.. ما يصحش كده»

صمتت جدتي تمامًا وهي تنظر إليه مذهولة، ثم سالت الدموع على وجنتيها وهي تقول:

.«بتزعقلي يا (رأفت)!؟ كل ده عشان عايزة أفرح بيك!؟»

صمت لحظة ثم قال:

.«أنا آسف يا أمي ما عاش ولا كان اللي يزعقلك، بس إنتي عارفة أنا بكره المواضيع دي قد إيه»

ظلت الدموع تنحدر على وجنتيها وهي تقول بلهجة تمزق نياط القلوب:

.«ماشي يا (رأفت).. ماشي يا بني.. أنا عارفة إني هموت قبل ما أفرح بيك»

زفر هو زفرة حارة، وظل ينظر لها لدقيقة ثم قال مستسلمًا:

.«بعد الشر عنك يا أمي إن شالله أنا.. دخليه طيب نشوف هيعمل إيه»

نهضت جدتي ودخلت للرجل في الصالون وأشارت له أن يأتي..

دخل علينا هو وهو يقول:

.«بسم الله الرحمن الرحيم»

ثم أخرج مصحفًا من جيبه وهو يتابع واضعًا يده على المصحف:

.«يا حاجة في حاجة مش صح»

نظرنا جميعًا له في تساؤل، فتابع هو بلهجته الريفية المميزة:

.«ابنك راجل كويس ومافيهوش عيب.. بس في حد عامل له عمل.. أنا هحتاج حد يبقى معايا.. ناديلي حد من اخواته أو قرايبه»

بالطبع.. عمل.. هذا ممتع جدًّا.. ترى متى يأتي دور ملك الجن الغاضب، والحمامة الحزينة التي لا تبيض، والهدهد اليتيم؟؟ ، إنني أتحرق شوقًا..

أخذ يدير عينه فينا لحظة، ثم وقعت عيناه عليَّ.. فقال فجأة:

.«خلاص لقيت اللي ينفع»

واقترب مني وهو يتابع:

.«(جمال) ده نجمه تقيل»

كيف عرف اسمي!؟ هل أخبرته جدتي به!؟ ولماذا تخبره!؟ هذا غريب حقًّا..

مد يده جاذبًا إياي من يدي وهو يقول:

.«تعالى»

وجلس بعدها القرفصاء على الأرض ومعه المصحف، ثم قال:

.«اقعد قصادي»

أدرت وجهي إلى خالي (رأفت) وجدتي، فأومأ لي الأول برأسه إيجابًا في نفاد صبر.. لابد أنه يتحرق شوقًا مثلي.. يتحرق لطرد هذا النصاب وركله في مؤخرته..

جلست أمامه بينما تابع هو:

.«أنا هوديك مكان بعيد، بس عايزك تركز جدًّا وتشيل أي حاجة من دماغك»

لا بأس.. لم يطلب خصلة من شعري بعد..

.«ماشي»

أخرج قلمًا غريب الشكل، ثم اقترب مني وهو في نفس وضعية القرفصاء، ورسم مربعًا فوق عيني.. في منتصف جبهتي بالضبط..

ما هذا؟

أشعر بأنني أرى مكانا آخر تمامًا.. ليس هنا.. ما الذي يحدث بالضبط؟

أسمع صوته يقول لخالي:

.«قولي.. انتو كنتو عايشين في مكان تاني غير هنا؟»

.«آه.. شقتنا التانية اللي كنا عايشين فيها على طول.. دي لسه ناقلين فيها قريب»

أسمع صوته يوجه الكلام لي وهو يضغط على كفي في قوة..

.«روح هناك يا (جمال).. وغمض عينك»

أغمض عيني..

أشعر بأنني أطير.. كأن أحدًا يقذفني بقوة في الهواء.. أطير إلى الأعلى.. أطير أكثر..

ثم شعور السقوط هذا..

أسقط من حالق..

أسقط وأسقط، وتتسارع دقات قلبي ويتدفق الخوف في عروقي ممتزجًا برائحة الأدرينالين في الهواء، حتى أجد نفسي فجأة أمام ذلك الباب..

باب الشقة الأخرى الأنيق ذو المَقبِض الذهبي..

أمد يدي..

أفتحه.. صوت الصرير المميز..

أدلف إلى الداخل..

يصف لهم هو ما أراه وكأنه يرى من خلال عيني..

.«عدي من جنب المراية.. ده حمام ده صح؟ تمام.. خش أوضة خالك»

أتجه إلى غرفته.. أفتح الباب..

.«فيه قميص هناك أهو.. شايفه؟»

أومئ برأسي إيجابًا، فلا أدري ما إذا كنت أحلم أم إن هذه حقيقة.. لا أفهم..

.«روح هاته»

أتجه إلى القميص الملقى على السرير.. ألتقطه..

كفه تنقبض على يدي بقوة رهيبة.. ساخنة للغاية لدرجة أنها تلسع، وشديدة القوة لدرجة توشك فيها على تحطيم كفي..

.«يا وكلاء الرياح.. يا وكلاء الأرض.. عرفوني فين القفل باسم رب العالمين»

ماذا يقول؟ هل يهلوس أم ماذا؟ فتحت عيني ونظرت إليه لينقبض قلبي ويوشك على القفز من مكانه..

وجهه ينقبض وينفرج وعينه بيضاء تمامًا بلا حدقة.. اللعاب يسيل من بين شفتيه.. يضع يده اليمنى على المصحف بينما يمسك كفي بيده اليسرى..

يده تؤلمني للغاية.. أحاول أن أحرر كفي فلا أقدر..

.«يا وكلاء الرياح.. يا وكلاء الأرض.. عرفوني فين القفل باسم سيد المرسلين»

مازال وجهه ينقبض وينفرج، وزاد على هذا أنه بدأ يهتز كالمجانين..

الخوف يستولي علي.. أشعر بأنه مجنون وأريد أن أقفز من مكاني، لكنني لا أقدر على التحرك..

رائحة الأدرينالين في الجو..

يهتز وجهه.. يسيل اللعاب على شفتيه..

ثم هدأ فجأة..

هدأ تمامًا وكأن شيئًا لم يكن..

نظرت إلى عينيه لأجد الحدقة فيهما من جديد.. ترك يدي أخيرًا فكأنني حررتها من تحت سيارة.. تنبِض في ألم..

يرفع يده من على المصحف.. ما هذا بالضبط؟

قطعة حمراء من القماش، تشبه تلك التي كانت في جدار شقة جدتي..

عمل!!؟ مستحيل!! كيف فعلها!!؟؟

يوجه كلامه لجدتي وخالي..

.«اللي عمل العمل ده حد كان عايز يتجوز (رأفت)»

كيف عرف اسمه!؟ هل أخبرته به جدتي أيضًا!؟

.«حد من البلد جه بات عندكم يومين وعمل له العمل ده»

ينظر لهما وينظران له في ذهول..

.«العمل كان مربوط في طلع نخلة على البحر.. عشان ماحدش يعرف يجيبه»

البحر؟ أي بحر؟ لا أفهم..

تتكلم جدتي أخيرًا بأنفاس منبهرة:

.«مين اللي عمل العمل ده؟»

ينظر لها صامتًا.. فتكرر السؤال:.«مين يا شيخ (حسن)؟»

تتحرك شفتاه ليتكلم:

.«مش هقدر أقول»

ثم ينظر إلى خالي نظرة ذات مغزى مضيفًا:.«لازم تعرف انت»

أدير وجهي لخالي..

تلك النظرة التي تعلو عينيه..

نظرة لم أر مثيلًا لها في حياتي..

لا.. ليس الذهول.. ولا الخوف فهو أمر مفروغ منه..

إنه التوجس..

***

(نهاية الحلقة الثامنة)

(الحلقة التاسعة)

بارانويا

Paranoya

تجري هي..

تجري وتركض أنت خلفها..

تلهث.. أنفاسك متسارعة.. وهي لا تتوقف..

لماذا تتبعها؟ لا تعرف.. لماذا يتبع الرجال النساء الساحرات؟ لأن الفتنة تذهب كل عقل..

هذا لو كان وصف الفتنة لائقًا عليها.. فبعد كل شيء، لا يمكنك وصف الملائكة بالجمال.. وهي أجمل من الملائكة كما تتخيلهم في خيالك.. دعك طبعًا من جسدها.. فهذا موضوع آخر..

تجري وتجري أنت خلفها.. تتسابق الأشجار والحشائش على جانبي الطريق الذي تجري فيه..

تلتفت لك وتغمز بعينها في إغراء.. تتابع طريقها.. تتبعها أنت..

ذلك البيت الريفي يلوح لك من بعيد..

تفتح هي الباب الخشبي.. تدخل وتتبعها أنت إلى الداخل.. تغلق الباب خلفك..

تستند هي إلى الحائط الخشبي كما تفعل دومًا.. تضع يديها خلف جسدها وشعرها الطويل ينسدل على جسدها، وثوبها شبه العاري يعدك بما لم يملكه بشر من قبل..

تقترب منها.. تنظر إلى شفتيها.. ثمرة ناضجة تفتحت في أجمل بساتين الجنة.. ثمرة تقف أمامك وتنتظر أن تقطفها..فهل تقترب؟

تقترب.. تقترب من شفتيها.. تحيط خصرها بذراعيك.. ملمسها يجعل جسدك ينتفض حتى النخاع.. مرآها يشعرك بأنك رضيع خرج من رحم أمه ليرى النور لأول مرة.. لا يمكن أن يقاوم رجلٌ مثلَ هذا السحر..

المسافة بين الشفتين تتقلص.. عيناك مغمضتان بشكل لا إرادي.. لا شيء يهم بعد الآن سوى ملمس جسدها بين يديك وعبق ريحها الذي يفعم أنفك بعبير أزكى من ريح الفردوس..

تلمس شفتاك شفتيها أخيرًا..

لا.. لا يمكنك أن تصف.. إنه شعور لا تصلح التعبيرات البشرية الفانية لوصفه.. شعور لم يجربه أحدٌ من قبل..

تشعر بأن الكون كله ملك لك، ويتمثل بكل نجومه وشموسه وأقماره في تلك القُبلة التي تبادلك إياها..

تضمها إليك أكثر ويداك تجريان على ظهرها..

هل كان الشيوخ يخدعونك عندما كانوا يعدونك بالجنة مقابل الإيمان؟ يا لهم من حمقى! أنت مستعد الآن لأن تؤمن بوجود الجنة لو لم تكن تؤمن بوجودها، فلابد أن تلك الحورية التي بين ذراعيك أتت منها..

تضمك هي إليها أكثر.. تشعر بعقلك وقد شُلَّ تمامًا وتوقف عن التفكير..

تشعر بذراعيها تلتفان حول عنقك بقوة غير طبيعية وتقيدان حركتك تمامًا، فلا مهرب ولا فكاك..

تشعر بتضاريس جسدها التي تلمسك تتغير.. وقوة ذراعيها حول عنقك تتزايد حتى توشك على الاختناق..

الذعر.. الذعر يتزايد..

تفتح عينيك في وضعك المقيد لتنظر إلى ما يحدث، فلا تستطيع أن ترى كل شيء من هذه الزاوية.. وقوتها تتزايد.. توشك عظامك على التحطم على جسدها..

تحاول أن تحرر جسدك من قبضتها، فلا تقدر.. كريشةٍ وسط عاصفة..

تحاول أن تدير عنقك لتنظر عينك إليها، فلا ترى شيئًا سوى تلك الأسنان الطويلة اللامعة..

أسنان أشبه بأسنان الغيلان..

تنتفض في هلع وأنت تسمع صوت عظامك وهي تتحطم في بطء..

تشعر بالأسنان اللامعة وهي تخترق عنقك..

تظلم الدنيا أمامك تمامًا..

***

تمر الأيام..

تمر في سرعة فلا أشعر بها..

بعد ما حدث مع ذلك الشيخ والحجاب الذي خرج من تحت كفه، اكتسبت أنا شهرة كبيرة في العائلة بصفتي طارد الأشباح الرسمي الذي يعرفونه.. وهو شرف لا أقدر على ادعائه طبعًا..

كل من يريد أن يعرف شيئا أو يطرد شبحًا أو جنيًا أو شيطانًا كان يتحدث معي أنا بصفتي الدجال الشهير (جمال فرج).. حاولت أن أساعد كل من يطلب مني مساعدة بصدق، وهو ما لم أوفَّق فيه كثيرًا لأنني أنا نفسي لم أكن أفهم شيئًا.. كل ما كان يحدث لي كان يحدث بلا سيطرةٍ مني عليه.. كقدرةٍ لا أستطيع التحكم بها..

بدأت بعدها سياسة التهرب الشهيرة.. أتهرب من المكالمات والمقابلات التي أشعر بأنها ترمي إلى شيء ما من هذا القبيل.. وجزء من هذا يرجع إلى وعدي لأمي بأنني ابتعدت عن ذلك الطريق تمامًا.. لم أكن أريد التراجع عن قسمي..

وفي ذلك الوقت بدأت جلساتي أنا و(مصطفى) تتجه إلى شارع الضباب.. وبدأت تتخذ موضوعًا محددًا..

أنتم تعرفون شارع الضباب.. ملتقى العشاق في جامعة (عين شمس).. إلا أن الموضوع كان يختلف بالنسبة إلي أنا و(مصطفى) نوعًا ما..

دومًا ما يحاول أن يقنعني بأن ضربة آثار واحدة ستكفينا وسننسى كل ذلك الأمر تمامًا.. وفي نفس ذلك الوقت كان قد تعرف على شخص ما يدعى (ريمون)..

(ريمون) هذا كان ما يسمونه بالـ(خِرْتي).. بكسر الخاء..

تعني الكلمة –العاميَّة جدًّا بالمناسبة– أنه شخص يفعل للسياح ما يطلبونه، سواء كان نزهات في أماكن أثرية عادية أو مغلقة وممنوعة، وربما تهريب الآثار لو كان محترفًا..

مهنة معروفة جدًّا لمن يفهمون في تلك الأشياء في مصر.. ليس هذا مهمًّا على أي حال..

(ريمون) هذا كان من شبرا مثلي أنا و(مصطفى)، إلا أنه كان لا يستقر في مكان.. وكان يعمل مع عائلة من تجار الآثار وينقب عنها –الآثار– في أي مكان يرسلونه إليه..

بعد أن تعرَّف (مصطفى) عليه بدأ في التقرب منه بروية.. وطبعًا أعطاه عن نفسه فكرة أنه لا يشق له غبار في موضوع الآثار، وهو لا يفهم أو يدري شيئًا.. كان يعتمد على (علي) الذي كان يغسل له مخه بشكلٍ لا أفهمه حتى اليوم..

التقى بعدها (علي) و(ريمون) بترتيب من (مصطفى).. وتعرفا على بعضهما وتبادلا الخبرات كأي مقابلة عمل..

كل هذا جميل؛ ولكن ما علاقته بموضوعنا بالضبط؟ دعوني أخبركم..

قال (ريمون) لـ(علي) أن هناك شخصًا من معارفه في الصعيد يدعى عم (سليمان).. رجل صعيدي جدًّا لو صح التعبير.. أسمر اللون ذو لهجة محببة تبدو على وجهه ملامح الطيبة، إلا أنه لم يكن طيبًا جدًّا كما سنعرف حالًا..

ذلك الرجل كان يملك بيتًا في الصعيد، وأخبره المشايخ أن بيته يضمُّ آثارًا مدفونة تحت أرضه.. حفر الرجل بالفعل ووجد بعض الأشياء البسيطة، ولكنه كان طماعًا.. دومًا ما كان يطمع ويطمح إلى المزيد هو وكل من يكلمونه ويساعدونه في الحفر خلف أعين الحكومة والشرطة..

واصل الرجل الحفر بعدها.. واصله كثيرًا، حتى وجد حجرًا كبيرًا جدًّا يذكرك بحجم حجر رشيد كما تراه في الصور.. طبعا ذلك الحجر لم تعمل معه أي فؤوس ولم يكن أحدٌ يقدر على حمله.. يحتاج إلى شيء ما.. شيء أكبر.. ليس ونشًا بالطبع.. ونش بدون أن تعلم الحكومة!؟ هذه مصر وليست الصومال..

وجد الرجل نقوشًا كثيرة على الحجر، ولم يفهم منها شيئًا.. سأل العديد من الناس فنصحه الشيوخ بأن يجلب من يفهم في تلك الأمور.. أي أمور؟

الجن بالطبع..

قالوا له بأن تلك الآثار المدفونة تكون محروسة من جن، ولابد أن يكون معه جن أقوى من الجن الحارس حتى يستطيع فتح المقبرة واستخراجها بدون أن تحدث كارثة.. كلام يذكرك بكلام المجاذيب الذين يملأون الطرقات خلف مسجد الحسين، والعجيب أن الناس جميعًا كانت تصدقه..

بدأ (علي) يهتم بذلك الأمر.. وقابلت أنا (ريمون) و(علي) و(مصطفى) بعدها.. حكوا لي الأمر كله فلم أسترح له..

لسبب ما كنت أصدق كل كلمة تخرج منهم.. لا أدري لماذا.. لقد رأيت من قبل ما يؤهلني لتصديق تلك الأمور وابتلاعها بسهولة.. ولكنني لم أكن أريد التدخل فيها بأي صورة من الصور.. كنت أحاول أن أبعد (مصطفى) عن الأمر بشتى الطرق، وهو ما لم أنجح فيه إطلاقًا.. كان مصرًا كالجحيم.. يسير إلى مصيره بحتمية أبطال الأساطير الإغريقية..

أشعر بشيء ما.. قلبي ينتفض ويرتجف معلنًا أن مصيبة ما قادمة.. مصيبة لن أقدر على منعها.. و(مصطفى) لا يسمع.. أحيانًا كثيرة كنت أشعر أنه ليس هو المتحكم في نفسه.. كأنه يريد أن يبتعد عن الأمر، ولكن شيئًا ما لا يعطيه الفرصة ليتحرر.. كأنه سجين.. أسير شيء ما..

وفي نفس الوقت بدأت أسوأ كوابيسي تتحقق..

بدأت أراه ..

***

تفتح عينيك..

تنظر إلى سقف الغرفة كما تفعل دائمًا..

ظلام يطالعك.. لا شيء سوى الظلام..

ولكنك لسبب ما تشعر بشعور غير مريح..

تشعر كأن أحدًا ما يراقبك.. يراقبك من مكان خفي.. شعور يستولي على أعماقك ويورثك شعورًا بالعجز والتعاسة ممتزجَيْن بالخوف في خليط لا يمكنك وصفه.. تشعر به قويًّا متزايدًا كلما أغلقتَ عينيك أو تواجدت وحدك في أي مكان..

تنهض معتدلًا في مكانك على السرير..

تنظر إلى (عمر) أخيك الذي يغفو على سريره المجاور لسريرك.. تركز عينك على قدمه التي تهتز.. إنه يحاول أن ينام.. ليس نائمًا فعلًا..

تزفر في حرارة وأنت تعود إلى وضعك من جديد، فتلمحه بطرف عينك..

ينتفض قلبك في ضلوعك وأنت تدير عينك إلى الزاوية التي ينظر إليك منها..

يقف هناك.. في الركن، عند الحائط بجوار باب الغرفة.. يقف ويداه جانبه لا يتحرك كالتمثال..

تعتدل في مكانك بعصبية وأنت تضيء نور الغرفة بجوار سريرك فيعم الضوء كل ظل في الغرفة، إلا هو..

الضوء يسطع أمام وجهه بالضبط، ولكنك لسبب ما لا تقدر على تمييز ملامحه..

لا تميز شيئا سوى أنه أسود البَشَرَة، مفتول العضلات بشكل مبالغ فيه، ويقف ثابتًا كحراس الملوك.. لا يتحرك قيد أنملة ولا يبدو عليه حتى أنه يتنفس..

لا تميز ملامح وجهه، ولكنك تميز عينيه ناصعتي البياض وهما تحدقان فيك. فتعطيه مع بشرته السوداء التي تَحُوطها من كل اتجاه مشهدًا يمكنه أن يلقي الرعب في قلوب أعتى الرجال.. منظر يقتل..

لا تدري كم من الوقت مر وأنت تحدق فيه وهو يحدق فيك.. تشعر بـ (عمر) يتحرك بجوارك ويهم بالنهوض من على السرير فيفاجأ بالمشهد هو الآخر.. يتسمر في مكانه..

من موقعه هو يرى الغريب ينظر له مباشرة، بينما تراه أنت ينظر لك في نفس اللحظة.. ولا تدري كيف.. كأنه شخصان وليس واحدًا..

يمر الوقت.. يمر وأنت تحدق فيه متسمرًا لا تقدر عضلات جسدك وأعصابك على تحريكك من مكانك.. كأن عينيه تنومانك مغناطيسيًّا.. لا تشعر بشيء سوى البئر التي تقبع في قاع أعينه.. بئر سحيقة لا قرار لها..

ثم –في بطء– يرفع كفه اليسرى في مواجهتك أنت وأخيك.. تنظر إلى كفه السوداء الفاحمة، فترى ذلك النقش المضيء عليها.. نفس النقش الذي كنت تراه على جدار شقة عمك (صلاح)..

إنه قفل الرصد..

***

.«الرسمة دي حاجة اسمها قفل الرصد»

.«يعني إيه؟»

.«ده زي ما انت شايف، رسم بيترسم على الحيطة في أي مكان انت بتقعد فيه، ولو جه أي حد بعدك دخل المكان ده، اللي رسم القفل بيعرف»

***

يحدق فيك.. وتحدق فيه..

تسمع صوت (عمر) أخيك وهو يبكي بجوارك.. توشك أنت نفسك على البكاء رعبًا، والأدهى أن أعصابَ قدمك لا تقدر على حملك لتهرب من مكانك، ولابد أن ما يحدث مع (عمر) مماثل..

منظر ذلك الواقف يوشك على قتلك رعبًا.. منظر لم يخطر على بالك حتى في أسوأ كوابيسك..

يتذبذب ضوء الغرفة فجأة..

(دززززززززززز)

ينطفئ النور، فيهوي قلبك بين قدميك.. الانفعال يوشك على قتلك والعرق يسيل على جبينك برغم أننا في الشتاء.. توشك على الموت رعبًا، ولون وجهك الممتقع يروي ذلك بلغة أفصح من أي وصف..

يضيء ضوء الغرفة من جديد.. ولا أحد هنالك.. كأنك كنت تحلم..

تنظر إلى (عمر) بجوارك وينظر هو إليك وهو يرتجف، والدموع على وجنتيه لم تجف..

ما الذي يعنيه ذلك؟

كنت تحلم بتلك التجسدات من قبل، وتراها بطرف عينك..

الموضوع تطور الآن.. أنت تراه بوضوح.. من هو بالضبط؟ لا تعرف..

ما معنى قفل الرصد المرسوم على كفه؟ كأنه يرسل إليك رسالةً ما..

لا تفهم شيئًا ولا تدري.. كل ما تعرفه هو أن شيئًا ما قادم..

شيئًا مريعًا حتمًا..

***

تقترب الكاميرا من فوق نحوك أنت و(مصطفى) وأنت تجلس في الجامعة..

الطلبة يعبرون بجوارك، والشارع مزدحم فلا تجد موضعًا لقدم..

الضوضاء تغطي على صوت أفكارك نفسها..

ووسط الجموع العابرة، يقف هو.. ينظر إليك بنفس الثبات..

.«(مصطفى)»

.«إيه؟»

تشير بإصبعك نحوه.. .«هو ده اللي بقول لك عليه.. شايفه؟»

ينظر هو نحوه.. تشعر بنظرته تتغير.. كأنه يعرفه هو الآخر..

يتسمر تمامًا مكانه ولا يقوى على الكلام أو الحراك..

تشعر بذلك الشعور غير المريح.. شيء ما يراقبك..

يرفع يده في بطء وسط الناس لترى قفل الرصد مرسومًا بوضوح عليها..

لا تقوى على الكلام.. و(مصطفى) يحدِّق فيه كأنه يرى الشيطان نفسه..

يعبر أمام ذلك الغريب شخصٌ ما ويتوقف لحظة ثم يتابع طريقه فلا تجد أحدًا هناك..

بينما ترتفع الكاميرا بك إلى منظور أعلى من جموع البشر العابرة..

أناس كثيرون يعبرون حولك و(مصطفى) في كل مكان..

ولا أثر له تمامًا..

***

.«في كل حتة.. كل حتة بروحها بشوفه فيها»

نظر لي (علي) بعد أن أنهيت كلامي، تعبير الاهتمام العميق على وجهه.. أدار وجهه إلى (مصطفى) الصامت الشارد، ونظر له لحظة في صمت، ثم قال:

.«بصوا.. أنا في اعتقادي إن اللي بيحصل ده بسبب الكتاب»

نظرت له صامتًا.. يا لك من عبقري! كنت أعتقد أنه يحدث بسبب الطعام الدسم والنوم..

قال هو، وقد رأى السخرية في عيني:

.«ده وكيل الكتاب.. زي ما تقولوا بيبعتلكوا رسالة تحذيرية»

.«يعني إيه؟؟»

أدار وجه إلى (مصطفى)، ثم إلي في صمت..

.«يعني ماينفعش تبدأ في سكة من غير ما تكملها»

لم أرد، فتابع هو:

.«هو عايز يوصللكوا كده.. عشان كده بقولكوا.. لازم نستخدم الكتاب ده والكتب التانية في إننا نخلص موضوع الآثار ده؛ عشان يبقى حققنا حاجة من اللي فيه.. يبقى استخدمنا الوكيل في حاجة، ويسيبكوا في حالكوا بعد كده»

أنظر له في صمت.. أعرف أنه نصاب، وأنه لا يفقه شيئًا فيما يقول، وأغلب الظن أن الكتب التي قرأها لم تزده علمًا أكثر مما تزيد قطرة المطر البحر وسعًا.

أعرف أنه يحب أجواء الشهرة المحيطه به، وأنه يريد استغلال الموضوع في أن يضمنا إليه في رحلة تهريب الآثار.

أفهمه جيدًا.. ولكن ما الحل إن لم يكن ما يقوله هو؟؟

لا أعرف..

ولكنني أعرف حد اليقين أنه لن يتوقف..

ما الحل؟؟

لا حل هنالك..

***

بالطبع، لم يتوقف ذلك الغريب..

جربت كل شيء.. كل شيء يمكن أن يقلل من الأمر.. كل الروحانيات التي يمكنكم تصورها.. الصلاة.. قراءة القرآن.. الدعاء.. ولن أهين ذكاءكم بأن أقول أن ذلك قلل من الأمر.. بل زاد إلى حد مريع، حتى صرت أراه في كل ركن.

لم يعد ذلك مزاحًا.. الموضوع تطور إلى خانة الخطر.. ذلك الغريب مفتول العضلات بشكل مبالغ فيه، لا يمكن لعشرة رجال إيقافه.. لو قرر يومًا أنه اكتفى من المراقبة، وقرر التسلية قليلًا، فستكون تلك نهايتي.. دعك طبعًا من الكوابيس.. خصوصًا ذلك الكابوس الذي أطارد فيه تلك الحورية، حتى أنفرد بها في كوخ وسط الحقول، وما إن أقترب منها حتى تتحول إلى غول، وتبدأ في التهامي.. لم تعد أعصابي قادرة على تحمل هذا كله.

بدأت أنا بدوري أتغير.. عدت لحالي السابق.. عصبية وشجار مع أي أحد، في أي مكان، لأتفه الأسباب.

لم يعد أحد يطيقني، ولم يفهم أحد ما أمر به بالضبط.. ربما كان (عمر) يفهم بشكل ما.

بدأت إدمان القهوة وقتها.. القهوة والشاي المركز الثقيل الذي يوشك على إزهاق روحك.. لم أكن أريد النوم.. أشعر بأنني لو نمت فلربما خنقني ذلك الغريب أثناء نومي بيد واحدة.

أشك في كل الناس، وأرى شبحًا في كل مكان، وفي نفس الوقت لم أعد أحب العزلة.. أحاول أن أبقى في أماكن مزدحمة بقدر الإمكان، وهو ما ساهم مع طباعي النارية الجديدة في إعطائي سمعه المجاذيب.

إنها البارانويا يا سادة..

البارانويا في أنقى وأبشع صورها.. بارانويا شديدة السوء لدرجة يسيل لها لعاب أي طبيب نفسي.

لم يحسن هذا من صورتي كثيرًا أمام أمي.. وكانت قد عرفت وقتها بما حدث مع خالي (رأفت) وذلك الشيخ (حسن).. ندمت أنها حكت له أي شيء من الأصل.. أرادت أن تبعدني عن الأمر، فاندمجت فيه أكثر.. كأن الأمر حتمي كمأساة إغريقية.. أزمعت في نفسها أمرًا وقتها.

كانت تريد أن تخيفني.. تريد أن توقع الرعب في نفسي –وهو ما لم يكن لدي منه القليل– وتريني مصير الأناس الذين يتعاملون في تلك الأمور.

تريد أن تريني أنني أحمق..

و أن من يلهو بالنار يحترق بها..

***

دعوني أحكي لكم حكاية غريبة بعض الشيء..

أمي وخالاتي قديمًا كان لهم الكثير من الأصدقاء.. كانوا اجتماعيين كالنمل، وهو ما جعل لهم الكثير من المعارف.

ومنهم كانت هي.. صديقة لهم تدعى (شريفة).. (شريفة) هذه كانت قطعة من السُكّر، لا تشبع من مجالستها أبدًا.. طاقة ومرح وضحك.. كانت من أقرب أصدقائهم.

مرت الأيام عليهم، وتزوجت (شريفة).. وبعد أن تزوجت بفترة تغير حالها تمامًا..

كانت –كما تحكي هي– تحدث لها أشياء شديدة الغرابة، ولا تفسير لها، سوى أنها مجنونة، أو مخرفة، أو مخبولة.. وهو ما لم يثر الهوى في نفسها كثيرًا كما تعلمون.

ما الذي كان يحدث لها؟؟ الكثير..

مثلًا.. كانت كلما تنظر إلى مرآة ترى نصف وجهها فقط.. ولا تدري كيف. حتى الطعام، كلما نظرت إليه أو أوشكت على تذوقه وجدته يتحول أمام عينيها إلى دود، وثعابين، وحشرات.. فلم تعد تأكل.. نحلها الجوع، حتى أصبحت أشبه بجثة حية.. هيكل عظمي يذكرك بالناس الذين تراهم في المجاعات الإفريقية.

ومازاد الطين بلة أنها لم تكن تجسر على الخروج ليلًا، لأي سبب كان.. ولم يعرف أحد لماذا ذلك الإصرار الأشبه بالتقديس.. فور أن يدوي أذان المغرب تغلق هي أبواب شقتها، وتعتزل تمامًا عن النظر من النافذة حتى.

حتى حفل زواج ابنتها لم تحضره؛ لأنه كان ليلًا.

عرضوها على الأطباء، والمحللين النفسيين، والشيوخ النصابين، كما كان الحال مع (طه).. فلم يفدها أحد بشيء.. أكثر من ثلاثين طبيبًا وشيخًا وقفوا أمامها عاجزين عن التفكير.. كل ما خرجوا بها هو أنها ممسوسة، أو حسب تعبيرهم (ملبوسة).. حتى وقتنا هذا يظل الأمر كما هو.

عرفت وقتها أمي أن هناك معالجًا سيبدأ في علاجها قريبًا.. وكان ذلك الخبر هو بالضبط ما تبحث عنه.. قررت أن تأخذني معها إلى الجلسة، حتى تثير الرعب في نفسي، وتجعلني أقلع تمامًا عما أفعله.. من وجهه نظرها طبعًا..

كانت مطمئنة إلى أن شيئًا لن يحدث لي أو لأحد.. فبرغم كل شيء هذه جلسة علاجية، وليست جلسة تحضير أرواح مثلًا.. لم تكن تعرف طبعًا أن ذلك يعتبر مزاحًا بالنسبة لما رأيته من قبل.. لم تكن تعرف شيئًا على الإطلاق.

لم أكن أصدق إطلاقًا في موضوع التلبس هذا.. لا أصدق أن جنيًا يقدر على أن يتلبس إنسانًا، ويتحكم في تصرفاته.. صحيح أن هناك نوع من المس الشيطاني مذكور في القرآن، ولكن موضوع التلبس هذا بالنسبه لي مرفوض تمامًا.

أصرت والدتي أن تصحبني معها، ولم أجد أنا ضررًا في الأمر، فقررت الذهاب معها..

وهو القرار الذي لم يكن حكيمًا جدًا..

***

.«قبل ما نبدأ، فيه شروط.. حاجات لازم نعملها الأول»

نظرنا جميعًا له في تساؤل..

من هو؟؟ المعالج طبعًا.. لم يكن واحدًا فقط، بل كانا اثنين.. الأول (وهو الذي يتكلم الآن) هو المعالج.. يدعي أن معه جني مسلم، وهو الذي سيقدر على علاج (شريفة).. والثاني هو المترجم الخاص به.. لماذا يأتي بمترجم؟؟

دعونا لا نستبق الأحداث..

أكمل هو:

.«هنتحصن كلنا بسورة (البروج) الأول.. وبعدين فيه إزازة مسك هنحط منها كلنا.. وبعدين هنكتب حاجة معينة على إيدينا كلنا اليمين، وبعدين نقفل الإيد تمامًا، وماحدش يبص فيها»

جميل.. جميل..

مالم أقله لأحد وقتها هو أنني سجلت تلك الجلسة كاملة على شريط كاسيت خبأته في موضع معين في الصالة.. كنت أريد أن أعرف وأدرس ما يفعلونه وقتها بتمهل.

بدأنا جميعًا في قراءة سورة (البروج)، ثم –بعد أن انتهينا– تعطرنا بالمسك.. وبعدها تناول هو يد كل واحد منا، ليخط عليها شيئًا ما من قلم غريب الشكل، ثم يغلق قبضة ذلك الشخص على الكتابة تمامًا، وينتقل إلى شخص آخر، وهكذا..

حتى وصل إليّ أنا.. كتب ما كتبه على يدي، ثم أغلق قبضتي، ونظر لي نظرة حادة بمعنى أن لا أنظر فيها.. وهو ما لم يحدث طبعًا.. انتهزت فرصة أن استدار، ليكتب على يد (شريفة) في أن أنظر إلى راحتي.

نفس شكل الرموز الموجودة في كتاب شمس المعارف.. رموز وزخارف شيطانية الشكل ممتزجة بكتابة تشعر بأنها عربية للوهلة الأولى، ثم تدرك أنها ليست هي.

نظرت إلى المترجم في حذر، لأجده يحمل كتابًا، لم أميز عنوانه بالضبط، إلا أنه كان مألوفًا..

دققت النظر أكثر، حتى ميزت العنوان بالضبط.

(الرحمة في الطب والحكمة).. لـ (جلال الدين السيوطي)..

نفس الكتاب الذي اشتريته من سور الأزبكية.. من ذلك العجوز الأسمر الذي لا أذكر اسمه.

هذا مهم.. مهم جدًا.. ذكروني أن أفكر في ذلك الأمر فيما بعد.

بعد أن انتهى المعالج من كتابة ما يريد على كفوفنا، أشار لنا بأن نجلس جميعًا على الأرض في شكل دائرة، فجلست أنا بجانب واحدة من خالاتي.. وبدأت الجلسة.

أخذ ذلك المعالج يلقننا بعض الأشياء لنقولها، فكنا نرددها وراءه كما هي بالضبط بلا تحريف.. لن أخبركم بها بالطبع؛ لأن هذه الأشياء ليست للهو.

انتهينا من الكلام فساد الصمت تمامًا..

صمت أزلي كالهدوء الذي يسبق العاصفة..

جميعنا ننظر إلى بعضنا..

أنظر إلى خالتي، ثم أدير عيني إلى أمي، ومنها إلى (شريفة)، وجدتي التي تجلس جوارها، ثم إلى أحد أقربائنا كبار السن الذي قرر أن يحضر معنا الجلسة.. يجلس أمامي تمامًا ذلك المعالج مغمضًا عينيه وجواره المترجم ينظر له مترقبًا.

صمت.. صمت تام، وترقب لا حدود له..

(هأااااااااااااااااه)

يتثائب المعالج في قوة.. ينفتح فمه إلى أقصاه وهو يتثاءب، ثم ما إن ينتهي من التثاؤب، حتى يبدأ في التثاؤب من جديد.. وهكذا..

ظل الأمر يتكرر كثيرًا، حتى قلت لخالتي هامسًا:

.«هو جاي ينام ولا ايه؟؟»

لم ترد وهي تراقبه في ترقب..

ظل هو يتثاءب بعض الوقت، ثم بدأ يمط جسده كالقطط.. صوت قرقعة فقرات ظهره يتعالى بشكل غير طبيعي، كأنه صوت عشرات الأبواب الخشبية ترتطم ببعضها.. صوت مرعب يدوي حولنا في كل مكان.

الرعب.. الرعب يبدأ، ويتجسد الخوف معنا في الجلسة.. تتزايد دقات قلبي، ويمتزج صوتها برائحة الأدرينالين التي تفعم الجو حولنا.

أدير عيني في من حولي.. وجوههم ممتقعة، ويرتسم الخوف على ملامحهم.. الخوف الوحشي الذي لا يجدي معه عقل ولا منطق.

ظل يتثاءب ويمط جسده بعض الوقت، وبدأ لون وجهه يتحول تدريجيًا إلى الأحمر القاني، كأن دم جسده كله يحتبس في وجهه. نظرت إلى يديه لأجد أصابعه تنتفخ إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف حجمها، وهو الشيء الذي لا يمكن لبشري أن يفعله.. لا يوجد تفسير سوى أن هذا خارق للطبيعة.. كأن جسده يتغير.

كأنه لم يعد هو..

ثم فجأة.. يدوي الصوت:

.«السلام عليكم»

انتفضنا جميعًا في أماكننا، بينما أشار لنا المترجم أن نرد السلام، فرددنا جميعًا في نفس واحد.

.«وعليكم السلام»

سأله المترجم في حذر:

.«انت مين؟؟»

.«أنا (محمود).. من باكستان»

ما هذا؟؟ باكستان؟؟ هل هناك جن باكستاني؟؟ هل يمزح ذلك المعالج؟؟

صحيح أن ما فعله منذ دقيقة غريب، ولا تفسير له فعلًا، إلا أن هذا لا يعني أنني سأصدق أن هناك جني مسلم اسمه (محمود) من باكستان يكلمنا من خلاله الآن.. هذا هراء بالتأكيد.

يشير المعالج إلى خالتي (شريفة) بينما يدوي الصوت:

.«أنتِ لازم دوا استعمال»

ماذا؟؟ ماذا قال؟؟ لا أفهم..

.«في جني يهودي أمسكُ جني عَشِق»

ماذا يعني؟؟

يقول المترجم:

.«يعني في جني يهودي بيحبها»

جني يهودي؟؟ بالطبع.. لابد أنه (ديفيد بن جوريون) نفسه أو قرينه.. يا لهذا الهراء!!

بدأ المعالج في كتابة العلاج على ورقة أمامه، وهو القرآن الذي يقرأ على مياه، ثم يتم شربها، والاستحمام بها، وكل هذه الأمور التي تعرفونها.

رائع جدًا.. لم يضف شيئًا إلى ما قاله من قبله.. مضيعة تامة للوقت.

هل انتهينا إذًا أم ماذا؟؟

.«سلام عليكم أخ (جمال)»

انتفض جسدي، وسرت قشعريرة باردة كالثلج على ظهري.. كيف عرف اسمي!؟ ولماذا يوجه لي الكلام؟؟ نظرت إلى وجه أمي وجدتي، لأجد الذهول المطلق على وجهيهما.. هذا لا تفسير له.

.«أنت يسأل في جن من باكستان، صحيح؟؟»

لا أرد.. صمت تام يغلفني، فلا أدري ماذا أقول.

أشار لي المترجم من طرف خفي أن أرد، حتى لا أغضبه. فقلت:

.«أيوه.. بس ده كان في دماغي»

الصوت يدوي:

.«إحنا جن.. نشوف ونعرف كل حاجة طبيعي»

أسمعه في ذهول، وأنظر إلى أمي التي توشك على البكاء.

.«إحنا جن صير بلاد في علوم في طب في حضارة»

لا أفهمه تمامًا، ولكنني أميز ما يقول.

الرعب يستولي على عقلي ويشلني، فلا يدع لي مجالًا للتعقل.

أقول متلعثمًا بلسان يشله الخوف:

.«يعني انتوا ساكنين زينا عادي كده؟؟»

لا يرد، ولكنه يشير..

بدأ في الدبيب بقدمه على الأرض.. ثم بعد ذلك نفخ في الهواء نفخة قوية، وبعدها مثل بيده حركه الأمواج.

يقول المترجم:

.«قصده ساكنين في بطن الأرض، وفي الريح وعلى المية»

لا أفهم.. لماذا أحضر الكتاب معه إذًا لو كان حقًّا بتلك القدرة الخارقة التي يدعيها!؟

هنا –وكأنه يقرأ أفكاري– بدأ في الاهتزاز في غضب وعصبية.. كل عضلة في جسده تهتز، وهو يقول كلامًا ما لا أفهمه، لأنه بالباكستانية.. تنفتح عينه فجأة، لأجدها بلا حدقة، وبرغم ذلك أشعر أنه ينظر إليّ مباشرة.

يقول المترجم في ذعر، وهو يشير إلى أن أتوقف:

.«بتقول إيه بس.. أديه هيغضب»

ثم أدار وجهه فجأة، منصتًا إلى الكلام الذي يقوله المعالج.. تعبير وجهه يتغير تمامًا.. ينظر إليّ نظرة لم أرها من قبل.. نظرة لا يمكنني وصفها.. المعالج بجواره يتوقف عن الكلام، ويعود وجهه وأصابعه إلى حالتهما الطبيعية.. يهدأ فجأة.

نهض المترجم والمعالج بعدها، ليسلما علينا جميعًا..

.«الجلسة خلصت كده؟؟»

قالتها جدتي في توجس، فرد المترجم:

.«خلصت أيوة.. ولازم نمشي دلوقتي.. سلامو عليكم»

.«وعليكم السلام»

يفتح الباب، ويخرج هو والمعالج، ويغلقانه خلفهما، كأنهما يهربان من الشيطان نفسه.

أشعر بأنه كان سيفعل شيئًا ما، ثم توقف فجأة..

كارثة كانت على وشك الحدوث ولكن شيئا ما أوقفها.. شيء يتعلق بي أنا.. لن أنسى أبدا تلك النظرة التي نظرها إليّ المترجم..

فكره ما تبدأ في التكون داخل عقلي..

صوت والدتي يأتي من جواري:

.«(جمال).. انت كويس يابني؟؟»

لا أرد وأنا أتجه إلى الشرفة، فأفتحها، وأدخل إلى الداخل..

أزيح الستائر، وأنظر إلى الشارع..

يقف هو هناك..

ذلك الغريب العملاق..

يقف واضعًا يداه جانبه متسمرًا، وهو ينظر إلي مباشرة بعينيه ناصعتي البياض..

ثم يبدأ في رفع كفه الأيسر في بطء، ليعطيني نظرة على ذلك الرمز المضيء المرسوم على راحته..

قفل الرصد..

***

قال لنا العجوز:

.«مش مضروب.. بس تفاريح كده.. أكيد الحكومة مش هتسمح بإننا نبيع الكتب الأصلية.. عشان كده بيخلونا نبيع دي عشان عارفين إن مفيش منها ضرر»

***

مرت الجلسة في سلام..

انتهى الأمر عند هذا الحد، وذهبنا جميعًا إلى منازلنا واجمين، إلا أنني لن أنسى أبدًا النظرات التي وجهها لي الحاضرين جميعًا بعد الجلسة.. خصوصًا أمي.

كانوا ينظرون إلي وكأنني الشيطان نفسه.. من يدري.. ربما كنت الشيطان فعلًا، ولكنني لم أدرك هذا بعد.

لا أدرك شيئًا.. وهذا شعور –لو عرفتموه– سيء جدًا.. شعور العجز الذي يجعلك ترغب في الانعزال عن العالم.

لكن لحظة.. قلت لكم أن تذكروني بذلك الكتاب الذي كان مع المعالج.. ماذا كان اسمه؟؟

(الرحمة في الطب والحكمة).. لـ (جلال الدين السيوطي)..

نفس الكتاب الذي اشتريته من ذلك العجوز الأسمر في سور الأزبكية..

ما معنى هذا بالضبط!؟ هل يعرف ذلك العجوز شيئًا عن الموضوع؟؟ ما علاقته بما يحدث بالضبط؟؟

أعرف أنه ليس من اللازم أن يكون هو من باع الكتاب للمعالج، بل ربما اشتراه الأخير من مكان آخر. ولكن شيئًا ما يخبرني بأنه يعرف أكثر مما يقول.

ربما يعرف شيئًا يمكنه أن يفيدني في التخلص من تلك اللعنة التي تطاردني.. لعنة.. نعم، هذا هو الوصف الصحيح.. ذلك العملاق الأسود الذي يطاردني هو لعنة من نوع ما بالتأكيد.

ثم أن هناك سؤالًا آخر.. ما معنى قفل الرصد المضيء الذي أراه على كفه كلما رفعه في مواجهتي؟؟ لم يكن قفل الرصد هذا مذكورًا في (شمس المعارف) على ما أذكر، بل كان في ذلك الكتاب المقبض الذي وجدته عند عمي.. ذلك المسمى بـ(سحر الشيطان المسمى بسحر فرعون)، أو ما يشبه ذلك.

إذًا فما معنى ذلك؟؟ هل هو بسبب أنني نظرت في داخل ذلك الكتاب ولم أجربه؟؟ شيء شبيه بما حدث مع صاحب المكتبة الذي نظر في كتاب (شمس المعارف)، وهو يصوره، فاحترقت ماكينة التصوير.. شيء أشبه بـ(ميكانيزم) دفاعي.

لكن شيئًا ما يخبرني أن هذا ليس صحيحًا.. أنا أشعر بذلك العملاق يراقبني منذ بداية معرفتي بكتاب (شمس المعارف) بالذات.. في البداية كنت أشعر به يراقبني خفية بدون أن أشعر، ثم بدأت تلك المكالمات الصامتة التي كنت أتلقاها، ولا أجد أحدًا يرد على الطرف الآخر.. ثم ما كان يحدث مع عمي (صلاح) الذي جرب الكتاب بالتأكيد، كما جرب كل الكتب الأخرى التي يملكها.. أشياء لا رابط بينها سوى ذلك الكتاب، والأن بدأ ذلك العملاق في الظهور لي بوضوح سافر مع بداية اندماجي واندماج (مصطفى) في قصة الآثار.. كأنه يعلن عن وجوده.. الموضوع يتطور.

ولكن يبقى السؤال.. ما علاقه قفل الرصد المرسوم على كفه بالأمر؟؟ ما علاقة الكتاب الأول بالثاني؟؟ للإجابة عن ذلك يجب أن أعرف أولًا معنى قفل الرصد.

حسب ما أعرفه، هو رمز سحري يتم رسمه على جدار مكان ما، ومن خلاله يعرف من رسمه كل ما يحدث في ذلك المكان في غيابه.. يراقبه بمعنى أصح.

نعم.. هذه هي الكلمة.. مراقبة..

هل يعني الرمز الذي على كفه أنه يراقبني؟؟ يبدو هذا منطقيًا.. يرسل لي برسالة مضمونها هو أنه يراقبني.. ولكن لماذا؟؟ ما الذي يريده مني؟؟ ولماذا يعلن عن وجوده الآن بالذات؟؟ هل هو بسبب ابتعادي عن كتاب (شمس المعارف)؟؟ هل هو بسبب (علي) و(ريمون) وموضوع الآثار؟؟ أعرف أنهم يستخدمون له كتبًا شبيهة، إن لم تكن هي نفسها.. أشعر أننا أيقظنا شيئًا ما.. شيئًا يغفو في سبات منذ زمن طويل.

يجب أن أجد ذلك العجوز..

إنه يعرف شيئًا حتمًا..

***

.«(مصطفى)!»

نظر لي متسائلًا، ونحن نمشي في الشارع متجهين إلى سور الأزبكية، فتابعت:

.«أنا حاسس إن الراجل الاسود ده مش هيسيبنا غير لما تبعد عن (علي) و(ريمون)»

نظر لي في صمت لحظة، ثم قال وهو يعبث في ذقنه:

.«يلا بس نشوف الراجل.. سيبك من (علي) و(ريمون)، دي قصة آثار مالهاش علاقة بالموضوع ده.. الشخص ده ليه علاقه بالكتاب بتاعك»

ليس لها علاقة؟؟ لا بد أنه أحمق.. أحمق أو هو يتجاهل الحقائق متعمدًا لسبب ما.

.«(مصطفى)، انت عارف إن (علي) و(ريمون) دول مش باحثين آثار.. لأ بردو داخلين في نفس المواضيع بتاعتنا، ومعاهم نفس الكتب.. وأنا سبت الكتاب من زمان.. ليه الراجل ده بدأ يظهرلنا دلوقتي بالذات؟؟ أكيد الموضوعين ليهم علاقة ببعض، دي حاجة واضحة مش محتاجة تفكير»

لا يرد.. يمشي في صمت مطرقًا برأسه..

سور الأزبكية يلوح من بعيد، فيقول هو:

.«يلا بس نشوف الراجل»

دخلنا إلى السور.. كل المكتبات في أماكنها لم تتغير، وإن تغير بعض من يملكونها.. نمشي ونبحث في كل مكان.. نصل إلى مكان مكتبته.. كما هي لم تتغير، ولكنه ليس هناك.

انقبض قلبي.. إنه الخيط الأخير الذي أملكه.. هل ترك المكان؟؟ وإن لم يتركه، فأين هو؟؟

نظرت لـ(مصطفى) نظرة ذات معنى، فوجدته ينظر في اتجاه المكتبة، فأدرت رأسي إلى هناك لأراه يخرج من المكتبة.

كما أتذكره بالضبط لم يتغير فيه شيء.. بشعره المبعثر وشاربه الأشيب ولونه الأسمر.. يرتدي نفس الجلباب المبقع.. كأنما الزمن لم يمر.

أتقدم منه..

.«سلامو عليكم.. إزيك يا حاج؟»

.«وعليكم السلام يابني.. مين؟؟»

ينظر لنا في دهشة مدققًا.. لا يبدو أنه يتذكرنا على الإطلاق، وهذا طبيعي جدًا.. بالتأكيد يأتيه الكثير من الزبائن والمشترين، ولن يتذكر كل واحد فيهم، خصوصًا في عمره هذا.

.«أنا (جمال) يا حاج.. كنت جيتلك قبل كده، واشتريت منك كتاب (الرحمة في الطب والحكمة)، وسألتك على كتب تانية.. الكلام ده من حوالي تلات سنين كده»

التعبير على وجهه يتغير.. الطيبة والبشاشة تتحول إلى اهتمام بالغ ممزوج بلمسه من النفور.

.«أهلا يا حبيبي.. عايزين كتب تاني ولا تتفضلوا؟؟»

جذبت مقعدًا وجلست، بينما قال (مصطفى) وهو يجذب المقعد الآخر:

.«بص يا حاج.. انت في مقام أبونا.. إحنا محتاجين مساعدتك»

نظر له العجوز الذي عرفنا من قبل أن اسمه (عبد الفتاح) وهو يقول حائرًا:

.«ربنا يخليك يابني.. خير؟؟»

صمت (مصطفى) تمامًا، بينما بدأت أنا الكلام.

حكيت له كل شيء.. كل شيء منذ اشترينا منه الكتاب وحتى الآن.. حكيت له عن ذلك الشخص الأسود المجهول الذي يطاردنا، بينما ظل هو صامتًا، يستمع مبهورًا، متقطع الأنفاس.. تبدو على وجهه الدهشة الحقيقية، كأنه يسمع رواية مثل تلك لأول مرة.

انتهيت من الكلام وصمتّ تمامًا.. أراقبه في صمت.. (مصطفى) صامت تمامًا جواري ينظر له مترقبًا.

يتكلم أخيرًا، فيخرج الصوت من حلقه عميقًا كالبئر:

.«بص يابني.. اللي انت بتقوله مش غريب عليا.. أنا سمعت كلام كتير، وقصص ياما زي اللي انت بتقوله ده من الناس اللي بتيجي تشتري مني، بس أنا فعلًا ما جربتش أقرأ الكتب دي قبل كده.. ما أعرفش عنها أي حاجة، ولا أعرف إزاي ممكن أساعدك.. الموضوع اللي انت بتتكلم فيه ده مفيش فيه خبراء.. مفيش حد يقدر يقولك إنه فاهم، ويديك نصيحة، ويقولك اعمل كذا، وكذا، وكذا، إلا لو كان بيكدب أو بيقول أي كلام.. ده كلام في حدود الغيب وفي علم الله وحده»

أنظر له في صمت وهو يتكلم.. لا يعرف شيئًا.. كلامه منطقي، ولكنه ليس ما كنت أتمنى أن أسمعه.. كنت فعلًا أعتقد أنه هو طرف الخيط أو أنه يملك حلًا ما، لكن الآن أنا أمشي في الظلام حرفيًا.

أشعر بالضياع والتعاسة.. الإحباط يضغط على أنفاسي كالكابوس، حتى أشعر بالاختناق.. لا أدري ماذا أفعل.

نظر لي (مصطفى) نظرة ذات معنى، ثم قال:

.«يعني يا حاج ماعندكش أي فكرة ممكن نعمل إيه؟؟»

.«والله يابني أكدب عليك لو قلت أعرف.. كلامي مش هيختلف عن الناس التانية اللي بتقولك اقرأ قرآن، وصلِّ، وكل الحاجات دي اللي انت عملتها وما نفعتش»

قال (مصطفى) في حذر:

.«أو ننفذ الطرق اللي فيه مثلًا يمكن يسيبنا في حالنا»

قالها وهو ينظر لي نظره ذات مغزى.. بالتأكيد يقصد (علي) و(ريمون) وموضوع الآثار.

حاولت أن أسيطر على أعصابي، بينما قال العجوز:

.«ممكن تعملوا كده.. أنا كنت هعمل كده بصراحة لو في مكانكوا.. حد يسيب العز والقوة والسلطة؟؟ انتوا غريبين أوي!»

ابتسم (مصطفى)، وهو يقول:

.«والنبي تقوله يا حج!»

هنا لم أقدر على السيطرة على أعصابي أكثر من هذا، فصحت كصفارة الإنذار:

.«يعني طالما هو الموضوع عز وسلطة وقوة، واقف تبيع في كشك ليه!!؟؟ حاكم العتبة الخضراء مثلًا وإحنا مش عارفين!!؟»

هب (مصطفى) واقفًا يحاول إسكاتي، بينما نظر لي العجوز مذهولًا، وأنا أتابع:

.«طالما دي نصيحتك، ليه بيقولوا عليها كتب سحر أومال!؟ ليه انت ماجربتش ورحت حضرتلك جني يجيبلك مكتبة محترمة بدل مقلب الزبالة اللي انت قاعد فيه ده؟؟»

البائعون الآخرون يلتفون حولنا وأنا أصيح، بينما يحاول (مصطفى) إسكاتي بلا فائدة، ويصيح العجوز بدوره:

.«انت بتزعق ليه يا ولد انت!؟ ما تحترم نفسك وتحترم المكان اللي واقف فيه!»

أهم بالصياح مجددًا، ولكن (مصطفى) يكتم فمي بكفه تمامًا، ويجذبني بعيدًا عنه، وأنا أسمعه يقول:

.«شباب مش متربي وعاوز الحرق صحيح»

فيثير جنوني أكثر.. أريد أن أنتزع حنجرته، وحنجرة (مصطفى) الوغد الأحمق.. تذكرت (مصطفى) الذي يجذبني بعيدًا، فدفعته بعنف بعيدًا عني، بينما يتدخل أولاد الحلال الذين يظهرون من خلف كل حجر.

.«خلاص يا كابتن.. وحِّد الله»

.«فيه إيه يا باشا؟ انت صوتك عالي ليه!؟»

.«خلاص يا عم استغفر ربك، وقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»

أسمع (مصطفى) يقول:

.«يلا بينا من هنا بدل ما هنتضرب شكلنا»

أشعر بالاختناق.. لا أريد أحدًا حولي الآن، ولا أريد أن أسمع صوت أحد.. أريد أن يحترقوا جميعًا.. أريد أن يتحول العالم إلى موقد كبير.

انسللت من وسطهم وأنا أبتعد، بينما (مصطفى) يجري خلفي.

هنا -كأنه يثير غيظي- رأيته واقفًا هناك خلف إحدى المكتبات.. ذلك العملاق الأسود.. يقف عاقدًا ذراعيه على صدره هذه المرة، مراقبًا ما يدور.. ويبتسم في سخرية.

***

الساعة الثانية ليلًا..

أجلس أمام التلفاز في الصالة بعينين لا تريان..

أتذكر ما قاله لي (مصطفى)..

.«إحنا مسافرين لعم (سليمان)»

.«انتوا مين؟؟»

.«أنا و(علي) و(ريمون)»

.«...»

أنظر إلى الشاشة أمامي بعيون زائغة..

شرود..

شرود طويل يأخذني لأسبح معه في آفاق بعيدة وسحيقة للغاية..

أشعر أنني تائة.. لا شيء أفعله.. دعك من أن الأمر كله خطئي أنا..

أنا من بدأت كل هذا الأمر.. أنا من فتح الباب ومشى في ذلك الطريق.. جُن الجميع بسببي أنا.. الجميع يريد أن يتابع الطريق ولا يهتم بأي شيء سوى أن يحقق هدفه، وأصبحت أنا من يريد الهرب.. أنا الأحمق الوحيد.

شرود يعتريني، ويجعلني أشبه بالمتصوفين.. لا شيء في يدي لأفعله..

كل من حولي أحوالهم تسوء أكثر.. (عمر) أصبح يعيش في رعب دائم بسبب ما يحدث له بسببي من مطاردات الرجل المجهول والكوابيس.. (مصطفى) جُن تقريبًا، وأصبح لا يهتم بشيء سوى بالكتاب والآثار.

لا شيء أفعله الآن..

شرود.. شرود دائم..

<<ترررررررن ترررررررررن>>

صوت جرس الهاتف..

أنهض لأرفع السماعة بسرعة قبل أن يوقظ الصوت أحدًا من نومه..

أضعها على أذني في تردد.. من يدري .. ربما كان المتصل الغامض مرة أخرى، وما إن أضع السماعة على أذني حتى أسمع صوت أنفاسه الثقيلة.. لا يمكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك.

«آلو».

«أيوة يا (جمال)».

«(مصطفى)؟؟ فيه إيه مالك يابني؟؟».

«أنا عايزك ضروري.. انزلّي دلوقتي حالًا».

قلبي ينتفض بين أضلعي.. هناك مصيبة ما.. ثم متى عاد من الصعيد؟؟

«دلوقتي!!؟ الساعة اتنين بالليل.. فيه إيه يابني حصل إيه؟؟».

«مفيش.. انزل بس.. لازم أقابلك حالًا».

«ماشي طيب.. أجيلك فين؟؟».

.«هستناك عند القهوة اللي ورا بيتك.. سلام»

(صوت وضع السماعة)

ما الذي حدث؟؟ كنت مخطئًا عندما قلت أن أسوأ ما يمكن أن يحدث هو ذلك المتصل المجهول.. هناك ما هو أسوأ فعلًا.. صدق من قال أن كل اتصال هاتفي يأتيك ليلًا هو مصيبة تنتظر الحدوث.

أشعر بقبضة باردة تعتصر قلبي.. هناك كارثة ما.. هذا واضح في صوت (مصطفى).. لا يبدو عليه أنه يمزح.

يجب أن أنزل لأقابله.. من حسن حظي أن كل من في البيت نائم، وإلا كان من الصعب تفسير موقفي، وإلى أين أنا ذاهب في مثل هذا الوقت.

ألتقط مفتاح الشقة من على مكتبي، ثم أرتدي معطفي الثقيل وأتجه إلى الباب متسللًا.

أفتحه في بطء..

(صوت فتح الباب)

يهب الهواء من الخارج، ويتخلل شعري، ووجهي، ومعطفي، فأنتفض.. الجو قارس البرودة!

أخطو إلى الخارج.. أجذب الباب خلفي في حذر.

(صوت إغلاق الباب)

***

- ٦ -

(الجزء القادم ليس من مذكرات (جمال))

(اليوم الأول)

الصعيد..

الصعيد أخيرًا..

رحلة طويلة بالقطار تلقيك في قلب الجنوب.. تنظر حولك في كل مكان لتجد أشجار النخيل، والملامح السمراء الطيبة واللهجة الصعيدية المحببة.

أنظر إلى (ريمون) و(علي).. نشعر جميعًا بأن كل عظمه في أجسادنا تتألم.. الجلوس في القطار قاتل حقًا.

ألتقط حقيبتي، ثم أتجه إلى باب القطار لأخرج.

عم (سليمان) ينتظرنا على رصيف المحطة.. تنعكس الشمس على ملامحة المحببة، فتجعل مرآه منعشًا.

.«يا أهلًا يا أهلًا يابن عمي.. نورتوا الصعيد»

قال (ريمون) وقد انقلبت لهجته تلقائيًا إلى لهجة صعيدية:

.«الله يخليك يا عم (سليمان)! ده نورك ونور أهل الدار»

.«الله يكرمك»

وحاول التقاط الحقيبة مني أنا و(ريمون) و(علي) الخارج من القطار، فتمنّعنا شاكرين.

.«معاك لاموزين؟؟»

قالها (ريمون) ضاحكًا، فرد عم (سليمان) مبتسمًا:

.«أحلى لاموزين ف الدنيا.. تعالى.. تعالى يابن عمي»

ذهبنا خلفه لنركب السيارة..

مضى الوقت بعدها في حديث وضحكات، وتعرف عم (سليمان) على (علي) وصارا أصدقاء.. ومر اليوم حميمًا، ذكرني بأيامي مع أسرتي منذ زمن بعيد.. جو حميم تتمنى أن لا ينتهي.

بعد العشاء.. سمعت عم (سليمان) يقول لـ(علي):

.«هنعملوا إيه يا أستاذ (علي) بكرة؟؟»

قال (علي) مبتسمًا:

.«مالكش صالح.. أنا عارف هعمل إيه، وهنطلع الكنز إن شاء الله»

.«ماشي يا عم.. يلا بس عشان تناموا»

.«بكرة بالليل نبدأ شغل بأمر الله»

نظرت بطرف عيني إلى (ريمون).. صامت تمامًا لا يتكلم، ولا أدري لماذا.. كأنه رأى شبحًا.

شيء ما يعبر أمام النافذة التي أمامي، فيجذب انتباهي.

أنظر إلى النافذة.. لا شيء هنالك.

لحظة.. هناك شخص ما يقف خارج النافذة، ويبدو جسده الضخم العملاق واضحًا بأسلوب الـ(سيلويت Silhouette) المميز.. منظره مألوف بشكل ما.

إنه هو.. حتى هنا في الصعيد.

نظرت إلى (ريمون) بطرف عيني من جديد، ونحن ننهض للنوم.. هل رآه هو الآخر؟؟

لا أدري.. كل ما أعرفه هو أن مزاجي قد فسد وتعكر تمامًا..

لا نوم الليلة..

***

(اليوم الثاني)

.«بقولك إيه يا عم (سليمان)..»

.«أؤمرني»

.«أنا عايز أنزل الأول لوحدي الحفرة اللي فيها الحجر اللي تحته الكنز»

.«من عينيا يا أستاذ (علي)، بس ليه كده؟؟»

.«مفيش.. هشوف بس إيه اللي جوة، وهطلع تاني»

.«ماشي»

***

أراقب (علي)، وهو ينزل إلى الحفرة..

يمر الوقت.. ربع ساعة.. نصف ساعة..

يخرج من جديد..

.«بقولك إيه يا عم (سليمان).. عايز المبخرة بتاعتي.. هتلاقيها في الأوضة بتاعتي»

.«هجيبهالك أنا»

قلتها، واستدرت متجهًا إلى غرفته..

شيء ما يراقبني.. شعور غير مريح..

أدخل إلى الغرفة.. ألتقط المبخرة من على الحقائب المفتوحة.. أستدير خارجًا..

صوت خطوات خلفي، وشيء يتحرك على طرف عيني.. أستدير في ذعر..

لا شيء..

دقات قلبي تتسارع.. شعور عدم الارتياح يتزايد..

يجب أن أسيطر على أعصابي.. أنا من أردت هذا وأصررت على القدوم إلى هنا.. لن يمنعني شيء عن الأمر..

أكملت طريقي متجهًا إلى (علي) لأناوله المبخرة..

.«خد أهي»

التقطها من يدي، ثم قال:

.«ماحدش يدخل عليا المكان مهما حصل»

وغاب في الحفرة قبل أن يتكلم أحد..

لا أشعر بالارتياح.. أنظر بطرف عيني إلى (ريمون)، فأجد نفس التعبير على وجهه..

يمر الوقت..

يجيء الليل..

يخرج (علي) من الحفرة..

ينظر لنا جميعًا، وهو يبتسم قائلًا:

.«كله تمام.. خلاص عرفت هنوصل إزاي.. عايزين بس أربع خمس رجالة يرفعوا معانا الحجر، وأول ما أنزل تحته كله هيبقى تمام»

رد عم (سليمان):

.«خلاص نجيبهم بكرة بقى.. مش هنلاقي حد دِلوَك»

.«ماشي يا حاج.. تعالوا نتعشى، وبكره نخلص»

ويتجه إلى غرفته مبتسمًا، شاعرًا بالأهمية.

مازلت لا أشعر بالارتياح.. وشعور أنني مراقب هذا لا يفارقني..

مصيبة ما على وشك الحدوث..

أعرف هذا، وأوقن منه..

***

(اليوم الثالث)

.«جبت الرجالة يا عم (سليمان)؟؟»

.«جايين دِلوكَ.. اصطبر بس واشرب الشاي»

.«يدوم يا حاج!»

.«الله يعمر بيتك!»

يمر الوقت..

يدخل الرجال إلى البيت.. أنظر إليهم متأملًا..

عضلات مفتولة، وذقون مشقوقة مربعة، تصلح لتلقي اللكمات.. لابد أن هؤلاء الرجال يأكلون الأحجار الكبيرة على الإفطار.. شكلهم مرعب فعلًا.

.«يلا بينا يا رجالة.. يلا يا (مصطفى) ويا (ريمون).. استعننا على الشقا بالله»

نتجه جميعًا إلى الحفرة، وننزل في الظلام على ضوء المشاعل إلى الحجر.

شعور عدم الارتياح لا يفارقني، ويساهم مع المشاعل التي تلقي ظلالًا متراقصة على كل ركن في تحويل المشهد إلى كابوس حقيقي.

نضع المشاعل جانبًا.. نبدأ في الرفع..

تراب.. تراب في كل مكان.. حشرات صغيرة تجري بين أقدامنا، والرطوبة والغبار تفعم الأنوف..

(صوت سعال)

(صوت أحد الرجال يعطس)

نحاول إزاحة الحجر..

(صوت الرجال يتعالى، ويشي بالمشقة التي يعانونها)

تراب.. تراب وغبار في كل مكان، ويدخل إلى رئتك مباشرة، ليجعلك تسعل كأنك توشك على لفظ روحك ذاتها.

نحاول إزاحة الحجر بكامل قوتنا.. حجر شديد الثقل فعلًا، يحتاج إلى ونش، ولكن لا يمكنك دومًا أن تحصل على ما تحلم به.. خصوصًا في الصعيد.

يمر الوقت..

(صوت الرجال يتعالى أكثر)

(صوت حجر يتزحزح)

أخيرًا.. يتزحزح الحجر إلى اليمين مسافه كافية، تسمح بأن يمر إنسان بالغ من الفجوة، ويهبط إلى الأسفل حيث المقبرة..

صوت (علي)..

.«عاش يا رجالة.. عفارم عليكوا»

(صوت لهاث)

.«استنوني هنا، هنزل أشوف الدنيا تحت»

أقول له متوجسًا:

.«خلي بالك وانت تحت يا (علي)»

ينظر لي بسخرية، ثم يهبط إلى أسفل، وفي يده المشعل..

يمر الوقت.. ثلث الساعة..

يخرج من جديد..

صوت (ريمون)..

.«ها! إيه اللي حصل؟؟»

.«لقيت بلاوي تحت»

أقول له متوجسًا:

.«بلاوي إيه؟؟»

يقول وهو يمسح عرقه، ويفرك يده ليزيل الغبار من عليها:

.«لقيت فيه شباتن كتير»

صوت عم (سليمان)..

.«شباتن!!؟ يعني إيه؟؟»

يقول (علي)، وهو يتجه إلى غرفته، ونحن خلفه:

.«الشباتن دول اللي هما حراس الملوك.. بيبقى فيه شباتن بعدد أيام السنة بيحرسوا كل ملك، والشابتن بيبقى تمثال صغير قد الصباع كده أو نص كف إيدك مثلًا»

ننظر جميعًا لبعضنا في توجس.. لا يفهم أحدنا شيئًا.. حتى (ريمون) الذي يعتبر خبيرًا في الآثار لا يبدو عليه أنه سمع بتلك الكلمة من قبل.

يلتقط (علي) كتبه، والأشياء التي سيعمل بها.. موادًا غريبة تشبه البخور.. تلك المبخرة من جديد.. كتاب لم أميز عنوانه جيدًا بسبب الظلام.. ثم استدار لنا، وقال وهو يتجه من جديد إلى الحفرة:

.«أنا هنزل تاني، ولو احتجت حاجة هنوَّرلكم بالكشاف من تحت، وحد ييجي عند أول الحفرة يكلمني، وهقوله أنا عايز إيه»

صوت عم (سليمان)..

.«ماشي.. خلي بالك على نفسك بس يا ولدي»

حشرة عملاقة تمر على قدمي فأنفضها في ذعر، بينما يقول (علي):

.«ما تقلقش يا حاج»

لسان حاله يقول (صه أيها الحمقى! قد جاء الخبير!)..

لا أشعر بالارتياح.. قبضة باردة تعتصر قلبي وأنا أرى (علي) يدخل إلى الحفرة من جديد، تحت ضوء القمر، في مشهد ساهم مع ضوء المشعل الذي في يده في إضفاء صفة أسطورية على ما يحدث.. كأنه الخواجة (كارنافون) نفسه يهبط إلى قبر (توت عنخ أمون).

يمر الوقت.. عشر دقائق..

يلتمع ضوء الكشاف عند الحفرة، فيتجه (ريمون) إلى الحفرة، ويقول:

.«ها! عملت إيه؟؟»

يناوله (علي) شيئًا بيده اليمنى، وهو يمسك المشعل بيده اليسرى، والكشاف بين أسنانه.

.«خد.. دول شوية شباتن من اللي تحت هنا.. دي تماثيل الحراس بتاعت الملك»

يلتقط (ريمون) من يده التماثيل في انبهار.. تماثيل صغيرة لا تتعدى حجم إصبعك لو كنت ضخم الجسد.

.«فيه حجر تاني تحت واقف بالطول، بس ده يلزمه عزايم عشان فيه حارس عليه.. لكن أنا بفضل الله هفكه بالجن اللي معايا»

شعور عدم الارتياح يتزايد.. ظلال في كل مكان تشعرني بأن الجيش الروماني كله يراقبني.

أقول له:

.«طيب.. بس خلي بالك بس»

لا يرد، ويهبط إلى الحفرة مجددًا..

صمت..

صمت تام.. وشعور عدم الارتياح يتزايد أكثر..

ثم يبدأ صوت (علي) الخافت يتعالى من أسفل، وهو يقول بعض التعازيم الغامضة التي لا أميزها من موقعي هنا، فأقترب أكثر من الحفرة، لأصغي السمع.

مازلت لا أميز..

الظلال وضوء القمر في كل مكان تشعرني بالتوجس، إضافة إلى إحساس القلق هذا.. شعور أنني مراقب.

صوت (علي) يتعالى من أسفل ممتزجًا بصوت آخر لا أميزه.. صوت دبيب أشعر به تحت أقدامي.. كأنها صوت خطوات ثقيلة..

صوت (علي) يتعالى، حتى أصبح أشبه بالصراخ المذعور، ممتزجًا بصوت زئير شيء ما بالأسفل.. صوت لم أسمع مثله من قبل في حياتي.. صوت غير بشري.. والدبيب أصبح أقوى..

ما الذي يحدث؟؟

نقترب جميعًا من الحفرة..

.«(علي).. (علي).. في إيه بيحصل عندك؟؟»

لا رد.. صوت الصراخ يتعالى، ليحطم أعصابك، ممتزجًا بصوت زئير ألف أسد.

أنظر حولي.. جميعًا يتراجعون، وعلى أوجههم أعتى علامات الهلع..

.«هنعمل إيه؟؟»

لا أحد يرد.. وصوت الصراخ يتعالى..

شعور أنني مراقب.. دقات قلبي تتسابق أيها تلقيني إلى القبر أولًا..

.«حد يجيبلي حبل.. هانزل أنا ألحقه»

يهرع (ريمون) ليحضر حبلًا، ويربطه حول وسطي، بينما أقول أنا، وأنا أنظر إلى عم (سليمان) المذعور الذي يردد أشياء أشبه بالقرآن:

.«أنا هنزل أجيبه، ولو حصل حاجة تشدوني، وأنا هشد (علي)»

قلبك يوشك على التمزق رعبًا..

لست شجاعًا، وبالقطع لا تريد النزول، ولكنه قريبك.. لا يمكنك أن تتركه يموت.. ولو لم تنزل أنت، فلربما لن ينزل أحد.

تخطو نحو الحفرة بسيقان أشبه بأعواد المكرونة.. الرعب يضفي بصمته على كل خطوة.

وهو..

هو هناك..

ذلك العملاق الأسود الضخم.. يقف بعيدًا عاقدًا ذراعيه على صدره مبتسمًا في سخرية، وهو يراقب ما يحدث.

تلتقط أنفاسك.. لا وقت للخوف ولا للهلع..

(ريمون) يتراجع إلى الخلف ما إن رآه.. وكأنه رأى الشيطان ذاته..

لا وقت للفزع.. يجب أن تتمالك أعصابك..

تضع قدمك داخل الحفرة، فكأنك وضعتها في الجحيم..

صوت الصراخ يتعالى، حتى يوشك على ثقب طبلة أذنك.. هذا ليس صوت استنجاد.. هذا صوت شخص يمزق أو يحترق حيًا.. ثم الدبيب.. الدبيب يتزايد، حتى صار أشبه بالزلزال.. تهتز الجدران والأرض، فيختل توازنك، لتسقط أرضًا جوار الحفرة، وأمام عينيك الملتاعتين ترى الحجر الضخم يهوي بداخل الحفرة..

يهوي إلى حيث (علي)..

صوت تحطم الصخور في الأسفل يمتزج بصوت الصراخ مع صوت تحطم العظام، ويرسم مع سحابة الغبار المتصاعدة، وضوء المشاعل صورة الكابوس.. ثم يسود الصمت.

صمت تام.. وكأن الزمن نفسه توقف..

ثم تنهض.. لا تصدق ما حدث..

تنظر إلى داخل الحفرة..

.«(علي)!!»

يتهدج صوتك، وأنت تكررها أكثر من مرة، ولكن لا رد هناك.. لا جواب.

تنظر خلفك إلى (ريمون)، وعم (سليمان)، والدموع تجري على وجنتيك بدون أن تشعر، مرددًا اسمه بصوت خافت، ثم تهوي على ركبتيك، وقد فقدت أعصاب فخذك قدرتها على حملك.

تنسحب الكاميرا إلى الخلف، وتتصاعد إلى الأعلى، فوق مستوى البيت والغبار الذي يحيطه.

ضوء القمر في الأفق..

ضوء المشاعل المتراقص..

تنظر بطرف عينك إلى مكان العملاق المجهول الذي كان يراقب المشهد.. لا أحد هنالك..

صمت يمتزج بصفير الرياح التي تشتد بقوة..

تظلم الشاشة أمامك تمامًا..

***

(نهايه الحلقة التاسعة)

(الحلقة العاشرة والأخيرة)

الفصل الأخير

The Final Chapter

.«يعنيماينفعش تبدأ في سكة من غير ما تكملها»

***

.«(علي).. (علي).. في إيه بيحصل عندك؟؟»

(صوت دبيب)

(صوت صراخ ممتزج بصوت زئير غريب المصدر)

(بصوت متهدج)

.«(علي)!!»

***

.«ماينفعش تبدأ في سكة من غير ما تكملها»

***

تقترب الكاميرا من بعيد من ذلك الشارع الممطر.. تحديدًا عند كابينه الهاتف (الميناتيل)..

أنتم تذكرون هواتف وكروت (الميناتيل) التي كانت تستخدم في بدايات الألفية.. ولكن ليس هذا موضوعنا، فقط انظروا إلى الشاشة.

هل ترون ذلك الشخص الذي يمشي في المطر متجهًا إلى كابينة الهاتف؟؟

ذلك الشخص هناك، المدثر بالمعطف الجلدي الأسود ذو غطاء الرأس المرفوع.

لا تبدو ملامحه واضحة بسبب الظلال الواقعة على وجهه.. غطاء الرأس الواسع يؤدي عمله حقًا.

يقترب من الكابينة.. ينظر حوله في توتر.. يخرج كارت (الميناتيل) من جيب المعطف، ويضعه في كابينة الهاتف، ثم يلتقط السماعة، ويطلب رقمًا ما، وينتظر لحظة.

أحدهم يرد عليه.. لا نسمع ما يقال بوضوح، ولكن الكاميرا تقترب حتى تعطينا فرصة الإصغاء.

.«أيوة يا (جمال)»

ينطقها، ثم يصغي لمن يحدثه.. تقترب الكاميرا أكثر، وتزداد حساسية سماعة الكاميرا، حتى تتيح لنا الاستماع لمن يحدثه على الطرف الآخر.

.«(مصطفى)؟؟ فيه إيه مالك يابني؟؟»

إنه هو.. (مصطفى).. أنتم تعرفون صوته الذي يبدو مرتجفًا، مرتعدًا على خير العادة..

.«أنا عايزك ضروري.. انزلي دلوقتي حالًا»

يصمت (جمال) لحظة..

.«دلوقتي!!؟ الساعة اتنين بالليل.. فيه إيه يابني حصل إيه؟؟»

.«مفيش.. انزل بس.. لازم أقابلك حالًا»

.«ماشي طيب.. أجيلك فين؟؟»

.«هستناك عند القهوة اللي ورا بيتك.. سلام»

يضع السماعة..

ينتظر قليلًا وهو يفرك كفيه وينفخ فيهما، ثم يلتقط السماعة من جديد، ويطلب رقما آخر.

ينتظر.. ينتظر قليلًا..

لا رد..

يزفر في عصبية، ثم يطلب الرقم من جديد، وينتظر..

.«آلو.. منزل (محسن ميردان)؟؟»

.«أيوة»

الصوت استاتيكي مشوش، ولكنه مسموع..

.«أنا متصل بخصوص (علي) ابنكوا»

.«ماله خير؟؟ بسم الله الرحمن الرحيم!!»

.«ابنكو هتلاقوه في الصعيد.. في قريه (....).. جنب منزل (سليمان الورداني)»

.«الواد ماله؟؟ انت مين؟؟؟»

مشهد بخار الماء البارد المتصاعد من فمه وهو يتكلم يعطي مع منظر الأمطار والشوارع الزلقة خارج الكابينة مشهدًا كئيبًا للغاية..

.«مالوش.. هو كويس.. تعبان بس شوية.. أنا فاعل خير»

صوت مرتجف.. هل تلك المتساقطة من عينه هي قطرات أمطار حقا؟؟

.«فاعل خير مين؟؟ والنبي يابني ما توجع قلبي وطمني»

يضع السماعة مكانها.. ينحني مستندًا بكفيه على ركبيته..

نسمع صوته ينتحب.. صوت بكاء يمزق نياط القلوب.. مشهد شاب بالغ يبكي بهذا المنظر لابد وأن يلقي الرهبة في نفسك..

ثم يعتدل.. يمسح دموعه وأنفه..

يعدل من وضع غطاء الرأس، ويضم معطفه الجلدي إلى جسده في قوة..

يفتح كابينة الهاتف، ويخطو إلى الأمطار في الخارج وهو يتلفت حوله..

تثبت الكاميرا مكانها، وتبدأ في الارتفاع ببطء إلى الأعلى وهو يبتعد بخطوات سريعة في الشارع، وسط الأمطار الغزيرة وضوء أعمدة الإنارة الأصفر الكئيب..

يبتعد..

يبتعد حتى يختفي عن ناظرك تمامًا، وفي نفس الوقت ترتفع الكاميرا أكثر، حتى تعطيك نظرة على مشهد القاهرة الممطرة..

مشهد الضباب..

مشهد الليل الكئيب..

ثم تظلم الشاشة أمامك تدريجيًا حتى تختفي الصورة تمامًا..

***

- ٢ -

نجلس على تلك القهوة..

في الداخل طبعًا؛ لأن الشوارع الباردة الممطرة تمحو أي رغبة لك في أن تشم هواءً نقيًا..

نجلس، ويحكي (مصطفى) كل ما عرفتموه أنتم في الفصل السابق، فلن أكرره من جديد حتى لا أثير مللكم..

أستمع إليه في ذهول..

هذه كارثة.. لا توجد طريقة أخرى لوصفها غير أنها كارثة..

.«وانت كلمت أهله؟؟»

يومئ برأسه إيجابًا، فأنظر له في تساؤل..

.«أيوة.. وماقدرتش أكمل المكالمة.. قفلت»

.«طب قلتلهم على مكانه؟؟»

.«أيوة»

أنظر إليه وهو يجلس واضعًا راحته على جبهته، دافنًا وجهه في كوب الشاي الساخن الموضوع أمامه..

يا له من مسكين! لابد أن شعوره الآن لا يوصف.. تسبب شغفه بالأمر الذي حذرته منه في مقتل قريبه.. والأدهى أنه حتى لا يستطيع أن يرفع عينه في مواجهه أهله.. أعتى الذنوب وأكثرها تأثيرًا هي تلك التي تضطر لإخفائها، حتى عن أقرب الناس لك..

.«اوعى تكون غلطت واديتهم حاجة يتعرفوا بيها عليك»

لا يرد، ويمسك كوب الشاي الساخن بين راحتيه للتدفئة..

أصمت متفهمًا..

لا أدري ماذا أقول.. لا يمكنني أن أبدأ نغمة (ألم أخبرك!؟) الآن، وإلا انفجر بي، وقذف كوب الشاي في وجهي.. يجب أن أحتويه، وفي نفس الوقت يجب أن أجعله يتخلى تمامًا عن الأمر.. إنه هش نفسيًا الآن ومن السهل جدًا إقناعه..

وضعت يدي على كتفه مواسيًا، وأنا أقول:

.«(مصطفى).. معلش.. والله ما عارف أقولك إيه.. مفيش كلام يتقال أصلًا، بس لازم تبعد عن المواضيع دي.. صدقني»

نظر لي والدموع تترقرق في عينه.. مجرد مرآه في هذا المنظر أثر فيّ بشكل غير مسبوق.

يقول بصوت متهدج، ويغلبه البكاء:

.«دي غلطتي أنا يا (جمال).. أنا اللي أصريت على الموضوع.. أنا اللي ما سمعتش كلامك»

أربت على كتفه مواسيًا..

أشعر بأنني أريد أن أحتضنه الآن.. كأنه ابني.. لا أدري ماذا أفعل..

قلت له:

.«ما تفكرش في الكلام ده طيب دلوقتي.. انتماينفعش ترجع البيت.. عندك حد من صحابك ينفع تبات عنده؟؟ يا ريت كان ينفع عندي، بس أبويا وأمي وأخويا قاعدين»

يفكر قليلًا..

.«(محمد) صاحبي آه.. أبوه وأمه مسافرين الكويت، وهو عايش لوحده»

.«خلاص يبقى تروح تقعد معاه فترة.. وفكر في كدبة تقولها للي عندك في البيت»

ينظر لي نظرة ضربت قلبي في مقتل.. نظرة قط صغير محاصر ينظر إليك، وأنت تقتله بالرصاص.

.«تفتكر البوليس هيدور عليا؟؟»

أمسح على كتفه مهدئًا..

.«لأ طبعًا.. ماحدش يعرف إنك كنت هناك.. و(سليمان) مش هيفتن، وبعدين هو أصلًا ما يعرفش عنك حاجة، وما أعتقدش إن (ريمون) كان حاكيله.. انت بس هتختفي زيادة في الحذر شوية»

يهز رأسه موافقًا، ويرفع الشاي بكفيه، ليرشف منه في بطء..

.«صاحبك ده هتقدر تروحله دلوقتي؟؟»

يهز رأسه علامة الإيجاب..

.«طب يلا.. خلص الشاي ونقوم نتصل بيه من أي تليفون، وبعد كده هوقفلك تاكسي»

***

يمر الزمن..

ذهب (مصطفى) إلى صديقه، ومكث لديه لستة أشهر تقريبًا.. لا أدري ما هي الكذبة العبقرية التي كذبها على أهله، ولكنها فعالة بالتأكيد.. كنت أزوره كثيرًا هناك، وأراه في الجامعة.. صديقه (محمد) هذا كانت تبدو على وجهه أمارات الطيبة والسماحة.. لابد أنه أكرم ضيافته.

يمر الزمن..

بعد أن اتصل (مصطفى) بأهل (علي)، ذهبوا إلى الصعيد ومعهم قوة من الشرطة، وعرفوا القصة كلها.. لم يقدر (سليمان) طبعًا على التخلص من الجثة بسبب أطنان الحجارة التي فوقها.. وجدته الشرطه ووزارة الآثار مذنبًا.. لم يتهموه بالقتل طبعًا، بل اتهم بتهريب الآثار، وذهب إلى السجن.

أما (ريمون)، فلم يره أحد.. ذاب تمامًا واختفى كأنه تبخر في الهواء.. كأنه لم يوجد قط..

إلى أين ذهب؟؟ لا أحد يدري..

أقول، يمر الزمن ويمضي بنا الوقت، وكل ما أفكر فيه هو تلك المصائب التي تحدث لنا.

الكوابيس..

مطاردات الرجل العملاق الغامض..

شيء ما كان يخبرني ويجعلني أفهم أخيرًا أن كل هذا الذي يحدث هو بسبب الكتاب.. بدأ كل شيء به، فما الحل؟؟

لابد أن نتخلص منه.. هذا هو الحل.. بداية المشكلة هي نفسها نهايتها.. ولكن أين طرف الخيط؟؟

بالضبط.. صاحب الكتاب..

عمي..

عمي (صلاح)..

لابد أن نذهب إليه أنا و(مصطفى) لنجد حلًا في موضوع الكتاب هذا.. لابد أن (مصطفى) سيوافقني؛ فهو متورط معي في كل تلك الكوارث، وقد حان الوقت لإنهائها.

حان الوقت منذ زمن..

.«آلو»

.«أيوة يا (مصطفى).. بقولك إيه.. انزل قابلني دلوقتي»

***

- ٣ -

(جزء من مذكرات (صلاح) التي وجدها (جمال) بعد ذلك بفترة.. نلاحظ هنا أن المذكرات منظمة ومؤرخة بشكل دقيق، ويدور الكلام المكتوب فيها على مدار أحداث الرواية كلها. لذلك فلن نقرأها كلها طبعًا.. سنقرأ الأجزاء المهمة فقط)

(١)

هناك خيط رفيع جدًا يفصل بين عالمنا والعالم الآخر..

ذلك العالم الموجود معنا.. عالم يشغل نفس الحيز الذي نشغله، ويعيش معنا نفس الحياة. إلا أننا لا نراه لأن عقولنا وأجسامنا وإدراكنا نفسه غير مؤهل لذلك.

هذه أشياء لم تخلق لنعرفها.. هناك نوع من المعرفة لا يمكن لعقلك استيعابه بدون أن يدفع الثمن.. يذكرني الأمر بقصة قديمة لـ(ستيفن كينج) أو (لافكرافت).. لا أذكر بالضبط.. يتحدث فيها عن ذلك العالِم الذي اخترع جهازًا يُمَكِّنُه من تعديل الترددات التي تقدر عينه على رؤيتها حتى يستطيع أن يرى ذلك العالم الآخر، وكانت النتيجة هي أنه جُن فورًا.. لم يتحمل عقله تلك المعرفة..

الأمر شبيه بما أتحدث عنه هنا، إلا أن الوسيلة التي تمكنك من إدراك ذلك العالم الآخر ليست جهازًا، بل هي القراءة.

كثرة القراءة في تلك الكتب التي اقتنيتها مثال (شمس المعارف ولطائف العوارف)، وغيرها تؤدي إلى تمزيق ذلك الخيط الرفيع تدريجيًا.

كلما زادت قراءتك كلما أصبح عقلك وبصيرتك مؤهلين لرؤية لمحات من ذلك العالم الآخر.. لمحات بسيطة للغاية، ولكنها تكفي لإصابة شخص عادي بالجنون بلا أدنى مبالغة.

بعد ذلك يجيء دور التجريب..

***

(٢)

(بعد أشهر)

القراءة وحدها لا تكفي..

لا تكفي وحدها في أن تعطيك نظرة إلى ذلك العالم الآخر.. لابد أن تفعل أشياء أخرى.

أشياء أقوى..

لابد أن تجرب.. تفعل أشياءً لا يقدر من هم غيرك من ضعفاء القلب والإرادة على فعلها.

أشياءً أشعر بأنها محرمة.. أو غير مريحة..

لا أعرف..

***

(٣)

(بعد أشهر أخرى..) بدأت في تنفيذ بعض الأشياء..

بدأت، وبدأت بصيرتي تتضح وتتسع بدورها، إلا أن الأمر لم يكن مريحًا كما تصورت..

تلك الكوابيس الدائمة..

ذلك الخيال الذي أشعر به دومًا حولي ويطاردني..

ذلك العالم المخيف الذي أراه يتكون حولي ببطء.. عالم مريع، شنيع لا أجد فيه شيئًا جميلًا أو مشجعًا.

لابد أن هناك طريقة ما ترسلني إلى عالم أفضل.. تجعل حياتي أجمل.. تحقق لي ما أريده..

وما هو هذا الذي أريده؟؟

لا أعرف.. مازلت لم أره حتى أعرف ما أريدُ حقًا.. كل ما لاحظته هو أنه لا يمكنني التواجد في العالمين معًا.

كلما كانت علاقتك قوية بأحد العالمين، تقل علاقتك بالعالم الآخر، ويقل تماسكك وتواجدك المادي فيه.. حتى الجن أنفسهم عندما يجيئون إلى عالم البشر يقل ارتباطهم بعالمهم الحقيقي.

كل هذا جميل، ولكنه يطرح سؤالًا مهمًا للغاية..

هل أنا مستعد حقًا لأن أذهب إلى ذلك العالم الآخر، وأترك عالمي خلفي؟؟ ولماذا؟؟ ولأجل ماذا؟؟

ما هو حجم التضحيات التي سأقدمها؟؟ مازلت لا أعرف..

***

(٤)

(بعدها بسنوات..)

ما الذي أريده من عالمي حقًا؟؟

لا شيء..

لا يحوي شيئًا سوى الكذب والنفاق والخداع.. لم أشعر يومًا بأنني أنتمي إلى هذه الأرض بأي شكل..

سياسة؟؟ أنا أعيش في بلد ذاهبة إلى الجحيم، فلا أبالي.

حب؟؟ لم أجد واحدة تستحق.. كل من عرفت سافلات، فلا أبالي..

عمل؟؟ لا يقدم ولا يفيد.. أشعر بشعور البقرة المربوطة إلى ونش تحاول جره خلفها، فلا تقدر.. ولا أبالي..

لا أحلام.. لا طموحات.. لا أمل في غد أفضل.. والمصيبة أن الناس تنظر إليك بعيون الحقد والحسد، ظنًا منهم أنك تعيش أسعد حياة ممكنة، وأن النقود هي كل شيء يأمل فيه المرء.. ينظر الواحد فيهم إلى عائلتك وملابسك ونقودك وسفرك الدائم، فيظن أنك تعيش في الجنة بعينها، غير عالم بأن الجحيم على الأرض، ليس شيئًا بعيدًا جدًا.

لا أجد شيئًا أعبر به عن ما يجول بخاطري سوى تلك العبارة الإنجليزية..

Nothing Makes Sense Anymore..

ليست فكرة الهروب سيئة إلى هذا الحد..

***

(٥)

(بعدها بفترة قصيرة)

(نلاحظ هنا أن الخط مهزوز غير واضح، بعكس ذلك الخط المنمق الجميل الذي كتبت به الصفحات الأولى.. كأن الراوي كان يكتب على عجلة من أمره، أو كان يرتجف)

لا أدري كيف يمكنني وصف هذا، ولكن يجب علي تدوينه حتى لا أجن، وحتى أهدأ..

تفريغ التوتر والشحن على الورق يهدئني دائمًا..

فلألتقط أنفاسي.. شهيق.. زفير..

أحاول السيطرة على أعصاب يدي المهتزة..

ما حدث هو أنني وجدتها..

وجدت الطريقة التي كنت أبحث عنها أخيرًا..

طريقة تقول أن هناك وكلاءً، وأتباع يجعلونك ترى عالم الجن وتزورهم.

طريقة تجعلك تتعلم من العلم اللدني الذي هو.. (هنا وصف سريع للعلم اللدني الذي وضحه (جمال) من قبل.. نقفز فوقه بسرعة، ثم نتابع القراءة)

طريقة تجعلك من أصحاب الكرامات والخطوة على حسب تعبير الكتاب.. طريقة تجمع كل ما تشتهيه وتتمناه.. المال والعلم والجاه والسلطة.. كل شيء..

لم تكن الطريقه سهلة التحضير، بل هي شديدة التعقيد، وبالتأكيد لم أكن لأقدر على تنفيذها وحدي.. لذلك فقد أشركته معي.. (نبيل).. (هل تذكرون (نبيل) هذا؟؟ ذلك النجار ضعيف الشخصية إياه)

كان الأمر يتضمن بعض الكتابات على الحائط، وبعض الجلود التي سنجلس عليها، وزيوت معينة سنضعها على جباهنا.. دعك طبعًا من البخور والأعشاب الغريبة التي لا يمكنك تذكر اسمها، ناهيك عن شكلها.

من حسن الحظ أن الجميع ليسوا هنا.. أبي وأمي وإخوتي جميعًا في الصعيد في قريتنا يحضرون زفاف أحد أقربائنا هناك.. لم أكن لأقدر على تنفيذ الطريقة لو كانوا هنا.

دعوت (نبيل) إلى الغداء، ثم إلى كوبين من الشاي الثقيل، وبعدها شمرنا عن ساعدينا وبدأنا.

رائحة البخور الثقيلة..

ملمس الجلود التي نجلس عليها..

منظر الكتابات المقبضة المرسومة على الحائط..

أبدأ في تنفيذ الطريقة..

(هنا وصف تفصيلي للطريقة لن نشرحه طبعًا، لأنه خطير فعلًا.. نحن لا نمزح هنا)

انتهينا أخيرًا..

الآن كل ما تبقى هو الانتظار..

وضعت الكتاب جانبًا، ثم جلست أنا و(نبيل)، وأشعلنا السجائر منتظرين..

لا شيء..

سيجارة أخرى..

لا شيء..

ساعة كاملة مرت بلا أي شيء، حتى بدأت أشك في جدوى الأمر كله..

ثم بعدها بدأت ألاحظ.. الهواء ثقيل..

لا أدري كيف أصف، ولكنني أشعر بأن الهواء نفسه ثقيل على أنفاسي كأنني أختنق.. لا أستطيع التنفس.. شيء يذكرك بمتسلقي الجبال الذين يختنقون على ارتفاعات عالية.

أجاهد لالتقاط أنفاسي.. الضوضاء التي حولي تقل..

أصوات السيارات، وآلات التنبيه، وصياح الناس في الأسفل يتلاشى كأنني في عالم آخر.. كأنه لا بشر.

أنظر إلى (نبيل) الذي ينظر لي في ذهول ويتكلم.. لا أدري ماذا يقول بالضبط، ولكنني أرى شفتيه تتحركان.

ثم صوت الدبيب هذا..

دبيب يجعل الأرض تهتز تحت أقدامك، كأنها خطوات ديناصور قادم لالتهامك..

ذلك الضوء الأزرق الغامض الآتي من اللامكان..

ذلك الدخان الذي يغلف كل شيء حولنا بلا نار.. كأن الشقة تحترق بلا أي شعلة..

تلك الرائحة الكريهة الحارقة القادمة من أعمق أعماق الجحيم..

الدبيب الذي يجعل الدم يتجمد في عروقك..

الخوف يبلغ منتهاه ويدخل إلى مرحلة أعلى وأشمل..

مرحلة الفزع..

و عندها.. رأيته..

***

.«خلاص متفقين؟؟»

نظر لي (مصطفى) في صمت ونحن ندخل إلى بناية جدتي لزيارة عمي (صلاح) وإقناعه بالعدول عن الأمر كله والتخلص من الكتب..

نجحت في إقناعه أخيرًا.. هذا هو الانتصار الأول.. الانتصار الثاني يتمثل في عمي نفسه.. من حسن الحظ أن أبي وأمي وجدي وجدتي و(عمر) في الصعيد يحضرون زفاف أحد أقربائنا، فلولا ذلك لما استطعت التحدث إليه على راحتي أنا و(مصطفى).

لأول مرة أشعر أن قانون الصدفة يعمل في صالحي هذه المرة.

رد (مصطفى)، ونحن نبدأ صعود الدرج:

.«وتفتكر هو هيقتنع بالسهولة دي؟؟»

قلت له، وأنا أعدل وضع المعطف على جسدي:

.«أدينا هنشوف»

نصعد الدرج..

نصعد حتى نقف أمام باب المنزل تمامًا..

نرن الجرس..

لا شيء.. كأنه منزل من الموتى..

أنظر لـ(مصطفى) في حيرة، ويبادلني نفس النظرة في صمت، فأرن الجرس مره أخرى.. طويلًا هذه المرة.

صوت خطوات.. خطوات تتحرك نحو الباب..

لسبب ما لا أشعر بالارتياح من صوت تلك الخطوات.. إيقاعها غريب، ولم أعتده من قبل.. كأن صاحبها يمشي هائمًا على وجهه..

أتراجع للخلف خطوة، وقد بدأ الخوف يتصاعد ويتشكل..

الخطوات تتوقف.. أمام الباب مباشرة..

يسود الصمت للحظة.. لحظة طالت كالأعوام.. ثم يدور مقبض الباب..

أسمع صوت تكه خافتة..

صوت صرير خفيف..

ينفتح الباب على مصراعيه..

أنظر إلى الواقف على الباب..

عمي (صلاح)..

من المفروض أن يتراجع خوفي عندما أراه، إلا أن هذا لم يحدث.. بل حل شعور آخر محل الخوف..

شعور التوجس..

أنظر إلى وجهه وملامحه.. يبدو تائهًا، كمن لم يرَ بشرًا من قبل.. عيناه زائغتان، ووجهه ممتقع كمن رأى شبحًا.. ملابسه مبعثرة، كأنه كان ضائعًا في صحراء لا حدود لها.

انتبهت فجأة إلى أنني أقف على الباب، فقلت:

.«إزيك يا عمي؟؟»

لا يرد..

لا يرد، ونفس النظرة الزائغة على عينه تحكي أهوالًا لم يرها بشر من قبل..

يشير لنا إلى الصالة لنجلس فيها أنا و(مصطفى)، ثم يستدير داخلًا إلى غرفته بلا كلمة أخرى.

نظر لي (مصطفى) حائرًا، وقال متوجسًا:

.«هو إيه أصله ده!!؟ عمك ماله؟؟»

نظرت له نظرة ذات معنى، وأنا أدلف إلى الداخل.. إلى الصالة..

يدلف (مصطفى) خلفي ناظرًا حوله في كل مكان.. شعور مقبض يستولي علينا.. هناك شيء ما.. شيء غير مريح.. أشعر به كشعوري بأصابعي.. إنه موجود ويفرض نفسه على كل ركن من المكان..

ثم تلك الرائحة..

رائحة قادمة من أعماق القبور.. رائحة لم أعهدها قط..

رائحة غير أرضية..

نجلس في الصالة..

نجلس، ويمر الوقت..

(مصطفى) صامت ينظر لي متوجسًا، وأنا أنظر إلى باب غرفة عمي المغلق..

شيء ما يحدث.. أنا أشعر به..

أنهض من مكاني، وينهض (مصطفى) ورائي..

أتجه إلى باب الغرفة..

خطوات بطيئة، متثاقلة تنطق بالخوف.. الخوف النقي.. الخوف الوحشي غير المبرر الذي لا يجدي معه أي تعقل..

أقف أمام باب الغرفة.. أمد يدي إلى المقبض المذهب.. أديره..

(صوت الباب ينفتح بصرير خافت)

أنظر إلى الداخل..

***

(باقي مذكرات (صلاح) التي وجدها (جمال) فيما بعد)

.«عايز إيه؟؟»

صوت جهوري.. صوت يوشك على تفجير أذنك من قوته..

صوت غير بشري..

.«عااايز إيييييه!!؟»

قلبي يوشك على التوقف رعبًا.. تبدأ الموجودات في الاهتزاز أمامي..

أوشك على أن أفقد الوعي..

.«بتتدخل في اللي ما يخصكش لييييه!!؟»

صوت كالزئير.. صوت يمكنه أن يقتل..

وهو يقف أمامي.. ضخمًا كما لم أتخيل في حياتي..

أسود قاتم السواد، كغرفة حالكة..

لا يمكنك أن تميز شيئًا من ملامحه، ولكنك تعرف أنه هناك..

تعرف أنك هالك لا محالة..

تعجز عضلات قدمك عن حملك، فتسقط على المقعد خلفك وتنظر بطرف عينك إلى (نبيل) المتسمر في مقعده بآخر ما تبقى في وعيك..

تسقط على المقعد، وتشعر بأن روحك تخرج من جسدك.. تنسحب..

وتبدأ الكوابيس..

***

أنظر إلى الداخل..

عمي (صلاح) وصديقه المنفر (نبيل).. جالسان على مقعدان وأعينهما مغمضة كأنهما نائمان..

مشهد يثير الرعب في نفسك..

لم يعد الدم هو ما يجري في عروقك، بل هو الأدرينالين..

أدرينالين تفوح رائحته ممتزجة برائحة الخوف..

(مصطفى) يتراجع خطوة إلى الخلف متوجسًا، وهو يمسك ذراعي لا شعوريًا.. ولا أجرؤ أنا على الدخول، فأقف مكاني متسمرًا لا أدري ما أفعل..

ثم يبدأ صوت الأنين..

أنين مكتوم يتصاعد من الاثنين، وكأنهما يختنقان أو أن شخصًا ما يقوم بتعذيبهما..

أنين من يأمل في الخلاص ولكنه لا يقدر..

أنين يتعالى تدريجيًا حتى يصبح أشبه بالصرخات، فأتراجع خطوة إلى الخلف، وأشعر بكف (مصطفى) البارد المرتجف يتصلب على ذراعي، فأرتجف أكثر..

ضربات قلبي تزداد حتى أشعر بأن كل ضربة لا تشبه الأخرى..

ثم فجأة.. يستيقظ الاثنان..

يهبان من مكانهما واقفين فجأة، في مشهد جعلني أنا و(مصطفى) نستدير خارجين من الغرفة كأن الشيطان يطاردنا..

(مصطفى) يصطدم بالحائط خلفي، بينما ألتصق أنا به وأنا أشاهد (نبيل) يخرج راكضًا من الغرفة بأقصى سرعته كأنه في الشارع..

يركض، ولا يستطيع التحكم في اتجاهه، فيتعثر في الباب، ويسقط أرضًا.. ثم يهب واقفًا من جديد ويجري مصطدمًا بالحائط، ثم يسقط أرضًا، ويهب من جديد، ليجري نحو باب الشقة، ويفتحه خارجًا، لينزل الدرج وثبًا..

أنا و(مصطفى) نلتصق ببعضنا، والحائط في ظهرنا، لا نجرؤ على التحرك..

أثبت عيني على مدخل الغرفة..

يمر الوقت.. دقيقة.. دقيقتان..

عمي (صلاح) مازال في الداخل..

أقترب من الغرفة، و(مصطفى) إلى جواري، وأنظر إلى الداخل في حذر..

يقف هو هناك.. في منتصف الغرفة تمامًا.. يقف كمن لا يرى بشرًا حوله..

يرتعد كأنك سكبت عليه ماءً مثلجًا..

أحاول الكلام، فيخرج الصوت من حلقي مرتعدًا:

.«عمي.. فيه إيه؟؟ مالك؟؟»

لا يرد، ولا يبدو عليه حتى أنه سمع.. صامت كالقبور..

.«عمي؟؟»

لا رد..

يمر الوقت..

نصف ساعة كاملة مرت، ونحن نحاول التحدث إليه بلا فائدة..

كأنه لا يسمعنا أصلًا..

ثم يفيق..

.«عايز أشرب»

ننتفض ونحن ننظر إليه.. لقد تكلم أخيرًا..

يدير وجهه إليّ أنا و(مصطفى) ويقول:

.«هاتولي أشرب»

يستدير (مصطفى) خارجًا من الغرفة ليحضر له الماء، بينما أقول أنا وأنا ألاحظ –لأول مرة– تلك الكتابات الباهتة على جدران الغرفة:

.«فيه إيه اللي حصل؟؟ مالك؟؟»

ينظر لي في صمت..

عيناه تحكيان ما حدث أبرع من ألف حرف..

ولكنه لا يرد..

***

(بقيه مذكرات (صلاح))

تبدأ الكوابيس..

تشعر وكأنك في عالم آخر..

لا يمكنني أن أصف ما رأيته، لأنه لا قلم يقدر على ذلك..

قلت لكم من قبل أن نظرة واحدة تكفي لأن يصاب المرء بالجنون، فما بالكم بعمر كامل؟؟

عمر كامل مر عليّ وأنا ضائع في ذلك العالم المريع..

لا أدري من أنا، أو ماذا أفعل..

عالم لم يُخلق ليراه بشر..

نفس الأماكن، ونفس الشقة والحي والأشجار.. ولكنه عالم مختلف تمامًا..

كابوس.. كابوس يطاردك في كل مكان..

لا.. لا يمكنك وصفه بالكابوس؛ فحتى الكابوس يمكنك الاستيقاظ منه..

لكن كيف تستيقظ من الحقيقة؟؟

لا أعرف.. ولكنني أعتقد أنني أموت..

أعتقد أن كل شيء ينتهي..

أشعر بجسدي يتحلل، وارتباطي بعالم الأحياء يقل..

لقد فات الأوان..

***

ينظر لي، وأنظر له..

ولا يتكلم..

لا يرد..

يدخل (مصطفى) حاملًا زجاجة الماء، ويناولها له، فيجرعها كلها ويسقط نصفها على صدره، كأنه لم ير ماءً في حياته..

ثم يلهث.. يمسح فمه بكمه..

أنظر له في صمت بينما يجلس (مصطفى) جواري..

ما الذي حدث؟؟ ما الذي كان يفعله هو و(نبيل) هنا؟؟

لا أعرف.. ولكنني أوقن من شيء واحد..

لقد حان الوقت..

لابد أن أستغل حالة الهلع تلك حتى أقنعهم بالتخلص من كل شيء للأبد..

.«يا عمي!»

ينظر لي متسائلًا..

.«إحنا لازم نخلص من الحاجات دي كلها.. الكتب والأبحاث وكل حاجه بتربطنا بالمواضيع دي»

ينظر لي نظرة غريبة.. نظرة لا أستطيع سبر أغوارها..

ولكنني أتكلم برغم كل شيء..

.«عمي.. انت مش عارف اللي بيحصللنا بسببها.. وانت كمان أهو.. مش عارف إيه اللي بيحصللك، بس أنا خايف عليك وعلينا كلنا.. الموضوع كبر ووسع أوي»

مازال ينظر لي بنفس النظرة العجيبة..

.«(مصطفى) لوحده حصلت معاه كارثة.. وهو برة الموضوع أصلًا.. احكيله انت يا (مصطفى)»

وأشير لـ(مصطفى) أن يتكلم كما اتفقنا، فينظر لي في تردد..

أومئ برأسي مشجعًا، فيبدأ في الكلام..

يحكي له كل شيء..

القوه النفسية..

خيال المرآة.. لا يحكي كل شيء عن خيال المرآة ولا أدري لماذا..

ثم يحكي له عن (علي)..

يتهدج صوته وهو يحكي، ويعتدل عمي مكانه، وهو يصغي في اهتمام بنفس النظرة العجيبة..

ينتهي (مصطفى) من الكلام، وينظر له متسائلًا، فيلتفت عمي لي وهو يقول:

.«يعني عايزنا نعمل إيه؟؟»

لقد وافق..

لا أصدق نفسي، ولكنه وافق..

قلت في سرعه متلعثمًا:

.«آآآ.. مش عارف.. ندفنهم في أي حتة أو نحرقهم»

.«حرق لأ»

قالها وهو يرفع سبابته، ويهز رأسه محذرًا، ثم قال:

.«هندفنهم.. لكن حرق ونار لأ»

قال (مصطفى):

.«ليه!؟»

لم يرد، ونهض من مكانه ليجمع الكتب من غرفته، ثم التفت وقال لي:

.«الكتاب فين؟؟»

قالها ثم استدار خلفه، ليبحث تحت حشايا السرير حتى أخرجه..

ناوله لي، فالتقطته ونظرت إليه لحظة، ثم قال هو:

.«يلا بينا»

***

.«خد امسك شيل دي»

أناول (مصطفى) تلك العلبة الكبيرة من الورق المقوى التي وضعنا بداخلها الكتب، فيحملها من بين يدي، بينما أقول أنا لعمي:

.«فيه كتب تانية؟؟»

يقطب جبينه لحظة متذكرًا، ثم يقول:

.«لأ.. كله تمام.. يلا»

نتجه إلى باب الشقة ونفتحه هابطين على الدرج..

.«معاك العربية؟؟»

أقولها لعمي، فيرد وهو يخرج سلسلة مفاتيحه:

.«أيوة»

نخرج من البناية إلى الشارع، فأتناول العلبة من (مصطفى)، بينما يفتح هو الباب الخلفي ليركب، ثم أضعها بجواره وأدور لأجلس في المقعد الأمامي، ويجلس عمي بجواري..

(صوت غلق أبواب السيارة)

يمد عمي يده بالمفتاح، ويضعه في الـ(كونتاكت)، ثم يديره..

(صوت المحرك يدور)

لا شيء..

يديره مجددًا..

(صوت المحرك يدور)

لا شيء مجددًا..

ينظر لي نظرة ذات معنى وهو يديره مجددًا..

(فررررروووووووم)

(صوت المحرك يعمل)

يتنفس عمي الصعداء، وهو يتحرك بالسيارة..

.«هندفنهم فين؟؟»

أقولها له، فيرد وهو ينظر في مرآة السيارة:

.«في حتة كده أنا أعرفها على الكورنيش»

أومئ برأسي إيجابًا في صمت، وتتحرك السيارة..

تسير في الطريق وأنا أنظر عبر النافذة.. عقلي يتذكر على الرغم مني كل ما حدث..

أتذكر كلام عمي..

«عارف يا (جمال).. دايما بيشغلني موضوع حروف القرآن.. معناها إيه.. ليه موجودة كده ومكتوبه بالشكل ده.. نفسي أفهم.. طول حياتي بدور وبقرأ في كتب عشان أوصل لحاجة»

أتذكر كلام أمي..

«بص.. أنا مش هعملك حاجة.. أنا هنصحك.. الكلام اللي في الكتاب ده عبارة عن سحر.. سحر وكفر صريح.. مش معقولة انت متعرفش.. الطريق ده مش هيوديك ف حتة إلا على جهنم.. هيدمرلك حياتك»

أتذكر كلام الشيخ..

«ابعد عنه أيًا كان.. الكلام ده مش هيفيدك في حاجة غير إنه هيدمرلك حياتك، وهيغضب عليك ربنا»

أتذكر..

ما هذا؟؟

السيارة تمشي على الطريق، وأراه في كل المارة..

ذلك العملاق الغامض..

لا أناس هناك، بل هو..

كل المارة هم نسخ منه..

أنظر إلى (مصطفى) وعمي، لأرى إن كانوا يرونه أم لا، فتجيبني نظرة الهلع على وجوههم بالإيجاب..
ثم يتمالك عمي نفسه ويقول وهو ينقل عصا السرعة:

.«سلامٌ قولًا من رب رحيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم»

عن النظرة التي ينظرها لنا هؤلاء المارة ونحن نمشي..

لا، ليس البغض.. ولا المقت.. أنت بحاجة لكلمه أعمق وأكثر تأثيرًا..

تشعر بأنهم على وشك أن ينقضوا على السيارة، ليحملوها ويلقوها في النيل وأنت داخلها..

نصل أخيرًا إلى المكان، فنترجل من السيارة ويناولني (مصطفى) الصندوق، بينما يبدأ عمي في الحفر..

الجو يتغير فوقنا..

السحب والغيوم تعطي للمشهد رونقًا خاصًا.. رونق الكآبة..

يحفر عمي بالمجرفة..

يحفر..

وذلك العملاق الغامض قادم من بعيد.. يبدو شكله واضحًا بطريقة الـ(سيلويت) المميزة..

.«عمي.. بسرعة!»

ينظر إلى حيث أنظر أنا و(مصطفى)، ثم يواصل الحفر بأقصى سرعة..

ومازال ذلك الغامض يقترب..

يرمي العلبة بداخل الحفرة، ثم يهيل عليها التراب..

مازال يقترب..

الخوف يتعاظم.. يتجسد ويتخذ صورة ذلك الغريب القادم..

إيقاع ضربات قلبك يتعالى، ويصنع موسيقى تصويرية رهيبة للمشهد.

ينتهي عمي من عمليه الدفن، فيلقي المجرفة داخل السيارة، ويقفز داخلها، وأقفز خلفه أنا و(مصطفى)، ونغلق الأبواب خلفنا.

ذلك الغريب يقترب حتى صرت ترى ملامحه بوضوح..

لن أصفها.. سأترك المشهد لخيالكم..

يقترب أكثر، وتبدأ خطواته في التحول إلى الركض..

يضغط عمي على دواسة البنزين بأقصى قوة..

(صوت احتكاك العجلات على التراب)

وتنطلق السيارة مبتعدة..

***

نفتح باب الشقة بالمفتاح..

ندلف إلى الداخل..

يلقي عمي معطفه على الكرسي، ويزفر في حرارة وهو يلقي بجسده على مقعد بجوار الباب، ثم ينظر لي أنا و(مصطفى)، ليجدنا متسمرين في أماكننا.. فيدير عينه إلى حيث ننظر.

إنها العلبة!!

موضوعة على السُفرة بكل براءة، ومفتوحة من الأعلى، تظهر في داخلها الكتب.

ينظر لها في ذهول..

ينهض من مكانه ويقترب، بينما أمسك أنا و(مصطفى) الكتب لنتأكد أنها حقيقية.

ملمس الورق القديم والأغلفة القوية بين يديك.. إنها حقيقية..

أنظر لعمي في ذهول، بينما يقول هو، وهو يلتقط معطفه من جديد:

.«هاتهم.. هاتهم ويلا.. هنروح ندفنهم في حتة تاني»

ألتقط الكتب، وننزل على الدرج..

يمر الوقت..

ساعة..

ساعتان..

نكرر الأمر أكثر من أربع مرات، وفي كل مرة تعود الكتب من جديد إلى البيت، كأن أحدًا لم يلمسها.

اليأس.. اليأس يمتزج بالرعب، ويشعرك بأنك سجين..

بأنه لا خلاص.. لا مهرب.. لا مفر..

ندخل إلى الغرفة، ونحاول أن نبحث في الداخل.. ربما كانت هناك كتبًا نسيناها..

لا شيء..

أخرج من الغرفة، فأجده جالسًا..

عمي (كمال)..

يجلس في الصالة يشاهد التلفاز، وينظر لي في تساؤل..

.«عمي (كمال)!؟ انت هنا من إمتى!؟ وما جيتش سلمت علينا ليه!؟»

ينظر لي في دهشة، كأنه اكتشف أن لدي هوائيًا على رأسي..

.«يابني مانا جيت وقعدت معاكوا، انتوا اللي ساكتين، ومش عايزين تتكلموا!»

يخرج عمي (صلاح) و(مصطفى) من الغرفة في هذه اللحظة على صوته، بينما يكمل هو كلامه، وهو ينظر في حيرة إلى عمي (صلاح):

.«رحت طالع أتفرج على التليفزيون»

صوت عمي (صلاح) يقول في هدوء:

.«انت هنا من إمتى يا (كمال)؟؟»

.«من بدري.. انتوا بتعملوا إيه ده كله جوة في الأوضة، وقافلين على نفسكوا؟؟ فيه إيه؟؟»

أقول له: .«انت ماشفتناش، وإحنا خارجين!!؟؟»

نظره الحيرة على وجهه تتعاظم، وتمتزج بالتوجس..

.«الباب ماتفتحش بقاله ساعتين.. انتوا بتشربوا مخدرات ولا إيه!؟»

ننظر أنا وعمي (صلاح) و(مصطفى) إلى بعضنا نظرة أفصح من أي كلام..

ثم ندخل معًا إلى الغرفة لنتكلم..

.«واضح إننا متنومين.. إحنا ماخرجناش أساسًا، بس فاكرين إننا خرجنا»

يقولها عمي (صلاح)، فأنظر له أنا و(مصطفى) في ذهول..

.«الحل الوحيد إن هو اللي ييجي معانا»

ثم ينظر لنا، وهو يجمع الكتب داخل العلبة من جديد ويغلقها بإحكام..

.«هو الوحيد فينا اللي فايق فعلًا، وما احتكش بأي حاجة من اللي حصل»

ثم نخرج من جديد إلى عمي (كمال) حاملين العلبة.. ويخرج صوت عمي (صلاح):

.«بقولك إيه طيب.. تعالى معانا عشان هنودي الخلاط يتصلح»

ينظر لنا في دهشة.. لا يفهم، ولكنه يشعر بشيء ما.

يعرف غرابة الأمور التي تحدث في هذا البيت، فلا يتكلم.. ينهض في صمت، فأناوله العلبة.

.«خد أهو»

يحملها في صعوبة مندهشًا من وزنها.

.«ماله بقى تقيل كده!؟»

.«معلش.. يلا بينا بس»

يربت عمي (صلاح) على كتفه، ثم يفتح له الباب ليخرجه.. ونخرج جميعنا خلفه.

***

ننطلق بالسيارة..

ننطلق عبر الكورنيش من جديد، بينما يحكي عمي (صلاح) كل ما حدث لعمي (كمال)، وينظر له الأخير بدهشة من يصدق، ولكنه لا يستوعب.

إنه يعرف أن أشياءً كثيرة تحدث لنا.. لم يكن موضوع عمي (صلاح) الذي خرج وعاد بملابس مختلفة أغربها، لذلك فهو على استعداد للتصديق.

ننطلق عبر الكورنيش..

أنظر حولي عبر نافذة السيارة في كل مكان باحثًا عن الغامض، فلا أجده.

نصل أخيرًا إلى المكان الذي دفننا فيه العلبة من قبل..

نترجل من السيارة، وتنفتح أبواب الجحيم..

(صوت صراخ عالٍ جدًا يوشك على إصابتك بالصمم)

(صوت دبيب)

نبدأ في الحفر..

(صوت زئير يأتي حولنا من كل مكان)

قلبي ينتفض، ويوشك على القفز من مكانه، بينما نواصل الحفر..

(صوت صراخ شنيع كأن صاحبه يحترق حيًا)

أنظر إلى الأفق من بعيد، فأراه..

ذلك الغامض الأسود..

يتلوى في قوة وكأنه يحترق، ويسقط أرضًا، ثم يهب واقفًا من جديد، ويحاول أن يصل إلينا، ولكنه لا يقدر.

يسقط أرضًا، واضعًا يديه على عنقه كمن يختنق..

ويختفي من أمامي فجأة، ليظهر في زاوية أخرى وهو يصرخ بقوة فاتحًا فكيه على آخرهما، باتساع لا يمكن لبشري أن يصله.

(صوت صراخ آتٍ من قلب أعماق الجحيم)

نضع العلبة في الحفرة، ثم نهيل عليها التراب..

صوت عمي (كمال) يردد القرآن يمتزج مع صوت أنفاسي أنا وعمي (صلاح) و(مصطفى) اللاهثة، ويرسم مع صوت المجرفة، وصوت الصراخ غير الآدمي صورة حقيقية للكابوس.

ثم ينتهي كل شيء..

نقف جميعًا لاهثين، وقد توقف صوت الصراخ، واختفى ذلك الغامض تمامًا.

أنظر حولي، وأقول لعمي (صلاح) بصوت مرتعد: .«خلاص كده!؟»

تدور الكاميرا حوله، وتركز على ملامح وجهه وهو يتمالك أعصابه، ويصمت لحظة، ثم يقول:

.«على ما أعتقد»

وتنسحب الكاميرا بقوة إلى الأعلى، وتدور لتنقل مشهد السحاب الأزرق في الأفق.

مشهد الطيور التي تحلق في السماء..

ثم تظلم الشاشة تمامًا..

***

(جزء من مذكرات (جمال) التي كتبها بعد فترة..)

هل انتهى الأمر حقًا؟؟

لا أدري.. لا أدري فعلًا، ولكن الكوابيس توقفت تمامًا، وذلك الغامض كف عن الظهور.. أعتقد أن ذلك يعني أن كل شيء توقف فعلًا.

يبدو الأمر لي مريبًا.. توقف كل شيء بمجرد دفن الكتب؟؟ لا أشعر بالارتياح، ولكن الحياة تمضي..

تمر الأيام..

بدأت أنا وعمي و(مصطفى) نواظب على الصلاة، ونتمسك بالدين بقوة.. يجب ألا ندع شيئًا مثل هذا يحدث مرة أخرى.. لقد تعلمنا الدرس بالطريقة الصعبة فعلًا.. وفي تلك الفترة، بدأت أنا في عمل أبحاث منظمة ومنمقة عن كل ما حدث منذ بدأ الأمر.

ما الذي حدث بالضبط؟؟

الكثير فعلًا..

البداية كانت مع (محسن خرسا)..

لا أدري ما الذي حدث وقتها بالضبط، وما إذا كان ظهوره نتيجه نجاحي أنا و(مصطفى) فعلًا في طريقة إحضار الغائب، أم أنها صدفة مستحيلة.. أنا لا أؤمن بالصدف على أي حال، ولكنني أؤمن

بالأقدار.. قد يكون قدري هو أن يظهر هو من العدم، حتى أستمر أنا و(مصطفى) في ذلك الطريق، ونتعلم درسًا لا ننساه.

ربما جعله الله سببًا لخوض تلك التجربة.. يبقى هناك احتمال أن ما فعلته أنا و(مصطفى) استدعاه فعلًا، إلا أنني أميل إلى الجزئية الأولى من التفسير.

وماذا عن قفل الرصد؟؟

ذلك هو الشيء الأغرب بالنسبة لي في كل هذه القصة، وهو الدليل القاطع على وجود السحر الحقيقي الذي تستطيع أن تمارسه.. لكنه يظل في النهاية سحرًا حرمه الله علينا.

النقش كان يلمع أمامي كالذهب عندما كنت أراه، وأحيانا يختفي، وأحيانًا يتكامل مع أشكال أخرى، مكونًا رموزًا وكلمات لا أفهمها. الحقيقة أن عمي (صلاح) كان غامضًا جدًا في تلك الفترة، ولم أستطع استخلاص الكثير من المعلومات عن النقش في ذلك الوقت، لكن ما عرفته لاحقًا هو أن هذا النوع من النقوش موجود تقريبًا في معظم كتب السحر، في كل الحضارات والثقافات لحماية البيت ومراقبة المكان.

من أكثر الأشياء التي أثارت حيرتي موضوع النوم يوم الأربعاء، والاستيقاظ يوم الإثنين.

المعتاد أن يتقدم الزمن، لا أن يرجع للوراء.. الموضوع كان غريبًا فعلًا، واستغرق مني الكثير من الوقت والجهد حتى أستطيع الفهم.

ما هو اليوم الذي قمت بتحضير الطريقة فيه؟؟

اليوم الذي قمت بعمل التحضير فيه هو يوم الجمعة.. (مصطفى) قال وقتها أنني تغيبت يومين كاملين عن الدراسة لم يرني فيهما، وكان اليوم الذي رآني فيه هو يوم الإثنين.. إذًا فأكثر التفسيرات منطقية هو أنه –لسبب ما لا يعلمه إلا الله– طار يومان كاملان من ذاكرتي تمامًا.. يومان كاملان لا أدري ما الذي كنت أفعله فيهما.. بالسؤال عنهما قالت لي والدتي أنني فعلًا كنت متغيبًا عن المدرسة

نتيجة لمرض ألم بي.. كل هذا جميل جدًا، لكن كيف انمحى هذان اليومان من حياتي، وكيف هُيِّأ لي أنني عدت في الزمن إلى يوم الأربعاء؟؟

بصراحة شديدة، ما عرفته واختبرته من ذلك الكتاب هو أنه يلعب بالوعي الخاص بقارئه.. هناك شيء غريب يتعلق به، يجعلك تقضي الساعات والأيام منعزلًا عن العالم أجمع، كل ما يهمك أن تكون مع الكتاب فقط.. كثير مما تراه هو نسج من خيالك أنت، ولا وجود له في الواقع.. شيء كالتنويم المغناطيسي أو الهلاوس.. تقضي ساعات أمام الكتاب، وتشعر أنها دقائق، ودقائق تشعر أنها أيام.. إذًا معنى هذا أن ما حدث بالترتيب كان القراءة والتحضير يوم الجمعة، تغيبت يومين، عدت إلى المدرسة يوم الإثنين معتقدًا أن اليوم هو الأربعاء نتيجه لتلك الهلاوس التي كانت في عقلي.

ما الذي حدث بعد هذا؟؟ آه..

الحاجة (صفصف)..

مرة أخرى ما حدث لا تفسير له على الإطلاق، ولا أستطيع حتى أن أجزم بأي شيء.. أنا لم أرَ المعالجة (صفصف) ولا مرة في حياتي، إلا عن طريق نتائج البحث على الإنترنت، بعد ذلك عنها في محاولة لإيجاد أي خيط يقودني لها، أو لمعرفة ما تفعله.

كل ما سمعته حكايات وأقاويل.. الحكاية التي سمعتها من أقربائي صحيحة تمامًا بالنسبة لي، ورأيت تأثيرها على شفاء المريض بعيني، لكن لو سألتني كيف كانت تفعل ذلك، وأين اختفت؟ ولماذا أنكر من حولها رؤيتها؟ فأنا لا أعرف.

الجدير بالذكر هنا أن لها سيرة عطرة.. في كل حكاياتها على الإنترنت، أو في الأماكن التي سألت فيها عنها باحثًا، كان من أسأله يشيد بالمرأة وكأنها قديسة، فهي لا تأخذ أجرًا على ما تفعله، محجوبة تقريبًا عن الناس.. حتى جيرانها السابقين – الذين يتذكرونها عندما تسألهم– يذكرونها بالخير دومًا.

أما عن ما حدث لـ(مصطفى) فهو فعلًا شيء غريب.. قد يكون مجرد تأثير نفسي أصابه بعد التجربة، وقد يكون ما رآه شنيعًا بالفعل.. ربما كان سحرًا مؤذيًا.. الحقيقة أن الأشياء التي تحدث لمن يقرأ الكتاب لا تدع في نفسه بعدها الرغبة في الكلام أو التحدث.. حدث ذلك مع عمي، وحدث مع

(مصطفى) أيضًا، وكأن الكتاب يطوي الأسرار بداخله.. لكن ما أنا متأكد منه هو أن (مصطفى) أصبح له تأثير نفسي رهيب وغير مريح.

ما حدث مع عمي أيضًا ليس أغرب ما فيه هو دخوله وخروجه وغضبه مع أعمامي، وأعمامي حينها لم يكونوا على دراية بأي شيء عن الموضوع إلا أن عمي قد تغير.. كيف ولماذا؟؟ لا يعرفون.

لا يعرفون أن هناك كتابًا أو تعاويذ وما إلى ذلك.. هل هو تأثير نفسي أيضًا؟؟ أخشى أن أقول أن عمي وقتها كان منغمسًا حتى الأذنين في أعمال فظيعة، وذلك ما عرفته من نوعية الكتب التي كان يملكها، والتي كان (شمس المعارف) بالنسبة لها رواية أطفال.

بالنسبة للأحلام الغريبة، فالكل يحلم.. لا حاجة إلى تفسير الأحلام، ولكن هذا لا يمنع أنها حقًا غريبة.. يمكنك سؤال أي طبيب نفسي، وسوف يخبرك أن أحلامك هي نتيجة ما تعيشه في يومك بشكل أو بآخر.. وأنا كنت أقرأ في تلك الفترة كتابًا، وأغوص فيه ما يزيد عن أربع ساعات يوميًا، بشكل متواصل.. كل ما يشغل بالي هو عوالم أخرى، وأجواء رعب مريع.. إذًا فبالتأكيد ما سأحلمه سيكون من واقع ما أعيشه وأفعله في حياتي اليومية.. هذا طبيعي ومعتاد.

حلمي بالحجاب تفسيره من أسهل ما يمكن، وهو الحلم المتجلي الذي تكتشف فيه حقيقة ما، أو تكون نائمًا مستيقظًا.. العديد من الناس حول العالم يحدث لهم مثل ذلك من آن لآخر، وتدل تلك الظاهرة على أن الإنسان أصبح أكثر شفافية بشكل ما، ولا يشترط أن يكون ذلك نتيجة السحر أو القراءة في أي كتاب.. كم مرة سمعت عن من يحلم بأن فلان سيموت، ويحدث ذلك فعلًا، أو عن من يحلم بشيء يحدث من الماضي.. بالنسبة لي هي شفافية لا أكثر ولا أقل.

أما عن كاشف الحجاب، فهذا الرجل نصاب بلا أدنى شك.. رأيت الحيلة تحدث بعد ذلك أكثر من مرة، وبدأت أفهمها.

يأتي الرجل بهالة وغموض يحيطه، ويرسم للناس أنه شيخ ليضيف مسحة دينية على الموضوع، في حين أنهم دائمًا ما يخبئون شيئًا ما في أيديهم، أو في أكمام الجلباب.. كالسحرة أو ممارسي فن الوهم (Illusion).. لاحظ أنهم جميعًا يلبسون جلابيبًا طويلة واسعة، ليستطيعوا إخفاء أدواتهم بداخلها،

وجو الغموض الذي يقومون به، وحالة الرعب النفسي هي في الواقع، لتشتيتك أنت، والإيقاع بك في الفخ وإلهائك عما يدور.. إنها القاعدة الدائمة.. إذا ما جعلك الساحر تنظر إلى مكان ما، وركز انتباهك إليه، فالخدعة الحقيقية تحدث في مكان آخر.. لا داعي للقول بأن الحجاب كان مخبئًا في داخل يده.. هذا شيء واضح ومفهوم.

أما عن كيف جعلني أرى منزل خالي، وهو يمسك يدي فتفسيري هزيل.. قد يكون هذا الرجل على علم بطرق التنويم المغناطيسي بشكل أو بآخر، واستخدم ذلك في أن يستدعي من ذكرياتي رؤيتي للمنزل.. لا أدري حقيقة.

كل هذا جميل، لكن ماذا عن هندسة القرآن والعلوم التي تحويها تلك الكتب؟؟ ما هي فعلًا؟؟

أولًا بالنسبة للقرآن، فعلًا هو يحوي هندسة رقمية.. وقد حاول الكثيرون اكتشاف هذه المعجزة الهندسية التي يحويها، وليس عمي فقط، فعدد الحروف في بعض السور مقدر بشكل معين لا نستطيع نسبة إلى قوانين الصدفة.. لكن ما الذي تعنيه هذه النسب؟؟ هل هي بيان لإعجاز الله في جميع مخلوقاته؟؟ هل لها أسرار؟؟ بالنسبة لي فأنا لا أجد دليلًا ملموسًا على أن لها أسرارًا.. قد يكون علمًا في باطن الغيب يكشفه لنا أحد الدارسين مستقبلًا، وحتى ذلك الوقت لا معرفة لدي أستطيع أن أستند عليها.

ثانيًا.. بالنسبة للكتب، السؤال كان كيف يمكن لإمام مثل (جلال الدين السيوطي) أو غيره من العلماء الأجلاء أن يكتبوا مثل هذه الكتب؟؟ هذا ما كان يثير حيرتي فعلًا.. هل كان عالمهم غير عالمنا؟؟ هل كانت هذه العلوم صحيحة في وقتهم، ثم تم تحريفها مع الوقت؟؟

الحقيقة التي توصلت لها بعد بحث مضني على شبكة الإنترنت وأسئلة كثيرة للعارفين بهذه الأمور هي أن كُتاب هذه الكتب هم سحره لا علاقه لهم بدين أو ورع أو تقوى.. هم فقط ينسبون هذه الكتب إلى هؤلاء العلماء الأجلاء لإضفاء مصداقية على الأمر، وإيقاع غير الدارسين أو المتخصصين في الفخ.. وهذا هو ما حدث معي أنا وعمي و(مصطفى) تمامًا.. لولا تلك الأسماء لما انخرطت في تلك الأمور من البداية.

يبقى هنا السؤال.. ما هي العلوم التي تحتويها تلك الكتب، والتي يطلق عليها العلوم الباطنية؟؟

اعتقادي الشخصي والذي أثبتته لي التجربة هو أنه لا شيء في الدين يسمى بالعلوم الباطنية.. ما قاله الله ورسوله وصحابته واضح جلي للعموم.. لا يوجد علم خفي اختص الله به أحدًا من الناس.. قد تكون هناك كرامات ومنزلات خاصة، أعطاها الله للبعض نتيجة للتقرب والتصوف، لكن هذا ليس علمًا قابلًا للبحث والتجربة والتكرار والتطبيق والممارسة.

بعد بحث طويل مضني في مصادر هذه الكتب، رأيت أن معظمها يعتمد في حديثه على علم (الجفر)، المنسوب زورًا وبهتانًا إلى سيدنا الإمام (علي بن أبي طالب) كرم الله وجهه.. لم يثبت بأي شكل من الأشكال أن الإمام (علي) كان يمارس أو حتى يعرف شيئًا عن هذا العلم المجهول.

المثير هنا هو أنني اكتشفت تشابهًا خطيرًا يكاد يصل للتطابق بين علم (الجفر) وعلم (الكابالا Kabbalah) أو (القبالة) عند اليهود. وعلى عكس ما يعتقد الكثيرون فالـ(كابالا) لم تبدأ كسحر، بل بدأت كمذهب في تفسير الكتاب المقدس عند اليهود (التوراة) يقوم على إعطاء كل حرف أو كلمة فيه بعض الخصائص الخفية التي لا تظهر إلا للعابدين وأصحاب الحظية عند الله، اهتم الشيعة بعدها كثيرًا بهذا العلم، ودراسته، ونقله إلى الكتاب المقدس في الإسلام.. القرآن..

بالنسبة لي كل هذا تزوير وكفر وشرك؛ فالله لم يأمرنا بهذا مطلقًا.. لم يثبت أن أيًا من الصحابة، أو التابعين، أو حتى تابعي التابعين مارسوا مثل هذه العلوم بأي شكل من الأشكال.

الرجل الذي احترت فيه حقيقة هو الإمام (أحمد بن علي البوني).. هل هو ساحر مدعٍ أم هو إمام جليل افترى عليه أحد السحرة، ووضع اسمه على الكتاب؟؟

تقول المصادر أنه دارس للمذهب المالكي، وعالمٌ فقيه في الدين.. هل وقع في الفخ مثل كثير ممن غيره، وانكب على هذا النوع من العلوم، أم أن الكتاب مدسوس عليه؟؟ نتيجة لقلة المصادر عن أصله ونسبه وحياته، لا أستطيع إلا أن أقول (الله أعلم).

شيء وحيد لم أنجح في تفسيره مهما حاولت..

الرجل الغامض..

لو كنت أرى هذا الرجل وحدي لقلت أنها هلاوس أو أضغاث أحلام، لكن الغريب في الأمر أن جميع من اقترب من الكتاب بشكل أو بآخر رأى هذا الكائن الغامض.. لماذا وكيف؟؟ لا أعرف.. ماذا كان يريد؟؟ أيضًا لا أعرف.. هل هو خير أم شر؟؟ غير معلوم لدي.

ولكن ما أعرفه وأوقن به الآن –برغم عدم ارتياحي– هو أنه عاد إلى حيث جاء.

انتهى الأمر تمامًا..

***

(جزء آخر من مذكرات (جمال)، كتبه بعدها بسنوات طويلة)

(نلاحظ هنا بعض الدموع الجافة على الورقة، كأن صاحبها كان يبكي وهو يكتب)

لا أريد الكتابة..

لا أريد الكتابة، ولكن لا أستطيع الكلام مع أحد..

لا أريد الكتابة، ولكن لا حل سواها.. دوما ما تثبت الكتابة أنها أفضل من أي طبيب نفسي.. تسكب ما يضايقك على الورق فينمحي من ذاكرتك تمامًا.

جاء عمي للمبيت عندنا..

أصبح مسنًا، ويبدو عليه المرض الواضح.. لم أعهده معتل الصحة بهذا الشكل من قبل.. كأن شيئًا ما يمتصه من الداخل.

كنت أعتقد أنه جاء لأنه شهر رمضان، ولكن في الواقع عرفت بعدها أن رغبته كانت أن يجيء للمبيت عندنا، ويعطيني تلك الأجندة الحمراء الكبيرة.

أجندة جديدة تحوي كل أبحاثه التي أجراها في عمره كله على حروف القرآن.

أعطاها لي، ولم يتكلم..

كانت تحوي واحدة من اثني عشر تجميعة لحروف القرآن الفردية كلها. تتجمع جميعها لتشكل جملًا عجيبة منها تلك الجملة.

(كن هي عصا سحر مطلق)..

سألته كثيرًا ماذا يريدني أن أفعل بها، ولكنني لم ألق إجابة واضحة أبدًا.

كل ما كان يقوله هو أنه يريد مني أنا أن أحتفظ بها.

ليلة البارحة، قال لي:

.«أنا عايز آكل وآشرب من إيدك»

فكان كلامه كالخناجر التي تطعن قلبي في مقتل.. أشعر بالشفقة عليه، وينقبض قلبي كلما نظرت إلى وجهه المريض.

نفذت ما طلبه فعلًا، فأعددت له الطعام وأطعمته بيدي، وبعد أن تناول الطعام نهض في صعوبة للاستحمام.

وبعد أن أنهى استحمامه ذهب إلى الصلاة.. لم يكن يصلي منذ فترة بسبب المرض الذي جعل جسده متخشبًا صعب الحركة..

أنهى صلاته، ثم ذهب للنوم على سريري في الغرفة، ونمت أنا على أريكة الصالة.

وبعد أن استيقظت صباحًا، قالت لي أمي:

.«أنا قلقانة على عمك.. ادخل شوفه»

فأحدث كلامها قلقًا غير مبرر في نفسي.. لم أرد الدخول، ولا أدري لماذا.. طلبت مني كثيرًا أن أدخل له، فكنت أقابلها بالرفض القاطع.. لم أكن لأتحمل الأمر.

فدخلت هي..

دخلت ووجدته وقد فاضت روحه إلى بارئها، ومزق هذا قلبي بنصال من نار.

كنت أعشقه فعلًا.. ربما لم أعرف مقدار حبي له إلا بعد أن أسلم الروح.

لم أظن يومًا أنني سأتلقى تعازي الناس الحارة عليه هو..

انتهى الأمر.. كل مخلوق حي سيموت.. هذا طبيعي.. خلقنا من الطين والتراب وإليه سنعود، إلا أنني لا أستطيع الاحتمال.. أشعر بأن ابني أو والدي هو المتوفي.. إحساس غريب، معقد لا يمكنني وصفه، ولكنه يمزقني تمزيقًا.

غدًا سأذهب إلى غرفته في بيت جدتي، لأجلس فيها قليلًا..

لابد أن ريحه مازالت فيها..

لا أدري ماذا أكتب..

لم يتبق شيئًا لأقوله..

***

تقترب الكاميرا من بعيد نحو ذلك الشاب الذي يفتح باب الشقة، ويدلف إلى الداخل..

إنه (جمال).. هذا واضح.. وهذا بيت جدته..

تراقب المشهد من فوق كتفه، وهو يتوقف قليلًا..

ينظر إلى باب غرفه (صلاح) مترددًا..

يشعر بأنه لا يريد الدخول.. يفكر في أن الغرفة بدون وجود (صلاح) ستكون مقبضة بشكل لن يتحمله أبدًا.

يغلق باب الشقة، ويخلع معطفه وهو يجلس على مقعد بجواره موجهًا بصره إلى باب الغرفة الكئيب.

تدور الكاميرا حوله هو والباب لبرهة، قبل أن يحسم هو أمره وينهض.

يتجه إلى باب الغرفة..

يضع يده على المقبض البارد المذهب الذي طالما لمسه من قبل..

يشعر بالكآبة تحطمه من الداخل..

يدير المقبض ليفتح الباب..

(صوت تكة خافتة)

(صوت صرير الباب)

ينفتح الباب أمامه على مصراعيه..

يطل هو برأسه إلى الداخل، ثم يتسمر مكانه تمامًا.. فتدور الكاميرا وترتفع فوق كتفه لتعطيك نظرة على المشهد الذي يراه.

ذلك النقش الذي على الحائط..

قفل الرصد..

ذلك النقش لم يعد نقشًا.. بل أصبح لوحة كاملة..

جدار كامل يمتلئ بالنقوش، والخطوط، والحروف، والرموز، والكلمات.

جدار كامل، تبدو النقوش التي عليه وكأنها مشعة.. كأنها تضيء بنور خافت.

يتراجع (جمال) إلى الخلف خطوة، بينما تنسحب الكاميرا إلى الخلف في سرعة.

تخرج من النافذة، ثم تطير في السماء الحمراء ببطء نحو مشهد الغروب الذي يتبدى لعينيك في الأفق.

مشهد الشمس التي تبعث ضوءًا خافتًا يخبو بسرعة، ويعيد إلى ذهنك الأحداث كلها.

يعيد إلى ذهنك ذلك الاسم المقبض..

(شمس المعارف الكبرى)..

تمت بحمد الله..

النهاية..

The End..

كتاب الشمس

THE BOOK OF THE SUN

محمود علام

الأحداث التالية و كل الشخصيات المذكورة ها هنا حقيقية تماما.
و يمكنكم البحث عن الطرق و الشخصيات من خلال شبكة الإنترنت مع مراعاة تاريخ البحث..

أما عن الأحداث نفسها . فأنا لا أنصح بقراءتها ليلا ولا بتجريب أي طريقة تجدونها في الصفحات القادمة بأي صورة من الصور لأنها لن تفيدكم على الإطلاق، بل على النقيض تماما..

أعرف أن الأمر أقوى منكم.. هذا شيء طبيعي و مفهوم.. في داخل كل إنسان فضول قط كبير يرغب في عبور الشارع.. بعضهم ينجح في العبور فعلا، و البعض الآخر تدهسه السيارة.. فأيهم أنتم؟!..

لا أعرف. و بالتأكيد أتمنى أن تعبروا الشارع في سلام. و لكن السيارات كثيرة فعلا..

فقط تذكروا..

المعرفة المحرمة لا تقود إلى التنوير. ولا تؤدي لشيء إلا لفتح باب إلى الجحيم.. باب لا تريدون تجربته..









